
بسم الله الرحمن الرحيم
سيمياء الدم والموت
في
النهضة الحسينية

طُبِعَ برعاية
العتبة الحسينية المقدسة



الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ – ٢٠٢١م

العراق: كربلاء المقدسة – العتبة الحسينية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية – هاتف: ٣٢٦٤٩٩

www.imamhussain-lib.com
E-mail: info@imamhussain-lib.com

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق - وزارة الثقافة العراقية لسنة ٢٠٢١ - ١٤٨٦

العبيدي، طلال خليفة سلمان - مؤلف.

سيمياء الدم والموت في النهضة الحسينية / تأليف د. طلال خليفة سلمان العبيدي. — الطبعة الأولى -- كربلاء، العراق : العتبة الحسينية المقدسة، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، شعبة الدراسات والبحوث، ١٤٤٢ للهجرة = ٢٠٢١ .

٣٠٤ صفحة ؛ ٢٤ سم. -- (العتبة الحسينية المقدسة ؛ ٧٥٣)، (قسم الشؤون الفكرية والثقافية ؛ ٢٦٩)، (شعبة الدراسات والبحوث ؛ ١٩٩).

يتضمن هوامش، لائحة المصادر (الصفحات ٢٩٢-٢٩٥).

١. الحسين الشهيد، الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) الإمام الثالث، ٦١-٤ للهجرة - استشهاد. ٢. معركة كربلاء، ٦١ للهجرة. ٣. الدم - الدلالة المعنوية. ٣. الموت - الدلالة المعنوية. أ. العنوان

ردمك: ٩٧٨-٩٩٢٢-٦٥٥-٠٣-١

LCC : BP193.13 .U2 2020

تمت الفهرسة قبل النشر في شعبة نظم المعلومات التابع لقسم الشؤون الفكرية العتبة الحسينية



د. طلال خليفة سلمان العبيدي





وحدة الدراسات التخصصية

في الإمام الحسين عليه السلام

هوية الكتاب

عنوان الكتاب: سيمياء الدم والموت في النهضة الحسينية.

المؤلف: د. طلال خليفة سلمان العبيدي.

الناشر: العتبة الحسينية المقدسة.

المطبعة: دار الوارث.

عدد النسخ: ٥٠٠.

سنة الطبع: ٢٠٢١ م - ١٤٤٢ هـ.

الطبعة: الأولى.

التصميم والإخراج الفني: عبد الصاحب رضا صادق.

المقدّمة

إن المتتبع الدقيق للنهضة الحسينية، والقارئ المتفحّص لأحداثها، وللأحداث التي سبقتها وتبعتها، ولبعض الكلمات التي قالها الإمام الحسين عليه السلام، وقالها غيره ممّن تفاعل مع نهضته المباركة بشكل إيجابي من أهل بيته أو أصحابه أو المؤيّدين له، أو تفاعل معها بشكل سلبي من أعدائه أو غير المؤيّدين له، يجد الكثير من هذه الأحداث مفعمة ومتوهّجة بالدم، ومشحونة ومملوءة بذكر الموت ومنتهية به، ويقرأ ويسمع الكثير من الأقوال التي قالها الإمام الحسين عليه السلام ومن كان في معسكره، أو قالها أعداؤه تطفح وتتوهّج بذكر الدم، وتُكثر من ذكر الموت والألفاظ الأخرى التي تشير إليه وتدلّ عليه، كالقتل، والشهادة، والذّبح، والمنيّة، والفداء بالنفس، وتقطيع الأعضاء، ومفارقة الأرواح للأجساد، والسلّة، وبذل المهج، وتوطين النفس على لقاء الله، والحِمام، وقطع الرأس، وضرب العنق، والمصرع، والاستبشار بالذهاب إلى الآخرة، وغيرها. إن هذه الكثرة في ذكر الدم، وفي ذكر الموت والكلمات الأخرى التي تشير إليه، وفي تمظهرهما الكبير والجلي تشكّل أمرا لافتا للمتلقي الذي يقرأ هذه الأحداث والأقوال ويسمعها، وتشكّل حافزا له، وتعطيه دافعيّة كبيرة بتعبير علم النفس؛ ليحاول الولوج إلى قراءة سيميائية الدم والموت في النهضة الحسينية، واستكناه الإشارات والعلامات السيميائية التي تشير إلى الدم والموت، سواء أكانت علامات لغوية، وهي الأكثر، أو علامات صورية تُصوَّر عبر التمظهرات اللغوية بوساطة النصوص التي وصلت إلينا.

لقد كانت فكرة هذا البحث تشغل بالي منذ سنوات، وحاولت مرارا الوصول إلى أسباب كثرة ورود ذكر الدم، والموت في نصوص النهضة الحسينية وفي أحداثها، حتى شرعت بكتابة هذا الكتاب الذي حمل اسم (سيمياء الدم والموت في النهضة الحسينية)، وقد قدّمت دراسة الوحدات السيميائية الدالة على الدم على الوحدات السيميائية الدالة على الموت؛ لأن نزف الدم يسبق الموت ويحيل إليه، ولأن الدم يشكّل مقدمة للموت وعلامة واضحة من العلامات التي تشير إليه، وتنبئ بحدوثه، وتشكّل إرهاصا له.

تأتي أهمية البحث من السعي إلى قراءة نصوص النهضة الحسينية وأحداثها قراءة تتّسم بالحداثة والدقّة والعمق عن طريق الغوص فيها ومحاولة استكناه إشاراتها الظاهرة، والراكسة في عمقها بوساطة توظيف المنهج السيميائي في تحليل النصوص الذي يتّسم بالدقّة والصرامة والضبط في مقاربة النصوص، والعمق في تحليلها، وعدم الاكتفاء بإشاراتها السطحية، بل الغوص عميقا في قراءة دلالاتها الظاهرة والمتوارية المشحونة بالكثير من المعاني والإشارات المهمّة.

انقسم البحث على مهاد نظري، وخمسة فصول، كان هدف المهاد النظري هو تقديم نبذة مختصرة جدا عن السيميائيات، وعن أهمية العلامة، وبيان سبب اختيار المنهج السيميائي إجراءً نقديا في هذا الكتاب، وجاء الفصل الأول الموسوم ب(الوحدات السيميائية الدالة على الدم)؛ ليرصد مفردة الدم وتمظهراتها في نصوص النهضة الحسينية وأحداثها، وليبيّن أسباب كثرة ورود هذه المفردة، وبعد الانتهاء من الفصل الأول قدّمت توطئة عن فلسفة الموت في الفكر الإسلامي، ونظرة القرآن الكريم إليه، ونظرة العرب إليه، وأنهيت التوطئة بنظرة الفكر الغربي إلى الموت، ثم شرعت بالفصل الثاني المعنون ب(الوحدات السيميائية الدالة على القتل)، المخصّص لدراسة مفردة القتل واشتقاقاتها،

فقد كان القتل هو الأكثر ورودا من المفردات الأخرى التي تشير إلى الموت، كالموت، والشهادة، والذبح، وضرب العنق، والمنيّة، ولقاء الله...إلخ؛ لذلك قدّمت فصل القتل على فصل الموت، وفصل الشهادة، ثم درست في الفصل الثالث الذي جاء تحت اسم (الوحدات السيميائية الدالة على الموت) مفردة الموت بمختلف اشتقاقاتها وتمظهراتها في نصوص النهضة الحسينية، وتمحور الفصل الرابع (الوحدات السيميائية الدالة على الشهادة) حول دراسة كلمة الشهادة واشتقاقاتها، فيما جاء الفصل الخامس (وحدات سيميائية أخرى دالة على الموت) مخصصا لدراسة العلامات اللغوية الأخرى التي أشارت إلى الموت.

مهاد نظري

يبدو لي أن المنهج الأنسب والأقرب لقراءة إشارات الدم والموت وعلاماتها في النهضة الحسينية هو المنهج السيميائي، فالسيميائيات تعدّ "تقنية في البحث نجحت في وصف اشتغال سيرورة الإبلاغ والدلالة"(١)، كما يرى أمبرتو إيكو الذي يضيف قائلا: "وتبعا لذلك فإن فلسفة العلامة يجب أن تنظر إلى أساليب تحليلها باعتبارها قادرة على تمكين كل خطاب فلسفي من مراقبة حدوده الخاصة"(٢)، كما أن العلامة توظَّف "من أجل نقل معلومات، ومن أجل قول شيء ما، أو الإشارة إلى شيء ما يعرفه شخص ما يريد أن يشاطره الآخر هذه المعرفة. إنها بذلك جزء من سيرورة تواصلية"(٣)، ومن ثم فإن السيميائيات "تقدّم نفسها في أغلب الأحيان على أساس أنها العلم الذي يدرس العلامات، ولكن هذه العلامات هي المادة الأساس التي تستعملها كل الكائنات من أجل التواصل مع كائنات أخرى استنادا إلى السيرورة التي يؤسسها نسق إبلاغي يطلق عليه بيرس السيميوز أو عملية التوليد السيميائي"(٤).

ويرى جان ماري كلينكنبرغ أن السيميائية "تأمل في إطلاق حوار بين كل الاختصاصات، وتشكّل بالتالي القاسم المشترك بينها. فهي بالفعل تتقاسم جميعا خطا واحدا أو نفس المصادرة: التدليل. فالأنثروبولوجي يعطي دلالات لسلوكات وطقوس

---

(١) العلامة. تحليل المفهوم وتاريخه، أمبرتو إيكو، ترجمة سعيد بنكراد، مراجعة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط ٢، ٢٠١٠ م، ٤٢.

(٢) العلامة، ٤٢.

(٣) العلامة، ٤٧.

(٤) العلامة، ٤٤.

تماما كما يفعل مستخدم اللغة مع الأصوات، وشخص ما مع حركات جاره. لقد أعطت السيميائية لنفسها هذه المهمة: كشف ما يعتبر مسلّمة عند الآخرين. أي دراسة الدلالة ووصف صيغ اشتغالها والعلاقة التي تعقدها مع المعرفة والفعل. وهذا عمل مضبوط تماما وبالتالي معقول. لكنها مهمة طموحة أيضا؛ لأن القيام بها يجعل من السيميائية نظرية النظريات"(١) التي تسعى إلى تحليل جميع الأنظمة وفكّ شيفراتها.

يعتمد المنهج السيميائي في تحليله للنصوص على أسس منهجية وعلمية منضبطة وعقلانية لا مجال للأهواء فيها، إذ يعمل التحليل السيميائي على "إجراء تقطيع النص إلى وحدات صغرى؛ طلباً للمنهج العلمي الذي أصبح منهجيّة في عملية البحث من جهة، وتحقيق الانسجام بين مكوّنات العلم من جهة أخرى"(٢)، ولا يقتصر التحليل السيميائي على مجرّد تقطيع النص إلى وحدات صغرى، والوقوف على عناصره المنفردة، بل يعنى كثيراً بما ينظم هذه العناصر، ويؤلّف بينها في إطار يمنحها الشكل والدلالة الخارجية المكوّنة من تعاضد هذه العناصر(٣)، وبهذا فإنّ مهمة المحلل السيميائي تتمحور "في اكتشاف شبكة العلاقات القائمة في مستوى القرائن؛ وذلك بغية تحويلها هي بذاتها إلى دلالة أخرى تغطي على الدلالات السوالف، وربما تتجاوزها"(٤) إلى دلالات أخرى.

إن مجالات السيميائيات كثيرة ومتعدّدة ومتشعّبة، فهي العلم الذي يدرس العلامات داخل الحياة الاجتماعية بحسب دي سوسير، أو هي العلم الذي يدرس كلّ شيء حتى

(١) الوجيز في السيميائية العامة، جان ماري كلينكنبرغ، ترجمة د. جمال حضري، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٤٣٦هـ ٢٠١٥ م، ٥.

(٢) الدلالات المفتوحة: مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، أحمد يوسف، منشورات الاختلاف، المغرب، ط١، ٢٠٠٥ م، ٨٢.

(٣) ينظر: سيميائية نوازع النفس في القرآن الكريم، سائدة حسين محمد العمري، رسالة ماجستير، الجامعة الاسلامية بغزّة، كليّة الآداب، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م، ٦٦.

(٤) في القراءة السيميائية، عامر الحلواني، مطبعة التفسير الفني، تونس، ط١، ٢٠٠٥، ٢٩.

الطعام والموضة واللباس والإشـهار والرياضـيات، وغـير ذلـك اعـتمادا على تصوّر بيرس[١]، وكلّ شيء لن يكون علامة إلا في حال تأويله بعدّه علامة على شيء من لدن مؤوّل، كما يرى أمبرتو إيكو، استنادا إلى رأي موريس[٢].

يمكننا الإفادة من المستوى الدلالي في التحليل السيميائي الذي "يتمثّل في التمظهرات اللغوية للدلالة الاجتماعية أو النفسية أو هما معا داخل النصوص الأدبية. وتنطلق دراسة هذا المستوى هي أيضا من الشيفرة اللغوية وتجلّيها النصّي، لكن بمنظور توليدي يستقصي الآليات النصية المسؤولة عن إنتاج الدلالة الاجتماعية أو النفسية في النص"[٣]، كما يمكننا الإفادة من المستوى التداولي في التحليل السيميائي، "والبحث السيميائي في هذا المستوى يهتم بتجليات الشيفرة اللغوية داخل النص الأدبي، لكن من منظور السياق التواصلي الذي يجمع بين الكاتب والقارئ وما يتولد عن ذلك من دلالات اجتماعية أو نفسية أو تاريخية"[٤]، وبناءً على ما تقدّم ذكره فإني سأدرس العلامات اللغوية التي أشارت إلى الدم، والعلامات اللغوية التي أشارت إلى الموت ودلالات هذه العلامات وإشاراتها ورمزيّتها في نصوص النهضة الحسينية، كما سأدرس العلامات الصورية التي نقلتها لنا النصوص اللغوية، وسأسعى إلى بيان سبب هذه الكثرة في ذكر الدم، وذكر الموت، والألفاظ المتعددة والمتكاثرة التي تشير إليه بشكل لافت للمتلقي لأحداث النهضة الحسينية، ونصوصها، وصورها.

---

(١) ينظر: معجم السيميائيات، فيصل الأحمر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ١٤٣١ هـ ٢٠١٠م، ١٠٢.

(٢) ينظر: العلامة، ٦٥.

(٣) السيمياء العامة وسيمياء الأدب من أجل تصور شامل، عبد الواحد المرابط، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط ١، ١٤٣١ هـ ٢٠١٠ م، ١١٢.

(٤) السيمياء العامة وسيمياء الأدب، ١١١.



الفصل الأول

الوحدات السيميائية

الدالّة على الدم



الوحدات السيميائية الدالّة على الدم

الدم ذلك السائل الأحمر الذي يمثّل سائل الحياة الذي يتدفّق داخل جسم الإنسان وفي شرايينه وأوردته، وباستمرار تدفّقه واندفاعه بوساطة تقلّص عضلة القلب وانقباضها تستمرّ حياة الإنسان، وبانقطاع هذا التدفّق بسبب مرض معين، أو أي حادث يتعرّض له الإنسان، فإن حياته تتعرّض للخطورة أو النهاية الحتمية، إن هذه العلامة اللغوية (الدم) تحمل دلالتين متضادتين:

الأولى: دلالة الحياة واستمرارها.

الثانية: تعرّض الحياة للخطر أو انقطاعها ونهايتها، أي الموت، وبين هاتين الدلالتين الرئيستين نجد دلالات أخرى لا تقل أهمية عنها، منها دلالته على الثأر والقتال والقتل، والدفاع عن الحقّ والمبدأ، ومقاومة الظالمين والثورة عليهم وعلى طغيانهم وظلمهم وجبروتهم، وغسل الشرف من الأدران التي قد تلحق به، والنسب والقرابة، وعشق المحبوب الذي يرخص من أجله الدم، فضلا عن أن لونه الأحمر المعروف بِطولِهِ الموجي يشير إلى الخطر المحدق بالإنسان، ويشكّل علامة دالة على الموت، وإرهاصا ومقدمة له؛ لذلك قدمتُ ذكره على الموت في هذا البحث؛ لأنه يسبق الموت في كثير من الأحيان، ويشكّل علامة سابقة له ومقدمة تنبئ بحدوثه.

إن الدم تلك العلامة المهمة، بطبيعته المعروفة، وإشاراته ودلالاته التي يبعثها، وبلونه المؤثّر والجاذب يشتغل "علاميا مؤشرا ورمزا، المؤشر هو علامة فورية بمعنى أن الدلالة

تكون فيه مجاورة للدال، فالدم الذي يسيل ويلطخ شعر الرأس يدلّ على أنه مشجوج، وهذه دلالة المؤشر (...) لكن التعامل العلامي مع الدم لا يتوقف عند حدود المؤشر، بل يتسع استخدامه العلامي ليصبح رمزا. لنفترض أني أرى عزيزا عليّ مشجوجا، فإني لن أتوقف عند مجرد الفهم الأول للعلامة، بل سأخاف على سلامته، وعندئذٍ سيصبح المؤشر مؤثرا"[١] ورمزا للخطر الذي يحدق بهذا العزيز. إن طبيعة اشتغال علامة الدم في بنائنا المجتمعي وأنساقنا الثقافية تجعل منه علامة سيميائية ترمز إلى الكثير من الدلالات والمعاني أكثر من كونه مؤشرا[٢]، ولعل كثرة هذه الدلالات وغزارتها وعمق معانيها جعلت منه علامة بارزة ومؤثرة على امتداد التاريخ الإنساني بشكل عام، والتاريخ العربي بشكل خاص.

إن تاريخ البشرية مشحون بسفك الدماء والقتل منذ بدايته حينما سفك قابيل دم أخيه هابيل بحجر شجّ بوساطته رأس أخيه، فسال أول دم، وقتلت أول نفس، حينما طوّعت نفس قابيل الأمارة له قتل أخيه. قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٣]، واستمر سفك الدماء والقتل على امتداد التاريخ إلى أن وصلت النوبة إلى دم الحسين عليه السلام، ليشهد التاريخ أبشع جريمة وأقسى قتلة، وليسجّل في سجلّه الحافل بالدماء سفك دم طاهر وقف صاحبه بوجه الظالمين قائلا:

"أما والله لا أجيبهم إلى شيء مما يريدون حتى ألقى الله وأنا مخضّب بدمي"[٤].

---

(١) مقال: سيميائية الدم العربي، توفيق قريرة، القدس العربي، على الرابط الآتي: www.alquds.com.uk، بتاريخ ٢١ / ١١ / ٢٠١٧.

(٢) ينظر: سيميائية الدم العربي.

(٣) المائدة: الآية ٣٠.

(٤) مقتل الحسين، السيد عبد الرزاق المقرّم، مطبعة غدير، قم، ط ١، ١٤٢٤هـ، ٢٥٠.

واللّه لا أظنّ امرءاً يحاسب بدم الحسين إلا خفيف الميزان يوم القيامة

ورد ذكر الدم في الكثير من مفاصل نهضة الإمام الحسين عليه السلام، وفي نصوصها ومشاهدها، ولعلّ أول تمظهر له ورد منسوبا للحسين عليه السلام ومضافا إليه،(دم الحسين)، في الحوار الذي دار بين مروان بن الحكم والوليد بن عتبة، حينما طلب الأخير من الإمام مبايعة يزيد بن معاوية، إلا أن الإمام رفض بيعة يزيد، وطلب الإمهال إلى الصباح، فما كان من مروان إلا أن يقترح على الوليد قتل الحسين عليه السلام قائلا:

"إن فارقك الساعة ولم يبايع لم تقدر منه على مثلها حتى تكثر القتلى بينكم، ولكن احبس الرجل حتى يبايع أو تضرب عنقه"[(١)]، فرفض الوليد ولم يفعل، وخرج الإمام عليه السلام من ذلك المجلس[(٢)]، وبعد خروجه، "قال مروان للوليد:

عصيتني. فو الله لا يمكنك على مثلها.

قال الوليد: وبّخ غيرك يا مروان! اخترت لي ما فيه هلاك ديني. أقتل حسينا إن قال لا أبايع؟ والله لا أظن امرءاً يحاسب بدم الحسين عليه السلام إلا خفيف الميزان يوم القيامة، ولا ينظر الله إليه، ولا يزكّيه، وله عذاب أليم"[(٣)].

إن التأمّل في حقل العلامات اللغوية المشكّلة لهذا الحوار يحيلنا إلى علامة محورية ومهمّة فيه، هي كلمة (دم) التي أضيفت ونُسبت إلى الحسين عليه السلام، وعُرّفت به، ولعلّه لم يكن اعتباطا أو صدفة أن يكون أول ذكر للدم في أحداث النهضة الحسينية وفي نصوصها منسوبا للإمام الحسين عليه السلام؛ لأن الأحداث ستدور على محاولات

---

(١) مقتل الحسين، ١٢٨ – ١٢٩.

(٢) ينظر: مقتل الحسين، ١٢٩.

(٣) مقتل الحسين، ١٣٠.

سفك دمه الشريف وقتله إن لم يبايع منذ بدايتها إلى نهايتها المأساوية بسفك دم أصحابه، وأهل بيته، ثم سفك دمه وقتله، ف (دم الحسين) يشكل إرهاصا وعلامة سيميائية ترمز إلى قتله في قابل الأحداث، فقد كان محور الحوار الدائر بين شخصيتين تنتميان إلى المعسكر المعادي للإمام هو دم الحسين عليه السلام، وكان من اللافت أن يتحدث الوليد بن عتبة بهذا الحديث الذي يبيّن فيه، وبشكل واضح من دون مواربة حرمة دم الإمام، وعقوبة من يسفكه يوم القيامة، وقد حاول أن ينأى بنفسه عن هذا الأمر الخطير؛ لكي لا يحاسب بدم الحسين عليه السلام، فهو يقسم بلفظ الجلالة في قوله: (والله لا أظن امرءاً يحاسب بدم الحسين عليه السلام إلا خفيف الميزان يوم القيامة، ولا ينظر الله إليه، ولا يزكيه، وله عذاب أليم)، ويوظّف النفي ب(لا) والاستثناء ب(إلا)؛ ليؤكد هذا المعنى ويحصره، وهو أن من يسفك دم الحسين عليه السلام سيحاسب حسابا شديدا، وسيكون خفيف الميزان يوم القيامة، ولا ينظر الله تعالى إليه، ولا يزكيه، بل سيعذّبه عذابا أليما؛ بسبب اقترافه جريمة سفك دم الحسين عليه السلام، ولا يريد أن يكون هو من يقترف هذه الجريمة النكراء.

حبيبي يا حسين كأنّي أراك عن قريب مرمّلا بدمائك

بعد ذلك زار الحسين عليه السلام قبر جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله في ليلتين متتاليتين، وفي الليلة الثانية "وضع رأسه على القبر فغفا، فرأى رسول الله صلى الله عليه وآله في كتيبة من الملائكة عن يمينه وشماله وبين يديه، فضمّ الحسين عليه السلام إلى صدره، وقبّل ما بين عينيه، وقال: حبيبي يا حسين كأني أراك عن قريب مرملا بدمائك مذبوحا بأرض كربلاء"[(١)]. إن هذا النص فيه أكثر من إشارة إلى استشهاد الحسين عليه

(١) مقتل الحسين، ١٣٢.

السلام، منها جملة (وقبّل ما بين عينيه)، إذ المعروف في النسق الثقافي العربي أن واحدة من إشارات تقبيل ما بين العينين هي الفراق الذي قد يكون بسبب الموت في بعض الأحيان، كما أن في قوله صلى الله عليه وآله: (مرمّلا بدمائك) إشارة واضحة إلى تلطخ الحسين عليه السلام بدماء الشهادة، وقد جاءت العلامة اللغوية التي تشير إلى الدم بصيغة الجمع (بدمائك)، وليس بصيغة المفرد (بدمك)؛ للتدليل على كثرة الدماء التي سينزفها جسد الحسين عليه السلام، وفي ذلك إشارة إلى كثرة الجروح والطعنات والضربات المؤلمة التي ستمزّق جسده الطاهر، وتؤدّي إلى شهادته، وثمّة إشارة ثالثة إلى شهادته، هي كلمة (مذبوحا) التي سنتناولها في مبحث الذبح.

فوران دم القارورتين

من العلامات السيميائية الدالة على استشهاد الإمام الحسين عليه السلام فوران القارورتين اللتين كانتا بحوزة السيدة أم سلمة دما عبيطا بعد ظهيرة اليوم العاشر من المحرم، فقد أعطاها القارورة الأولى النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، وأعطاها الثانية الإمام الحسين عليه السلام، إذ تقول له، ناصحة إيّاه بعدم الخروج إلى العراق:

"لا تحزنّي بخروجك إلى العراق، فإني سمعت جدك رسول الله يقول: يقتل ولدي الحسين عليه السلام بأرض العراق في أرض يقال لها كربلاء، وعندي تربتك في قارورة دفعها إلي النبي"[1]، ومما قال في جوابه لها:

"« **يا أماه إن لم أذهب اليوم ذهبت غدا، وإن لم أذهب في غد ذهبت بعد غد، وما من الموت والله بدّ، وإني لأعرف اليوم الذي أقتل فيه، والساعة التي أقتل فيها، والحفرة التي**

(١) مقتل الحسين، ١٣٥.

أدفن فيها » (...) ثم أعطاها من تلك التربة، وأمرها أن تحتفظ بها في قارورة، فإذا رأتها تفور دما تيقنت قتله، وفي اليوم العاشر بعد الظهر نظرت إلى القارورتين فإذا هما يفوران دما"[١]، وهنا شكّل فوران الدم في القارورتين علامة بصرية ولونية واضحة على تحقّق مقتل الحسين عليه السلام يوم عاشوراء، علمت بوساطتها السيدة أم سلمة باستشهاده على الرغم من بُعد المسافة بين المدينة المنوّرة وكربلاء، وعلى الرغم من صعوبة إيصال الخبر بهذه السرعة في ذلك الزمن الذي لا تتوافر فيه وسائل النقل السريعة أو وسائل الاتصال، لذلك نرى تأثّر السيدة أم سلمة بهذه العلامة السيميائية، وبكاءها حزنا على مقتل الحسين عليه السلام، "ولما سمع ابن عباس بكاءها أسرع إليها يسألها الخبر فأعلمته بأن ما في القارورتين يفور دما"[٢]، وبذلك حققت هذه العلامة فعلها المؤثر بالإخبار عن استشهاد الإمام عليه السلام ظهيرة عاشوراء في العام الحادي والستين للهجرة.

ههنا محطّ ركابنا وسفك دمائنا

بعد دخول الركب الحسيني إلى كربلاء "سأل الحسين عليه السلام عن الأرض، قال له زهير: (...) إن هذه الأرض تسمى الطف.

فقال عليه السلام: « **فهل لها اسم غيره؟** »

قال: تُعرف كربلاء.

فدمعت عيناه وقال: « **اللهم أعوذ بك من الكرب والبلاء** »

« **ههنا محطّ ركابنا** »

---

(١) مقتل الحسين، ١٣٥ - ١٣٦.

(٢) مقتل الحسين، ٣٠٥.

« **وسفك دمائنا** »

« **ومحلّ قبورنا، بهذا حدثني جدي رسول الله** »"[1].

إن الحسين عليه السلام يخبر باستشهاده في أرض كربلاء بوساطة قوله: (ههنا محطّ ركابنا وسفك دمائنا ومحلّ قبورنا)، ففي هذا المكان الذي نبّه عليه وأشار إليه بوساطة قوله: (ههنا) المكوّن من (ها) التنبيه، واسم الإشارة للقريب (هنا) سيكون محط ركابهم وسفك دمائهم ومحلّ قبورهم، وقد أشارت العلامة اللغوية (دمائنا) التي وردت بصيغة الجمع إلى مقتله ومقتل أهل بيته وأصحابه، وإلى اختلاط دمه الطاهر بدمائهم الزكية، وإلى كثرة الدماء التي ستُسفك، والأرواح التي ستُزهق على أرض كربلاء؛ طلبا للإصلاح وإحقاق الحق وإبطال الباطل الذي ساد في ذلك الزمن، وطلبا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسير بسيرة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله.

لقاء اللّه بدم الحسين

قبل أن يخرج عمر بن سعد لقتال الحسين عليه السلام، جمع "نصحاءه، فنهوه عن المسير لحرب الحسين عليه السلام، وقال له ابن أخته حمزة بن المغيرة بن شعبة:

أنشدك الله أن لا تسير لحرب الحسين عليه السلام، فتقطع رحمك، وتأثم بربك، فو الله لأن تخرج من دنياك ومالـك وسلطان الأرض كله، لو كان لك، لكان خيرا لك من أن تـلقـى الله بدم الحسين عليه السلام.

فقال ابن سعد: أفعل إن شاء الله، وبات ليلته مفكرا في أمره، وسمعه يقول:

---

(١) مقتل الحسين، ١٩٧ – ١٩٨.

أأتـرك ملكَ الـريّ والـريّ رغبتي أم أرجع مذمومـــا بقتل حسين

وفي قتله الـنـار الـتـي ليس دونها حجاب وملك الريّ قرّة عيني"[(١)].

إن هذا الحدث يحيلنا إلى تردّد ابن سعد في الخروج لقتال الحسين عليه السلام؛ لذلك جمع من يثق بكلامه؛ لينصحه إزاء هذا الموقف المصيري والخطير، ولو كان مقتنعا تمام الاقتناع بالخروج لحرب الحسين عليه السلام لما طلب المشورة والنصيحة من أحد، فما كان من نصحائه إلا أن يقدّموا له النصيحة الصادقة، وينهَوْه عن المسير للحرب، وانبرى له حمزة بن المغيرة ناشدا إياه الله تعالى، وناصحا له بعدم الخروج، مسبّبا ذلك بسببين مقنعين ووجيهين

أولهما: قطع الرحم.

وثانيهما: ارتكاب الإثم الكبير.

ثم أقسم بلفظ الجلالة مفترضا لابن سعد فرضيّة مفادها: إن خرج من دنياه وماله وسلطان الأرض كله، لو كان له، لكانت أفعاله المفترضة هذه التي افترضها ابن أخته، مع شدّتها، أفضل له بكثير من أن يلقى الله تعالى يوم القيامة بدم الحسين عليه السلام، وقد أشارت مفردة (دم) التي نسبت إلى الحسين عليه السلام إلى قتله من لدن عمر بن سعد إن أصرّ على الخروج لقتاله وسفك دمه؛ طمعا في ملك الري، وطاعةً لعبيد الله بن زياد الذي منّاه بهذا الملك.

إن مما يثير انتباه المتلقي جواب عمر بن سعد لنصحائه ولابن أخته حمزة بن المغيرة بن شعبة، إذ قال لهم جوابا على نصيحتهم بعدم الخروج لقتال الإمام الحسين عليه السلام،

(١) مقتل الحسين، ٢٠٣.

وعدم التورط بسفك دمه وقتله، ومن ثم لقاء الله تعالى بدمه: (أفعل إن شاء الله)، إلا أن حب الدنيا الذي هو رأس كلّ خطيئة، وحب الملك والسلطان، جعله يبيت ليلته في أرق وتفكير لا يكاد يفارقه، وقد كشف البيتان الشعريان عن دواخل نفسه، وأعماق تفكيره، فهو يخيّر نفسه بين الحصول على ملك الريّ الذي لا يتمكن من الحصول عليه إلا عن طريق واحد لا غير، هو قتل الحسين عليه السلام الذي سيدخله نار جهنم، وبين ترك هذا الملك والجاه وعدم التورّط بدم الحسين عليه السلام والنجاة من عذاب النار، إلا أن خاتمة البيت الثاني حسمت هذا الصراع الذي اشتدّ داخل نفسه بين الخير والشر، وبين النفس اللوّامة والنفس الأمّارة، فكان النصر للشر وللنفس الأمّارة حينما ختم البيتين بقوله: (وملك الريّ قرّة عيني)، وعند الصباح ترجم موقفه هذا في تفضيل ملك الري على الإمام الحسين عليه السلام، وفي الخروج لقتاله وقتله؛ من أجل الحصول على الملك والسلطان، فقد ذهب إلى ابن زياد، وقال له:

"إنك ولّيتني هذا العمل، وسمع به الناس، فأنفذني له، وابعث إلى الحسين عليه السلام من لست أغنى في الحرب منه، وسمّى له أناسا من أشراف الكوفة.

فقال ابن زياد: لست أستأمرك فيمن أريد أن أبعث، فإن سرتَ بجندنا، وإلا فابعث إلينا عهدنا.

فلما رآه مُلِحّاً قال: إني سائر"[١]، فلو لم يكن قد حسم أمره وقرّر الخروج لقتال الحسين عليه السلام وسفك دمه والحصول على ولاية الريّ، لما أجاب عبيد الله بن زياد بهذه السرعة، ولما أكّد مسيره للحرب بحرف التوكيد (إنّ) حينما قال: (إني سائر)، من دون ممانعة أو مناقشة، أو إبداء رأي في قبال إصرار ابن زياد على إخراجه للحرب، وبهذا

(١) مقتل الحسين، ٢٠٤.

الاختبار الدنيوي فشل عمر بن سعد؛ لأنه فضّل حب الدنيا على حب الآخرة، واختار الوقوف مع أهل الدنيا والباطل على الوقوف مع أهل الآخرة والحقّ، فنصر عبيد الله بن زياد بن أبيه وابن مرجانة على الحسين عليه السلام بن علي بن أبي طالب وابن فاطمة الزهراء بنت محمد صلى الله عليه وآله، إنه فشلَ وكشفَ عن نفس مريضة أمّارة بالسوء خبيثة لا تحب الحق وأهله ولا تنصره، بل تحب الباطل وأهله وتنصره، من أجل ملك دنيوي وسلطان زائل.

أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي

في اليوم العاشر من المحرم، وفي أثناء خطبته الأولى، يحاجِج الإمام الحسين عليه السلام أعداءه عدّة احتجاجات، فهو يحاججهم بنسبه الشريف إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وإلى الإمام علي عليه السلام، وإلى السيدة الزهراء عليها السلام، وإلى حمزة سيد الشهداء وإلى جعفر الطيّار، ويحاججهم بقول رسول الله بحقّه وحقّ أخيه الإمام الحسن، ويحاججهم بسؤال صحابة رسول الله، ثم يقول لهم بعد ذلك:

"« **أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟!** »"[1]، وفي هذا السياق، وبهذا السؤال الحسيني المحاجِج حجاجا عقليا يعتمد الدليل العقلي، والدليل التاريخي، نجد الإمام يوظّف الاستفهام الذي خرج إلى معاني الإنكار والتوبيخ والتعجّب من فعلهم الذي يرومون فعله، وهو سفك دمه الذي يشير بوساطته إلى سعيهم المحموم والحثيث إلى قتله؛ بسبب عدم مبايعته الظالمين، ورفضه وضع يديه بأيديهم. إن هذه الحجج المقنعة والبراهين المنطقية لم تشكّل حاجزا ومانعا أمام القوم ليرتدعوا عن سفك دمه، لذلك

---

(١) مقتل الحسين، ٢٣٧.

أقدموا على هذا الفعل المشين، وسفكوا دمه الطاهر الذي شكّل علامة تشير إلى شهادته مضرجا بدمه.

خطبة زهير بن القين

بعد خطبة الإمام الحسين عليه السلام الأولى يوم عاشوراء، خطب زهير بن القين، وختم خطبته بقوله:

"عبادَ الله لا يغرنّكم عن دينكم هذا الجلف الجافي (يعني الشمر) وأشباهه، فو الله لا تنال شفاعة محمد صلى الله عليه وآله قوما هرقوا دماء ذريّته وأهل بيته"[١]، فهو يقسم بالله تعالى لهؤلاء القوم الذين جاؤوا لقتل الحسين عليه السلام مؤكدا بأن شفاعة النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله لا تشمل قوما قاموا بإهراق دماء ذريته وأهل بيته، ممثّلين بالإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته، وقد أشار قوله: (هرقوا دماء ذريّته وأهل بيته) إلى قتلهم وموتهم على أيدي جلاوزة بني أمية، وزهير بن القين هنا يقف منهم موقف المحذّر من سوء عاقبتهم إن أقدموا على سفك دم الحسين عليه السلام ومن معه، وهو في تحذيره هذا يشير إلى علاقة القربى بين النبي صلى الله عليه وآله وبين الإمام الحسين عليه السلام، فهو سبطه ومن ذريّته، فكيف يمكن التطاول عليه بقتله؟ إلا أن القوم لم يسمعوا كلام زهير بن القين، ولم يعوه؛ لأن الشيطان قد تمكّن منهم، والباطل قد عشعش في عقولهم وقلوبهم، فأعمى عيونهم عن رؤية الحق، وصكّ مسامعهم عن سماعه.

---

(١) مقتل الحسين، ٢٤٢.

أما والله لا أجيبهم إلى شيء مما يريدون حتى ألقى الله وأنا مخضّب بدمي

في وسط أحداث معركة الطف، ولما نظر الحسين عليه السلام إلى كثرة الشهداء من أصحابه، قبض على شيبته، وقال فيما قال:

"« **واشتدّ غضبه على قوم اتّفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيهم. أما والله لا أجيبهم إلى شيء مما يريدون حتى ألقى الله وأنا مخضّب بدمي** »"(١). إن هذا النص من النصوص المهمّة التي تبيّن فلسفة الدم، وفلسفة الموت، عند الإمام الحسين عليه السلام، الموت الذي يؤدي إليه التخضيب بالدم، ذلك الموت المدوّي في أفق الزمن وفي تاريخ الإنسانية الذي سعى إليه الحسين عليه السلام بكلّ قوّته وطاقته؛ ليظفر به، لا ليهرب منه، كما يفعل عامة الناس، بعد أن علم غدر كثير من الناس به، ونكوصهم عن بيعته، وسعيهم لقتله بكلّ طريقة؛ لذلك يوظّف القسم بلفظ الجلالة، والنفي ب(لا) النافية، فيقسم بالله تعالى مؤكدا نفيه ورفضه إجابتهم إلى أي شيء مما يريدون، ومما يريدونه منه بيعة يزيد بن معاوية، والرضا بسياسته الظالمة البعيدة أشدّ البعد عن دين جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله، ثم وظّف (حتى) الغائية؛ ليبين غايته التي يريد، وهي لقاء الله والموت شهيدا، وهو مخضّب بدمه، وهنا نرى فلسفة الدم الطافحة من كلماته التي تمظهرت عبر العلامات اللغوية (وأنا مخضّب بدمي)، هذه الغاية الحسينية الفريدة تمثّلت في تخضيب رأسه الشريف، ووجهه، ولحيته بعد أن خُضّب جسمه بدم الشهادة وبلَوْنه الأحمر المؤثّر الذي يقترب من لون الخضاب أي الحنّاء؛ ليحقّق ما أراد، وفعلا...

حقّق عليه السلام ما أراد،

---

(١) مقتل الحسين، ٢٥٠.

ولم يجبهم إلى أي شيء مما أرادوه منه،

ولقى الله تعالى وهو مخضّب بدم الشهادة، فحينما امتلأت يده من دمه يوم عاشوراء رمى به نحو السماء، "ثم وضعها ثانيا، فلما امتلأت لطّخ به رأسه ووجهه ولحيته، وقال:

« **هكذا أكون؛ حتى ألقى الله وجدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا مخضّب بدمي، وأقول: يا جدّي قتلني فلان وفلان** »"[1]، فهو يريد لقاء الله تعالى ولقاء جدّه النبي، وهو مخضّب بدمه؛ ليبيّن مظلوميته والجور الذي وقع عليه، وليشكو لله تعالى، ولجدّه ما فعله به الظالمون من محاصرته، وتعطيشه، وقتل أهل بيته وأصحابه، ثم قتله مخضّبا بدمه من دون أي رحمة أو شفقة، وهو هنا يعطي درسا للأجيال في الثبات على الموقف، وعدم التنازل للأعداء الكافرين الظالمين، وعدم إجابة طلباتهم المتعسّفة الظالمة وغير الشرعية وغير المقبولة، مهما كانت النتائج خطيرة، حتى إن كانت سفك دمه وقتله، فدون الأهداف الكبرى التي أرادها عليه السلام تهون الدماء، وترخص الأرواح.

دماؤنا لدمك الوقاء

حينما حلّ وقت صلاة الظهر يوم عاشوراء، صلّى الحسين عليه السلام مع من بقي معه في أرض المعركة، وبعد أن أتمّ الصلاة قال لأصحابه:

"« **يا كرام هذه الجنة قد فتحت أبوابها، واتصلت أنهارها، وأينعت ثمارها، وهذا رسول الله والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله يتوقّعون قدومكم، ويتباشرون بكم، فحاموا عن دين الله ودين نبيه، وذبّوا عن حرم الرسول** ».

فقالوا: نفوسنا لنفسك الفداء، ودماؤنا لدمك الوقاء، فو الله لا يصل إليك وإلى حرمك

---

(١) مقتل الحسين، ٢٩٢.

سوء وفينا عرق يضرب"[١]. إن الحسين عليه السلام يحفّزهم ويشجّعهم على القتال في سبيل الله، ويفتتح كلامه بالنداء ب (يا) النداء واصفا إياهم بالكرام، ثم يرغّبهم بما أعد الله لهم من نعيم مقيم في الجنان، مؤكدا كلامه ب(قد) التحقيقية بأن الجنة فتحت أبوابها لهم، واتصلت أنهارها، وأينعت ثمارها؛ لأنهم سيستشهدون دفاعا عن دين الله وعن ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، وسيدخلون الجنة من أوسع أبوابها، وسينعمون بأنهارها المتنوعة وثمارها اليانعة، ونعيمها المتجدد، ثم يبيّن لهم أن جدّه النبي صلى الله عليه وآله، والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله يستبشرون بقدومهم إليهم؛ لأنهم سينالون درجة الشهادة مع الإمام الحسين عليه السلام، ثم طلب منهم بوساطة فعلي الأمر (حاموا) و (ذبّوا) أن يحاموا عن دين الله تعالى ودين نبيه محمد صلى الله عليه وآله، ويذبّوا عن حرم رسول الله، ويمنعوا الأعداء من الوصول إليهم والنيل منهم، فما كان من هؤلاء الكرام إلا أن يجيبوه جوابا مفعما بالإخلاص والشجاعة والكرامة، مبيّنين له أن نفوسهم فداء لنفسه، ودماءهم الطاهرة التي ستسيل على أرض الطف وقاء لدمه الطاهر. إن التأمل السيميائي في جملة (ودماؤنا لدمك الوقاء) يظهر لنا أن هؤلاء الأصحاب كانوا على درجة عالية جدا من الحب والإخلاص للحسين عليه السلام، هذا الإخلاص النادر الذي جعلهم يفدونه بأنفسهم وأرواحهم، ويجعلون دماءهم دروعا واقية له وتروسا قويّة تحميه من كيد الأعداء، فقد أرخصوا دماءهم جميعها؛ لأن كلمة (دماؤنا) وردت بصيغة الجمع في النص؛ من أجل الحفاظ على دمه وعلى حياته وحياة أهل بيته، كما قدّموا كلمة (دماؤنا) على كلمة (دمك)؛ لتكون هي المتقدمة في المعركة، كما تتقدم الدرع الواقية على صاحبها؛ لتحميه من الأعداء، ولتكون هي السائلة على أرض كربلاء قبل سيلان

---

(١) مقتل الحسين، ٢٥٧.

دمه، وهم بذلك يشيرون إلى استعدادهم الحقيقي والبطولي للموت دون الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته، ثم يقسمون بلفظ الجلالة مؤكّدين عدم وصول أي سوء إليه وإلى حرمه ما دام عرق الدم ينبض فيهم، وما بقي الدم يجري في عروقهم ويمنحهم الحياة التي سيضحّون بها في سبيل الله، ونصرةً لدينه ولابن نبيّه صلى الله عليه وآله.

الدم الأسود!

في أرض المعركة وقف جون مولى أبي ذر الغفاري "أمام الحسين عليه السلام يستأذنه، فقال عليه السلام:

« **يا جون إنما تبعتنا طلبا للعافية، فأنت في إذن مني** ».

فوقع على قدميه يقبّلهما ويقول: أنا في الرخاء ألحس قصاعكم، وفي الشدّة أخذلكم. إنّ ريحي لنتن، وحسبي للئيم، ولوني لأسود، فتنفّس علي بالجنة؛ ليطيب ريحي، ويشرف حسبي، ويبيضّ لوني، لا والله لا أفارقكم؛ حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم"[(١)].

إن هذا الموقف وهذا الحوار يحكي نبل الإمام الحسين عليه السلام ونبل جون، فبعد أن شاهد جون ما حصل في أرض المعركة لم يستطع الصبر على ما يشاهده من جرائم فظيعة ترتكب بحقّ أهل البيت عليهم السلام؛ لذلك تقدم طالبا الإذن من الحسين عليه السلام؛ للقتال بين يديه، فأجابه الإمام على طلبه قائلا: (« **يا جون إنما تبعتنا طلبا للعافية، فأنت في إذن مني** »)، وموظفا أداة القصر (إنما)؛ ليبين لجون أنه تبعهم وجاء معهم إلى هذا المكان طلبا للعافية وليس طلبا للموت أو أي ضرر قد يصيبه، ثم أذن له بالانصراف وعدم القتال، ولو انصرف ولم يقاتل لما أَثِمَ أو عِيبَ عليه؛ لأن الإمام قد

(١) مقتل الحسين، ٢٦٣.

أذن له، إلا أنه قابل موقف الحسين عليه السلام النبيل بموقف نبيل، وثبت وبيّن حبّه للحسين وأهل البيت عليهم السلام في كلامه الذي ختمه بقوله: (لا والله لا أفارقكم؛ حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم)، فهو يقسم وينفي مفارقة الحسين عليه السلام وأهل بيته؛ حتى تتحقق غايته التي يسعى إلى تحقيقها، والتي بيّنتها (حتى) الغائية، وهي اختلاط دمه الأسود على حدّ تعبيره بدم الحسين وأهل البيت عليهم السلام، وثمّة سؤال يفرض نفسه في هذا المقام هو:

لماذا وصف جون دمه باللون الأسود، مع أن لون الدم أحمر؟

ويمكن أن نجيب بالآتي:

١. إن جون أراد أن يشير إلى أصله وانتمائه، فهو عبد أسود، ولعله أراد من وصف دمه باللون الأسود الإشارة إلى عبوديته وانتمائه وسواد بشرته.

٢. أراد جون أن يظهر الفرق بين تواضع حسبه ونسبه، وبين رفعة الإمام الحسين عليه السلام ونسبه الرفيع وشرفه السامق، فهو يقول للحسين: (إن ريحي لنتن، وحسبي للئيم، ولوني لأسود، فتنفّس علي بالجنة؛ ليطيب ريحي، ويشرف حسبي، ويبيضّ لوني)، مؤكدا تواضعه وتواضع نسبه، إذا قيس بنسب الإمام، مستهلا قوله ب(إنّ) الحرف المشبه بالفعل الذي يفيد التوكيد، واللام المزحلقة التي تكررت ثلاث مرات، ثم طلب منه بوساطة فعل الأمر (تنفّس) الذي ورد بمعنى الالتماس أن يدعو له بالجنة؛ ليطيب ريحه، ويشرف حسبه، ويبيضّ لونه، فما كان من الإمام إلا أن دعا له بما طلب، بعد شهادته قائلا:

"« **اللهم بيّض وجهه، وطيّب ريحه، واحشره مع محمد صلى الله عليه وآله، وعرّف**

بينه وبين آل محمد »"[١]، فقابل تضحيته وتواضعه بأن دعا له ببياض وجهه، وطيب ريحه، وبالحشر مع النبي محمد صلى الله عليه وآله، والتعريف بينه وبين آل محمد عليهم السلام، وهذا شرف كبير جدا منحه إياه الحسين عليه السلام في قبال تواضعه وبساطته وشهادته في سبيل الله.

رميُ الدم نحو السماء

تواجهنا في واقعة الطف مشاهد فريدة في تاريخ الإنسانية الطويل والحافل بسفك الدماء، ومن المشاهد

المـــــؤثـّـــــــرة

والمـــــؤلمـــــــــة

والمـــــهمـّـــــــة

والمفعمة بالدمـــاء

التي تحمل رمزيّة عالية، مشهد رمي الدم نحو السماء من لدن الإمام الحسين عليه السلام، فقد تكرر هذا العمل في أكثر من مشهد من مشاهد واقعة الطف. إن تكرار هذا العمل مع دم علي الأكبر، ودم عبد الله الرضيع، ودم الحسين عليه السلام لا يمكن أن يكون اعتباطيا أو بالصدفة، ولاسيما أن من يقوم برمي الدماء إلى السماء هو الإمام المعصوم سبط من لا ينطق عن الهوى، ومن ثم نحن مدعوون إلى قراءة هذه العلامة السيميائية الحركية والصورية واللونية المهمّة والمؤثّرة والمتكرّرة في آن؛ لنحاول استكناه رمزيّتها، ودلالاتها المشحونة بالألم، والحزن، والقداسة، والعشق الإلهي، والأخذ بالثأر،

(١) مقتل الحسين، ٢٦٣.

والتأثير في المتلقي، وسنورد هذه المشاهد معا، ثم نقرؤها قراءة سيميائية.

المشهد الأول

بعد حادث استشهاد علي الأكبر المروّع نجد الحسين عليه السلام "انكبّ عليه واضعا خده على خده، وهو يقول:

« **على الدنيا بعدك العفا. ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة الرسول. يعزّ على جدّك وأبيك أن تدعوهم فلا يجيبونك، وتستغيث بهم فلا يغيثونك** ». ثم أخذ بكفه من دمه الطاهر ورمى به نحو السماء فلم تسقط منه قطرة"[(١)].

المشهد الثاني

أخرج الحسين عليه السلام طفله الرضيع، "ثم أتى به نحو القوم يطلب له الماء، فرماه حرملة بن كاهل الأسدي بسهم فذبحه، فتلقى الحسين عليه السلام الدم بكفه ورمى به نحو السماء. قال أبو جعفر الباقر عليه السلام:

« **فلم تسقط منه قطرة** »"[(٢)].

المشهد الثالث

بعد قتال شديد بين الإمام الحسين عليه السلام وحيدا وأعدائه الكثيرين، وقف ليستريح، فرُمي بسهم له ثلاث شعب في قلبه "ثم أخرج السهم من قفاه، وانبعث الدم

---

(١) مقتل الحسين، ٢٧٢.

(٢) مقتل الحسين، ٢٨٥.

كالميزاب، فوضع يده تحت الجرح، فلما امتلأت رمى به نحو السماء، وقال:

« **هوّن عليّ ما نزل بي أنه بعين الله** »، فلم يسقط من ذلك الدم قطرة إلى الأرض"[(١)].

إن قراءة هذه العلامة الصورية واللونية التي تكررت ثلاث مرات في وقت قصير من المعركة ترمز إلى أكثر من معنى، وتشير إلى أكثر من دلالة، وهي كما يأتي:

١. إن رمي الدم إلى السماء فيه دلالة على أنه دم مقدّس وطاهر سُفك في سبيل الله لشخصيات تمثل القداسة والطهارة بأجلى صورها.

٢. سعى الحسين عليه السلام عن طريق هذا العمل إلى تقديم دمه الطاهر ودم ولديه قربانا إلى ساحة القدس الإلهي، وأي قربان يُتَقرّبُ به إلى الله أفضل من هذا القربان، فضلا عن أن أخته زينب عليها السلام قامت بعمل مقارب بعد الواقعة حينما وضعت يديها تحت بدنه المخضّب بالدماء "ورفعته نحو السماء وقالت: « **إلهي تقبّل منّا هذا القربان** »"[(٢)].

٣. إن عدم سقوط قطرة من الدماء الثلاثة إلى الأرض بحسب الروايات يؤشر إشارة سيميائية واضحة إلى تقبّل هذه القرابين المقدّسة المتمثّلة بهذه الدماء الطاهرة من لدن الله تعالى، فضلا عن تقبّله للدماء الأخرى التي سالت مع دم الحسين عليه السلام.

٤. تمثل مشاهد رمي الدماء إلى السماء وارتفاعها إلى الأعلى علامة صورية مهمة ومؤثرة ومُشاهدة من الجميع في أرض المعركة، أراد بوساطتها الحسين عليه السلام فيما يبدو التأثير في معسكر الأعداء علّهم يرتدعون عن عملهم المشين، كما أراد عليه

---

(١) مقتل الحسين، ٢٩٢.

(٢) مقتل الحسين، ٣٢٢.

السلام التأثير في المتلقين الذين سيطلعون على هذه الواقعة التاريخية؛ ليحاولوا استكناه الدلالات والإشارات التي يبعثها فعل رمي الدماء إلى السماء.

٥. من دلالات الدم ولونه الأحمر ذي الموجة الطويلة أنه يدلّ على عشق العاشق لمعشوقه، ولعلّ الحسين عليه السلام أراد أن يبيّن عشقه الكبير لمعشوقه (الله جل شأنه) بوساطة رمي دمه ودم ابنيه إلى السماء؛ ليعبّر عن العشق الإلهي الكبير الذي ملأ قلبه وعقله وكيانه كلّه، فهم لم يكتفِ بأن قدّم دمه الطاهر إلى معشوقه، بل شفعه بدم فلذتي كبده علي الأكبر، وعبد الله الرضيع، وأيّ علامة تدلّ على هذا العشق الكبير أكثر من هذه العلامات المتكررة؟.

٦. هناك دلالة أخرى يشير إليها اللون الأحمر للدم، هي الثأر للحسين المقتول المظلوم من قاتليه وسافكي دمه الشريف ودماء أبنائه ومن استشهد معه، كيف لا وهو ثأر الله وابن ثأره بحسب ما ورد في زيارته:

"« **السلام عليك يا ثأر الله وابن ثأره** »"[(١)]. إن هذا العمل المتمثّل برمي الحسين عليه السلام الدمَ إلى السماء يشكّل - فيما يبدو - دعوة صريحة، وإشارة واضحة من الإمام للأخذ بثأره وثأر من استشهد معه من ظالميه وقاتليه.

٧. إن تكرار هذا العمل ثلاث مرات يوحي ويؤشّر إلى أهميّته الكبيرة، فتكرار عمل معيّن يشير إلى أهميّته والسعي إلى تقريره في ذهن المتلقي؛ ليؤثّر فيه التأثير المطلوب، إذ ورد عن العرب أن التكرير يفيد التقرير، فضلا عن أن هذا الفعل من لدن الإمام عليه السلام يبثّ أكثر من أمر في النفوس، منها:

---

(١) مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، تعريب السيد محمد رضا النوري النجفي، دار المرتضى، بيروت ط ١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، ٤٩٨.

أ- الشجاعة في القتال والذود عن الحق بأغلى ما يملك الإنسان، وهو الدم.

ب- التحفيز والتشجيع على قتال الأعداء وحماية الدين والعقيدة.

ج- التأكيد على مسألة القربان التي سبق ذكرها في النقطة الثانية، وأن إحياء الدين وإقامة الحقّ ومحاربة الباطل تحتاج قربانا يُتَقَرّبُ به إلى الله تعالى، وهل ثمّة قربان أغلى وأفضل من دم الحسين عليه السلام وولديه زمانئذٍ ليُتَقَرّبُ به إلى الله، ولعل ثمة دلالات وإشارات أخرى أرادها الحسين عليه السلام من رمي الدماء إلى السماء، نعجز عن بيان كنهها، والله أعلم.

هكذا أكون حتى ألقى اللّه وجدّي رسول اللّه وأنا مخضّب بدمي

بعدما رمى الحسين عليه السلام دمه إلى السماء، ولم تسقط منه قطرة، وضع يده مرة ثانية تحت الجرح "فلما امتلأت لطّخ به رأسه، ووجهه، ولحيته، وقال:

« **هكذا أكون؛ حتى ألقى الله وجدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا مخضّب بدمي، وأقول:**

يا جدّي قتلني فلان وفلان »"[(١)]. إن هذه العلامة الصورية المهمة التي يبعثها الحسين عليه السلام عبر أثير الزمن إلى كل من يطّلع عليها، والمتمثّلة بتلطيخ رأسه ووجهه ولحيته بدمه الشريف، مع أن جسمه ملطخ بالدم من رأس إلى قدم؛ بسبب الجراحات الكثيرة إثر مئات الطعنات بالسيوف والنبال والرماح، فضلا عن رميه بالحجارة. أقول: إن هذه العلامة، والسياق الذي وردت فيه، تبيّن بشكل لا مراء فيه فلسفة الدم عند الإمام الحسين عليه السلام، وتعطي أكثر من إشارة، وترمز إلى أكثر من معنى، وهي:

(١) مقتل الحسين، ٢٩٢.

١. إن الحسين عليه السلام أراد أن يلطّخ ويصبغ أجزاء جسده الطاهر بأجمعها بدم الشهادة، وهو أحب دم إلى الله، لأطهر وأشرف إنسان في تلك الحقبة من الزمن، هو سبط النبي، وسيّد شباب أهل الجنة.

٢. وبناء على النقطة الأولى فإنه عليه السلام أراد بهذا العمل أن يحقّق غاية من غاياته التي يبتغيها، وهي أن يلقى الله تعالى، وجدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو مخضّب بدم الشهادة، وهذا المعنى الدقيق عبّرت عنه (حتى) الغائية في قوله: («**هكذا أكون حتى ألقى الله وجدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا مخضّب بدمي**»)، وعبّرت عنه الواو الحالية في قوله: (وأنا) التي تبين حالة تخضيبه بالدم، ومن ثم شهادته في سبيل الله، ونصرةً لدين جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله.

٣. إن صورة تلطيخ جسده الشريف بالدم تحمل إشارة واضحة إلى أنه يريد لقاء معشوقه (الله عز وجل)، وجسمه مليء بلون المحبة والعشق لمحبوبه، وبذلك يعبّر بعمله هذا عن الدرجة العليا من الهيام والعشق الإلهي، فقد ذاب في حب الله تعالى، وأراد أن يعبّر عن هذا الذوبان والعشق باللون الأحمر الذي يرمز إلى هذه المعاني.

٤. وتحمل هذه الصورة المفعمة بلون الدم الأحمر دلالة أخرى هي دلالة الثأر لدمه المهراق على أرض كربلاء. الثأر من لدن الله أولا، ومن لدن جدّه صلى الله عليه وآله ثانيا؛ لذلك يقول: («**حتى ألقى الله، وجدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا مخضّب بدمي وأقول: يا جدّي قتلني فلان وفلان**»)، وهي دعوة وندبة ونداء، تمظهر عبر (يا) النداء، لجدّه أن يأخذ بثأره من ظالميه وقاتليه.

٥. إن الحسين عليه السلام سبق أن تكلّم بكلام مقارب لهذا الكلام، مررنا عليه

في فقرة سابقة، حينما قال في وسط أحداث المعركة: "« **أما والله لا أجيبهم إلى شيء مما يريدون حتى ألقى الله وأنا مخضّب بدمي** »"، وفي هذا التكرار دلالة واضحة على إصرار الحسين عليه السلام وتأكيد سعيه الصادق إلى لقاء الله تعالى وهو مخضّب بدم الشهادة.

تلطيخ فرس الحسين بدم الحسين عليه السلام

بعد أن لطّخ الحسين عليه السلام رأسه، ووجهه، ولحيته بالدم، فإن فرسه لطّخ ناصيته بدم فارسه، إذ "أقبل الفرس يدور حوله ويلطّخ ناصيته بدمه، فصاح ابن سعد:

دونكم الفرس فإنه من جياد خيل رسول الله، فأحاطت به الخيل، فجعل يرمح برجله (...)، فقال ابن سعد: دعوه لننظر ما يصنع، فلما أمن الطلب أقبل نحو الحسين عليه السلام يمرّغ ناصيته بدمه، ويشمّه، ويصهل صهيلا عاليا"[١]، ويروى "في أمالي الصدوق وروضة الواعظين: أنه أقبل فرس الحسين عليه السلام حتى لطّخ عرفه وناصيته بدم الحسين عليه السلام، وجعل يركض، ويصهل، فسمعت بنات النبي صهيله، فخرجن فإذا الفرس بلا راكب، فعرفن أن حسينا قد قتل"[٢]. إن التأمل السيميائي في هذا الحدث يبيّن وفاء هذا الفرس لفارسه وحبّه له، وحزنه على مقتله؛ لأن الفرس من أنبل الحيوانات وأوفاها للإنسان، فهو "يفهم الإشارات الصادرة من فارسه، ويعرفها، ويتجاوب معها. يقول براون: (يعدّ الجواد العربي من أذكى الخيول على الإطلاق، وإن صفاته الرائعة مثل الذاكرة، وسعة الصدر، والوداعة تجعله أجدر المخلوقات وأنسبها لخدمة الإنسان، كما ترفعه قدرته على القيام بوظائف ذهنية أخرى إلى مرتبة الصديق) (...) والخيول العربية

(١) مقتل الحسين، ٢٩٧.

(٢) نفس المهموم في مصيبة سيدنا الحسين المظلوم،الشيخ عباس القمّي، تحقيق الشيخ رضا أستادي، منشورات مكتبة بصيرتي، قم، د. ط، ١٤٠٥هـ، ٣٧٤.

الأصيلة وفية لأصحابها (...)، والجواد العربي يقوم بدور الحارس الأمين لفارسه"(١)، وفعلا كان فرس الحسين عليه السلام حارسا أمينا لفارسه؛ لأنه فهم إشارات الدم الصادرة عن الإمام الحسين عليه السلام، لذلك حاول إبعاد أعدائه عنه، ثم لطخ عرفه وناصيته بدمه؛ وفاءً لفارسه وحبا له، وقد شكّل تلطيخ ناصيته بدم الحسين عليه السلام علامة سيميائية مرئيّة أخبر بوساطتها من بقي في معسكر الإمام، وبنات النبي باستشهاده في أرض المعركة.

تفاعل الكون مع دم الإمام الحسين عليه السلام

لقد تفاعل الكون مع دم الحسين عليه السلام الذي رماه إلى السماء تارة، ولطّخ به جسده الشريف تارة ثانية، وسقط على أرض كربلاء ثالثة، ولطّخ الفرس ناصيته به تارة رابعة، وقد تمظهر هذا التفاعل بحسب كتب التاريخ المعتبرة بأن "مطرت السماء دما، فأصبحت الحباب والجرار وكل شيء ملآن دما، وحتى بقي أثره على البيوت والجدران مدّة، ولم يرفع حجر إلا وجد تحته دم عبيط، حتى في بيت المقدس"(٢). إن هذا التفاعل الكوني مع دم الحسين عليه السلام، وهذه العلامات الصورية واللونية المضمّخة بدم الشهادة الحسيني تؤشر الكثير من المعاني، ومنها:

١. دم الإمام الحسين عليه السلام علّم البشرية من العام الحادي والستين للهجرة

---

(١) مقال: قصص عن وفاء الخيل العربية الأصيلة، سعود العنزي، على الرابط الآتي: al-bedowr.yoo.com، بتاريخ ١٥/ ١/ ٢٠١٨.

(٢) مقتل الحسين، ٣٠٧. يستند السيد المقرّم إلى عدد من الكتب المعتبرة في إيراد هذه الحوادث منها مقتل الحسين للخوارزمي، وتاريخ ابن عساكر، والكامل لابن الأثير، والصواعق المحرقة، ومجمع الزوائد، والخصائص الكبرى، والعقد الفريد، وتاريخ الخلفاء للسيوطي، وتذكرة الخواص، وكامل الزيارات، والخطط المقريزية، والمناقب لابن شهر آشوب، وكنز العمال وغيرها.

إلى يوم الناس هذا مبادئ التضحية والفداء، وبذل الدم، والشهادة؛ من أجل الإصلاح المطلق على مختلف الميادين؛ لذلك لم يحدد عليه السلام نوع الإصلاح الذي أراده في وصيته إذ قال: "« **وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدي** »"[١].

٢. أسهم هذا الدم الطاهر في تعليم الناس سبل إحقاق الحق وردّ الباطل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا ما ورد في وصيته عليه السلام: "« **أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر** »"[٢].

٣. غضب الكون وحزنه على مقتل سيّد الشهداء تجسّد على شكل نزيف من الدم نزفته السماء والأرض والحجر والمدر، وهي علامات سيميائية صورية ولونية تنبئ عن هذا الغضب والحزن والتفجّع الكوني.

٤. القسوة المفرطة، والتنكيل الكبير الذي تعرّض له الإمام الحسين عليه السلام ومن استشهد معه، والذي تمظهر بالحصار، وقطع الماء، والتعطيش، وقتل الأطفال، وتقطيع الأوصال، وحزّ الرؤوس، والتمثيل بالأجساد، وطحن جسد الحسين عليه السلام تحت سنابك الخيل، والقسوة المفرطة مع الأسرى رجالا ونساء وأطفالا، كل ذلك وغيره يشير إلى فداحة الجريمة والقسوة الكبيرة التي مورست مع الحسين عليه السلام وأتباعه، فلا عجب أن ينزف الكون دما؛ فَضْحًا وتنكيلا بالمجرمين الذين اقترفوا هذه الجريمة الأفظع والأقسى والأفجع في تاريخ الإنسانية، وتشير السيدة زينب عليها السلام إلى هذه المعاني في خطبتها في الكوفة إذ تقول:

"« **أتدرون أيّ كبد لرسول الله فريتم؟ وأي كريمة له أبرزتم؟ وأي دم له**

---

(١) مقتل الحسين، ١٣٩.

(٢) مقتل الحسين، ١٣٩.

سفكتم؟ وأي حرمة له انتهكتم؟ لقد جئتم شيئا إدًّا (...) أفعجبتم أن مطرت السماء دما »"[١]، فهي تذكر حادثة مطر السماء دما بعد استشهاد أخيها، وتبيّن أن لا عجب من هذا الحدث الكوني الفريد؛ بسبب قسوة الجريمة النكراء التي فعلوها؛ لذلك نراها توظّف الاستفهام في أكثر من جملة، وقد خرج إلى معاني التوبيخ والإنكار والتعجّب من فداحة هذه الجريمة المأساوية.

أنا ابن المرمّل بالدماء

خطب الإمام علي بن الحسين السجّاد عليه السلام في مجلس يزيد بن معاوية، وعرّف بنفسه للحاضرين، ومما قال في تعريف نفسه: "« **أنا ابن المُرَمّل بالدماء، أنا ابن ذبيح كربلاء** »"[٢]، فهو ينسب نفسه في هذا الجزء من الخطبة إلى أبيه الحسين عليه السلام الشهيد، لكنّه لم يقل: أنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، كما قال ذلك في خطبته في الكوفة، بل وظّف هذا التعبير في خطبة الشام؛ لكي يجذب انتباه الحاضرين في مجلس يزيد وأسماعهم، وليبيّن مظلومية أبيه الحسين عليه السلام، وما أجرمه بحقه جلاوزة يزيد بن معاوية، فقال: (« **أنا ابن المُرَمّل بالدماء** »)، ومعنى المُرَمّل بالدماء هو الملطّخ بالدماء، إذ يخبر بهذه الجملة الخبرية أنه ابن الرجل الذي قُتل ملطّخا بدمه من قمّة رأسه إلى قدمه، فاضِحًا جريمة يزيد وأعوانه بحقّ الحسين عليه السلام أمام الناس الحاضرين في المجلس. إن التأمل السيميائي في هذه الجملة يحيل إلى سؤال مفاده: لماذا قال الإمام السجاد: أنا ابن المُرَمّل بالدماء، ولم يقل مثلا: أنا ابن المضرّج بالدماء أو: المخضّب بالدماء أو غير ذلك؟ إن كلمة مُرَمّل تحيل إلى الرمل، وكأنّ الإمام السجاد عليه السلام

---

(١) مقتل الحسين، ٣٢٨.

(٢) مقتل الحسين، ٣٧٢.

يريد الإشارة بهذا التعبير إلى حدث سقوط أبيه الحسين عليه السلام على الأرض، وهو مخضّب بدمه، ونتيجة للدماء الكثيرة التي نزفت من جروحه التي ملأت جسده الشريف فإن هذه الدماء اختلطت برمال أرض كربلاء، فأصبح جسمه مغطى بالدماء الممزوجة بالرمال، وهذا معنى مؤثر جدا صوّره الإمام السجاد بطريقة مؤثرة في السامعين، ناقلا لهم معاناة أبيه الحسين عليه السلام، ومصوّرا لهم وضع أبيه في أثناء سقوطه عن فرسه وجسمه الملطّخ بالدماء ورمال أرض كربلاء، وفاضِحًا طريقة أعدائه البشعة في قتله، شافعا قوله هذا بقوله: (« **أنا ابن ذبيح كربلاء** »)، مبيّنا جريمتهم النكراء في قطع رأس أبيه وذبحه من الوريد إلى الوريد، وهو عطشان لم يسقوه قطرة ماء قبل ذبحه، ونتيجة لهذا الوصف المؤثر، ولانكشاف الحقيقة "ضجّ الناس بالبكاء، وخشي يزيد من الفتنة، فأمر المؤذن أن يؤذن للصلاة"[1]؛ لكي يحمي نفسه من الإحراج، ويمنع وقوع الفتنة؛ نتيجة سماع الناس لحقيقة فعله المشين بحقّ الحسين وأهل البيت عليهم السلام، وتأثّرهم بما سمعوا من علي بن الحسين عليه السلام.

فهذه الأيدي تنطف من دمائنا

بعد أن خطب الإمام السجاد عليه السلام في مجلس يزيد، خطبت السيدة زينب عليها السلام، ومما قالت في خطبتها:

"« **اللهم خذ لنا بحقّنا، وانتقم ممّن ظلمنا، واحلل غضبك بمن سفك دماءنا، وقتل حماتنا، فو الله ما فريت إلا جلدك، ولا حززت إلا لحمك، ولتردنّ على رسول الله صلى الله عليه وآله بما تحمّلت من سفك دماء ذريّته،**

---

(١) مقتل الحسين، ٣٧٢.

وانتهكـت مـن حرمتـه في عترتـه ولحمتـه (...) ألا فالعجـب كل العجـب لقتـل حـزب الله النجبـاء بحـزب الشـيطان الطلقـاء، فهـذه الأيـدي تنطـف مـن دمائنـا، والأفـواه تتحلّـب مـن لحومنـا »"[1]. إنهـا تتوجّـه بالدعـاء إلى الله عـزّ ذكـره أن يأخـذ لهـم بحقّهـم، وينتقـم ممّـن ظلمهـم، وأن يحلـل غضبـه عـلى مـن سـفك دماءهـم، وقتـل رجالهـم وحماتهـم، ثـم تخاطـب يزيـد قائلـة: (« **ولـتردنّ عـلى رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه بـما تحمّلـت مـن سـفك دمـاء ذريّتـه، وانتهكـت مـن حرمتـه في عترتـه ولحمتـه** »)، مؤكـدة كلامهـا بمؤكديـن همـا الـلام الواقعـة في جـواب القسـم، ونـون التوكيـد الثقيلـة؛ لتؤكـد ورود يزيـد عـلى النبـي الأكـرم صـلى الله عليـه وآلـه؛ بسـبب جريمتـه الكبـيرة التـي اقترفهـا وتحمّلهـا، وهـي سـفك دمـاء ذريّتـه وأهـل بيتـه، وانتهاكـه حرمتـه في عترتـه وذريّتـه، ثـم تتّعجـب العجـب كلّـه عـلى مفارقـة الزمـان وغـدره، إذ قتـل حـزبُ الشـيطان الطلقـاء حـزبَ الله النجبـاء، ثـم تقـول: (« **فهـذه الأيـدي تنطـف مـن دمائنـا، والأفـواه تتحلّـب مـن لحومنـا** »)، مصـورة بشـكل دقيـق بشـاعة يزيـد وأعوانـه وإجرامهـم بحـقّ أهـل البيـت عليهـم السـلام، فأيديهـم تقطـر مـن دمـاء أهـل البيـت، بـل يسـيل دمهـم منهـا سـيلانا، وهـي بذلـك تشـير، وعـن طريـق توظيـف الفعـل المضـارع (تنطـف) الـذي يشـير إلى استمرارهم في جرائمهـم بحقّهـم، إلى أيديهـم التـي امتـلأت مـن دمـاء أهـل البيـت، وإلى جرائمهـم الكثـيرة والمروّعـة بحقّهـم، كـما أن أفواههـم تسـيل مـن كثـرة أكلهـم للحومهـم، وهـذه صـورة بشـعة تصـوّر إجـرام يزيـد وأتباعـه، فهـم مثـل الوحـوش الـكاسرة التـي تـأكل لحـوم طرائدهـا مـن غـير رحمـة أو رأفـة.

---

(١) مقتل الحسين، ٣٧٨.

الموت

الموت، تلك الحقيقة الواقعة والنهاية التي لا بدّ منها لحياة الإنسان مهما طالت وامتدّت، وهو يشّكل هاجسا مستمرا للإنسان منذ أن يعلم أنه سيموت لا محالة حتى آخر يوم في حياته الدنيوية، ويسعى الكثير من البشر إلى الهرب منه بكل وسيلة متاحة، لكن لا مناص من هذا الهرب والفرار ولا فائدة مرجوّة، وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الفرار حينما ذكر فرار اليهود من الموت، وعدم تمنّيهم له؛ بسبب ما قدّموا من أعمال تبعدهم عن الله جل شأنه. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]. إن هذا الأمر لا ينطبق على اليهود فقط، بل ينطبق على الكثير من الناس الذين يشكّل الموت علامة مخيفة ومرعبة لهم تؤرّق مضاجعهم، وتستفزّهم وتنغّص عيشهم.

إن النصّ القرآني يصوّر بشكل دقيق ومعبّر عملية فرار الإنسان المستمرّة من الموت، وهذا ما عبّر عنه الفعل المضارع (تفرّون)، فالفرار من لدن الإنسان مستمر، لكنّه لا فائدة مرجوّة منه؛ لأن الموت لابد أن يلاقي الإنسان الفارّ في طريق فراره، ويؤكّد التعبير القرآني على هذا اللقاء الذي لا بدّ من حصوله عاجلا أو آجلا بوساطة الحرف المشبه بالفعل الذي

---

(١) الجمعة: آيات ٦ – ٨.

يفيد التوكيد (إنّ)، والذي تكرر مرتين في قوله: (قل إنّ) وفي قوله: (فإنّه ملاقيكم). إن التأمّل السيميائي في هذه الصورة القرآنية يبيّن أنها صورة دقيقة وموحية يصوّر فيها القرآن الكريم، بوساطة الاستعارة، لقاء الموت بالإنسان مهما استمرّ وبالغ في فراره منه، فقد شبّه الموت بالإنسان وأبقى لازمة من لوازمه، وهي اللقاء بالإنسان، وهذه صورة مؤثّرة وجاذبة للمتلقي؛ لينعم النظر فيها ويتأمّلها؛ لكي يعلم علما يقينيّا أن موته لا مفرَّ منه مهما حاول إلى ذلك سبيلا، ومهما بذل من جهده وطاقته للفرار منه. ومما يلفت النظر أن الآية الكريمة بدأت بفعل الأمر (قل)، موجِهة الأمر الإلهي للنبي الأعظم صلى الله عليه وآله أن يخبر اليهود، وعن طريقهم الناس، بهذا الأمر المهم وهو أنكم "وإن فررتم من الموت أو القتل بتقوية المزاج وأكل الأغذية الجيّدة والمشروبات المقوية، والتداوي بالأدوية والترياقات؛ لدفع السموم والآفات، وتحصيل الوقايات من الأسلحة الدافعة والدروع الواقية، واتخاذ الأبنية والحصون الرفيعة والقلاع العالية الحصينة والبروج المشيّدة الحارسة عن العدو، إلى غير ذلك من التدابير البشرية والحيل الآدمية لمدافعة الموت، فإنه لا ينفعكم عند حلول الأجل المعلوم عند الله، ولا بدّ أن ينزل بكم الموت ويلاقيكم ويدرككم، ولا ينفعكم الهرب منه (...) بل ربما كان نفس الفرار من أسباب الموت، كما يشاهد في بعض مواضع الاحترازات والاستعلاجات الطبية والنجومية، حيث يصير بعينه سببا من أسباب الوقوع فيما وقع الفرار منه"(١)، ومن ثمّ فإن على الإنسان ألا يهرب من الموت، بل عليه الاستعداد له، والعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا، والعمل لآخرته كأنه يموت غدا، وقد جاء في خطبة الاستعداد للموت للإمام علي عليه السلام:

"« **فاتّقوا الله عبادَ الله، وبادروا آجالكم بأعمالكم (...) واستعدّوا للموت فقد أظلّكم،**

(١) تفسير القرآن الكريم، صدر الدين الشيرازي المعروف ب (ملا صدرا)، تحقيق: الشيخ محمد هادي معرفة والدكتور سيد صدر الدين طاهري، دار بنياد حكمت إسلامي صدرا، طهران، ط ١، د.ت، ٨ / ٣٢٥ـ٣٢٦.

وكونوا قوما صِيحَ بهم فانتبهوا، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدَلوا»"[١].

لقد أشار القرآن الكريم في أكثر من مورد إلى أن الموت يشمل البشر بأجمعهم، ومع هذه الإشارات الكثيرة والواضحة إلى وقوع الموت وشموليّته للجميع دون استثناء، نجد بعضا من البشر يتهرّب من هذه الحقيقة بكل وسيلة متاحة، ويسعى جاهدا لإبعاد شبح الموت عنه، بل نجد بعضهم يخاف حتى من ذكر كلمة الموت ومشتقّاتها ومرادفاتها، في حين نجد القرآن يكرّر ثلاث مرّات قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[٢]. إن هذا التكرار التركيبي يفيد توكيد المعنى وتقريره في ذهن المتلقي؛ لكي لا يشكّك فيه أو ينكره، فضلا عن إشارته إلى أهمية هذا المعنى، إذ من فوائد التكرار الإشارة إلى أهمية المكرّر، كما أن تحليل هذه الجملة الخبرية المكوّنة من المبتدأ (كل) والمضاف إليه (نفس) والخبر (ذائقة) والمضاف إليه (الموت)، يبيّن شمول كل نفس بالموت، وقد عبّر قوله: (كل نفس) عن هذا الشمول، وعبّر الخبر (ذائقة) عن معنى التذوق، "والتعبير بالتذوق إشارة إلى الإحساس الكامل؛ لأن المرء قد يرى الطعام بعينيه، أو يلمسه بيده، ولكن كل هذا لا يكون، والأحرى لا يحقّق الإحساس الكامل بالشيء، نعم إلا أن يتذوق الطعام بحاسّة الذوق، فحينئذ يتحقّق الإحساس الكامل، وكأنّ الموت في نظام الخلقة نوع من الغذاء للإنسان"[٣] لا بدّ أن يتذوّقه في يوم من الأيام، ويحسّ بطعمه إحساسا واقعا لا محالة.

إن الحديث عن فلسفة الموت وحكمته، وعن نفور الناس وهربهم منه حديث مهم

---

(١) نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب (ع)، شرح الشيخ محمد عبده، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ٢، ١٤٣٢ هـ، ٢٠١١ م، ١/ ١٣٤.

(٢) آل عمران: آية ١٨٥، الأنبياء: آية ٣٥، العنكبوت: آية ٥٧.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، د، ت، ٣/ ٢٣.

وطويل، وفي ذلك يقول ملا صدرا: "اعلم أنه قد تقرّر في العلوم الكليّة بيان حكمة الموت، وحكمة نفرة النفوس عنه، أما حكمة الموت؛ فلأن كون النفس في هذه الدنيا حال نقص دون التمام، وكونها في الآخرة حال تمام. فالبقاء على حال التمام أفضل وأكمل وألذّ وأشرف. كما أن حال الأبدان في الأرحام حال نقص عن التمام والكمال، وحالها بعد الولادة حال تمام وكمال، كما لا يخفى على أحد. ولا يجوز في العناية الربّانية إهمال شيء من الكمالات والخيرات وعدم الإجادة به على مستحقه، فيجب بمقتضى جوده ورحمته إكمال كلّ ناقص بكماله اللائق بحاله"[١]. إن محاولة تفسير هذا الكلام المكثّف يفضي إلى معان وفوائد جدّ مهمة للموت، منها أنه يشكّل كمالا للإنسان في الآخرة بعد أن كان يعيش نقصا محضا في الدنيا، ومن الطبيعي أن يكون الكمال الأخروي أفضل من النقص الدنيوي للإنسان؛ لأنه لا يجوز على وفق الرحمة والعناية الإلهية بالإنسان ترك شيء وإهماله من هذه الكمالات من دون أن يفيض ويجود بها على عباده المستحقّين لها، وهذا ما يليق بكماله وكرمه سبحانه، فهو الجواد الحنان المنان على عباده، ومن تمظهرات جوده ومنّه أنه يكمّل عباده من النقص الذي يصيبهم في مسيرتهم الدنيوية؛ ليصلوا إلى الآخرة وقد حصلوا على الكمالات والخيرات التي جاد بها سبحانه عليهم.

ثم يضيف ملا صدرا، متحدّثا عن كراهة الموت والنفور منه: "وأما حكمة كراهة الموت للأرواح: فإن الله جلّ ثناؤه جعل بواجب حكمته في طبع النفوس محبّة الوجود والبقاء أبدا سرمدا، وجعل في جبلّتها كراهة الفناء والعدم؛ لأن الوجود خير محض مؤثّر عند الكل، فيحبّه كل أحد ويبغض زواله، والموت يزيل هذا الوجود الدنيوي فيكون مكروها. هذا هو السبب الفاعلي، وأما السبب الغائي وحكمته فلحرص النفوس

(١) تفسير القرآن الكريم، ٨/ ٢٩١.

بطباعها وغرائزها على حفظ البقاء، وتهرب عن الأضداد والمفسدات قبل بلوغها إلى درجة الكمال"[١]، ومن أسباب هذه الكراهية "أن أكثر النفوس لا تدري بأن لها وجودا خلوا من الأجسام فيُتَوَهم أن الموت فناء الذات الكليّة. فإن قيل: لِمَ لا يلهم الله النفوس بأن لها وجودا مستقلا لا حاجة فيه إلى هذا البدن؟، قلنا: لأنه لا يصلح لها العلم بهذه المعاني، إذ لو علمت لفارقت أجسادها قبل أن يتمّ ويكمل، أو تهاونت في تدبيرها كما ينبغي، فأدّت الأجساد إلى الفساد قبل استعدادها للمعاد، وهذا مما يبطل حكمة إيجاد العباد"[٢]. إن هذين السببين الفاعلي والغائي من الأسباب الرئيسة والمهمة التي تؤدّي إلى كراهة الإنسان للموت، كما يمكن أن نضيف سببا آخر من أسباب كره الموت هو عدم استعداد الإنسان له، وانشغاله بدنياه الزائلة والمنتهية أكثر من انشغاله بآخرته الباقية وغير المنتهية. إن هذا الاشتباه الذي وقع فيه الإنسان، وعدم الموازنة في العمل بين أعمال الدنيا وأعمال الآخرة بشكل دقيق ومحسوب جعل الإنسان يحبّ الدنيا ويُقبل عليها إقبالا شديدا، بل محموما في غالب الأحيان، ويكره الآخرة ولا يُقبل عليها، بل يهرب من الموت الذي يشكّل مقدمة وبوّابة لها، في حين أن القرآن الكريم والأحاديث الشريفة تدعوه إلى الموازنة بين الدنيا والآخرة وعدم الإفراط والتفريط. قال تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾[٣].

إن الموت حقيقة واقعة "لا بدّ وأن يلاقيه الإنسان من جهة القضية الربّانية، مع كونه مكروها تفرّ وتنفر منه النفوس بحسب ما هو مركوز في غرائزها من جهة التدبير الإلهي،

(١) تفسير القرآن الكريم، ٨/ ٢٩٢.

(٢) تفسير القرآن الكريم، ٨/ ٢٩٣.

(٣) القصص: آية ٧٧.

ولذلك سلّط الله عليها دواعي هي أسباب دوامها الدنياوي، وهي بعينها أسباب عطبها وهلاك هياكلها، وشقاوة نفوسها، وهذا من عجائب حكمة الله في هذا العالم، حيث يكون سبب البقاء بعينه سبب الهلاك والشقاوة، وتلك الأسباب والدواعي المسلّطة هي مثل الجوع والعطش والشهوات المختلفة، والأشواق واللذات الزائلة"[١]. وهنا يبرز أمامنا السؤال الفلسفي الآتي:

هل يشكّل الموت بداية أو نهاية للإنسان؟

إن الموت يشكّل نهاية للحياة الدنيوية المليئة بالنواقص والمحاطة بالشهوات من كل جانب، والفاقدة للكثير من الكمالات، ومن أجل إكمال هذه النواقص، والوصول بالإنسان إلى الكمالات كان لا بدّ من الموت الذي يكون طريقا لإكمال النواقص وتحقيق الكمالات المُفضية إلى الحياة الأخروية التي يتحرّر فيها الإنسان من أعباء الجسد الدنيوي الذي كان يثقل روحه، ويتخلّص من كم المعاناة التي عاناها في رحلته الدنيوية المليئة بالمشاقّ والمحفوفة بالمخاطر، ومن ثم فقد شكّل الموت بهذا اللحاظ بداية للحياة الأخروية التي ستكون حياة رائعة ومريحة وجميلة وماتعة للإنسان الذي أحسن الإعداد لها، وجعل من حياة الكدح والمشاقّ والتعب والمعاناة الدنيوية طريقا وممرّا إلى الحياة الأخروية بكلّ تفاصيلها الجميلة ومُتَعها المستمرّة وغير الزائلة، كمتع الدنيا، فالموت "ليس معناه سوى مفارقة الروح الجسد والدنيا"[٢]، وهذه المفارقة تحدث حين تفارق الروح الجسد وتتحرّر منه ومن قيوده واشتراطاته، وتفارق الدنيا ومنغّصاتها ومزعجاتها، وتنطلق في حياة جديدة ملؤها الحرية والفيوضات الإلهية، فالموت يشكّل انتقالة سريعة من الحياة

---

(١) تفسير القرآن الكريم، ٨/ ٢٩٤.

(٢) تفسير القرآن الكريم، ٨/ ٢٩١.

الدنيوية إلى الحياة الأخروية، ولكل حياة منهما قوانينها واشتراطاتها، كما يشكّل انتقالا من النشأة الدنيوية إلى النشأة الأخروية، ومن الطبيعي أن يسبّب الموت حزنا وألما وتفجّعا لمن يحب الميت، إلا أنه يشكل في الوقت نفسه سعادة ونعمة كبيرة للإنسان الصالح الذي وقع عليه الموت، ولا سيما إذا كان موته في سبيل الله، ومن أجل الإصلاح وتحقيق العدل، وهذا ما حصل مع الإمام الحسين عليه السلام حينما أطلق كلمته المدوية في أثير الزمن:

" « **فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما** »"[(١)].

شكّل الموت في الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر موضوعا مهما وإشكاليا، ومثّل حقيقة واقعة وموضوعا مؤثّرا وضاغطا على الإنسان، ومصدرا للخوف المستمر؛ وبسبب هذا الخوف المستمر والمهيمن على البشر نجد قسما كبيرا منهم يتهرب منه ومن ذكره والحديث فيه، ونجد كثيرا من الباحثين والمفكّرين قد "أهملوه عن عمد أو عن غفلة، فأضحى موضوعا مزعجا لا يشجّع على التفكير، لذا فإن عدم اهتمام المفكّرين بدراسة الموت ليس إلا فرارا من هذا الموضوع"[(٢)] الخطير والمهم، ومحاولة للابتعاد عنه وعن ذكره والحديث عنه، والبحث فيه وفي حيثياته وتفاصيله، وسعيا إلى تناسيه، وفي ذلك يقول بوسويه: "إن اهتمام الناس بدفن أفكارهم عن الموت قد لا يقل شأنا عن اهتمامهم بدفن موتاهم، فخوف الناس من الموت هو الذي حَدا بهم إلى تجاهل التفكير في الموت أو العمل على تناسيه"[(٣)]، لذا نجد كثيرا من الناس لا يحبّ ذكره، ويسعى بكلّ

---

(١) مقتل الحسين، ٢٠٠.

(٢) سيمياء الموت في ديوان (أغاني الحياة) لأبي القاسم الشابي، رسالة ماجستير، زاهية بو قروحة، جامعة مولود معمري، كلية الآداب واللغات، ٢٠١٥، ٨.

(٣) الموت في الفكر الغربي، جاك شورون، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، د. ط، ١٩٨٤، ٩.

طريقة إلى تغيير موضوع الحديث إذا كان عن الموت، بل نجد قسما منهم يعدّه سوءًا، لذلك يقول لأهل الميت عند تعزيته لهم تلك المقولة الخاطئة التي أصبحت جزءًا من نسق اجتماعي خاطئ في مجتمعاتنا: (خاتمة السوء إن شاء الله)، ونجد قسما آخر يعدّه شرا؛ لذلك نراه يقول مسرعا، بعد ذكر الموت: (أبعد الله الشر عنكم)، ونرى إخواننا المصريين مثلا يقولون عند ذكره: (الشر برّة وبعيد)، مع أن الموت ليس سوءًا وليس شرا، بل هو قدر حقّ واقع على البشر من الله تعالى، تنتهي به حياتهم الدنيوية، وتبدأ حياتهم الأخروية.

إن هذه النظرة الخائفة والتشاؤمية إلى الموت بوصفه خطرا كبيرا وسوءًا وشرا نظرة غير دقيقة، ولا تعكس حقيقة الموت، فأصحاب فلسفة الحياة يرون "أن الموت جزء من الحياة وأنه ليس مضادا لها، فلِكَي تكون النظرة إلى الموت صحيحة يجب أن تجعل الموت جزءًا من الحياة، وهذا ما فعلته فلسفة الحياة، خصوصا عند أشهر ممثليها من الألمان، فقد قال فردريك نيتشة: (حذار أن تقول: إن الموت مضاد للحياة) (...) إن أصحاب المذهب الحيوي يقولون: إنه ليس خارج الحياة شيء، فالحياة هي الكل، ومعنى هذا أن الموت يجب أن يفسر أيضا بالحياة وأن تفسر الحياة بدورها بالموت، ولهذا يقول جورج زمل: (إن الحياة تقتضي بطبيعتها الموت، بحسبانه هذا الشيء الآخر الذي بالنسبة إليه تصير شيئا، والذي بدونه لن يكون لهذا الشيء معناه وصورته). إن الحياة تقتضي الموت إذا، وما هو حي وحده الذي يموت"(١)، وعليه فإن الحياة والموت حقيقتان متضادّتان، وتتميز الواحدة منهما بضدها، إذ تقول العرب: بضدها تتميز الأشياء، فلم تتميز الحياة وتُعرف وتُحب إلا بوجود الموت، ولم يتميز الموت ويسعى الإنسان إلى الفرار منه إلا بوجود الحياة، ولكن هذا التضادّ بين حقيقتي الحياة والموت لا يعني أن الموت مضادّ

(١) بحث: مشكلة الموت في الثقافة العربية، د. حازم خيري، مجلة ابن رشد، ع ١١، شتاء ٢٠١٠ - ٢٠١١،على الرابط الآتي: www.ibn-rushd.org بتاريخ ٤/ ١/ ٢٠١٨.

للحياة كما حذّر من قوله نيتشة بل الموت بداية لحياة ثانية لها خصوصياتها عن الحياة الدنيا، ولها أنظمتها وقوانينها التي تميّزها، ومن ثم فلا داعي للخوف منها، فهي حياة أخروية سيعيشها الإنسان، كما كانت من قبلها حياة دنيوية عاشها الإنسان بتفاصيلها كلها.

ويرى شوبنهاور أن "الموت هو الهدف الحقّ للحياة، وقصر الحياة الذي يثير الأسى بلا انتهاء قد يكون أفضل صفاتها، وأن طبيعتها الحقّة غير قابلة للإفناء، معتبرا الموت ملهم الفلسفة، معيدا إلى الأذهان مقولة سقراط: إن الفلسفة هي معرفة الموت، وبدون الموت لا توجد فلسفة"[(١)]، فالموت – بحسب شوبنهاور – هو الهدف الحقّ للحياة، وهذا فهم فيه دقّة وتأمّل، فالحياة لابدّ أن تنتهي في يوم من الأيام بالموت، بعيدا كان أو قريبا ذلك اليوم، وعلى الإنسان أن يفيد من هذه الحقيقة المهمة والواقعة لا محالة، فيجعل حياته تسير إلى هدفها الحتمي والحقّ، وهو الموت الذي بوقوعه تبدأ الحياة الأخروية، وتنتهي الحياة الدنيوية القصيرة قياسا إلى حياة الآخرة، وهذا القصر قد يكون من أفضل صفاتها؛ لأنها حياة مليئة بالكدح والتعب والمعاناة بكلّ أنواعها، وهذه الحقيقة سيعرفها الإنسان الذي أفاد من حياته الدنيا وجعلها مزرعة يحصد ثمارها في حياته الأخروية، حينما ينتقل بموته إليها، ويرى الفرق الكبير بين الحياتين، ويعرف أن الموت ما هو إلا انتقالة سريعة من حياة إلى حياة، وأن ما قدّمه في الحياة الدنيا غير قابل للإفناء والإمحاء، بل محسوب عليه ومكتوب، مثل طبيعة الحياة التي عاشها والتي تميّزت بأنها غير قابلة للإفناء بحسب شوبنهاورـ. إن هذا الفهم وغيره للموت جعله ملهما للفلاسفة، ودافعا إياهم للبحث والتفكّر فيه؛ لأنه قدر محتوم وحقيقة واقعة يسعى الكثير إلى استكناهها وفهم حيثياتها ودقائقها.

(١) مقال: الموت في الفكر الفلسفي الغربي والديني، علي محمد اليوسف، صحيفة المثقف، ع ٤٠٢٨، ٩ / ٢٠١٧، على الرابط الآتي: www.almothaqaf.com بتاريخ ٤/ ١/ ٢٠١٨.

ورد الموت في نصوص النهضة الحسينية بعدّة ألفاظ تحقّقت فيها قوة الإشارة إليه، ومن هذه الألفاظ: القتل، والموت، والشهادة، والذّبح، والمنيّة، والمصرع، ولقاء الله، والفداء بالنفس، وتقطيع الأعضاء، ومفارقة الأرواح للأجساد، والسِلّة، وبذل المهج، والحِمام، وقطع الرأس، وضرب العنق، والاستبشار بالذهاب إلى الآخرة، وغيرها. وكانت أكثر الألفاظ المشيرة إلى الموت ورودا كلمة (القتل) بمشتقّاتها، ثم كلمة (الموت) بالمرتبة الثانية، ثم تليها مفردة (الشهادة)، ثم بقية المفردات، وبناءً على كثرة ورود القتل سنفرد الفصل الثاني لدراسة سيمياء القتل، فيما سنخصّص الفصل الثالث لدراسة سيمياء الموت، وسندرس في الفصل الرابع سيمياء الشهادة، وسنخّصص الفصل الخامس لدراسة المفردات الأخرى التي أشارت إلى الموت.



الوحدات السيميائية

الدالّة على القتل



الوحدات السيميائية الدالّة على القتل

يميّز الراغب الأصفهاني بشكل دقيق بين القتل، والموت، فيقول: "أصل القتل إزالة الروح عن الجسد كالموت، لكن إذا اعتبر بفعل المتولي لذلك يقال: قتلٌ، وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال: موتٌ"(١)، فالقتل يشبه الموت في أنه يمثّل مفارقة الروح للجسد ونهاية الحياة، لكنّه يختلف عنه؛ لأنه يحصل بفعل فاعل، في حين أن الموت يحصل بانتهاء الحياة بالمرض، أو الحادث العرضي، أو الموت الطبيعي، أو غيره من أسباب الموت. إن هذا الفرق بين القتل والموت يشكّل سببا وجيها في كثرة ورود مفردة القتل ومشتقّاتها في نصوص النهضة الحسينية قياسا إلى مفردات أخرى تحمل معاني مقاربة كالموت والشهادة وغيرها؛ لأن مفردة القتل تشير إلى وقوع الموت بفعل فاعل، والفاعل هنا مشخّص وواضح، يتمثّل بأعداء الإمام الحسين عليه السلام الذين أرادوا قتله بكل طريقة متاحة لهم، وأرادوا إسكات صوته المدوي بقوله: "« **ومثلي لا يبايع مثله** »"(٢)، لذلك نجد الشرارة الأولى للنهضة الحسينية، المتمثّلة بالحديث الذي دار بين الإمام الحسين عليه السلام والوليد بن عتبة ومروان بن الحكم، مفعمة بذكر القتل حينما قال مروان للوليد محرّضا إيّاه على قتل الإمام عليه السلام:

"إن فارقك الساعة ولم يبايع لم تقدر منه على مثلها حتى تكثر القتلى بينكم، ولكن

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ضبطه هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م، ٤٠٩، مادة: قتل.

(٢) مقتل الحسين، ١٢٩.

احبس الرجل حتى يبايع أو تضرب عنقه.

فقال الحسين عليه السلام: «**يا ابن الزرقاء، أنت تقتلني أم هو؟ كذبت وأثمت**».

ثم أقبل على الوليد وقال: «**أيها الأمير إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة. بنا فتح الله وبنا يختم، ويزيد رجل شارب الخمور، وقاتل النفس المحرّمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله**»"[١]، وبعد أن خرج الحسين عليه السلام من هذا المجلس قال مروان للوليد موبّخا له على سماحِهِ للإمام بالخروج دون أخذ البيعة منه أو قتله:

"عصيتني. فو الله لا يمكنك على مثلها.

قال الوليد: وبّخ غيرك يا مروان! اخترت لي ما فيه هلاك ديني. أقتل حسينا إن قال لا أبايع؟ والله لا أظن امرءاً يحاسب بدم الحسين إلا خفيف الميزان يوم القيامة"[٢]. إن هذا الحوار ينطوي على أكثر من مفردة من مشتقّات القتل هي: القتلى، تقتلني، قاتل النفس، أقتل حسينا، وهو يؤشّر ويسجّل كونه الشرارة الأولى للنهضة الحسينية والبيان رقم واحد لها أن هذه النهضة ستكون موّارة ومليئة بأحداث القتل البشع الذي سيمارَس بحقّ الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، وأن القتل والتفكير فيه والسعي إليه سيمثّل فعلا مهيمنا على ما سيفعله أعداء الحسين عليه السلام قبل نهضته وفي أثنائها، ودافعا قويا لهم يحرّكهم ويسيطر على أفعالهم، ويطبع تصرفاتهم حتى يحقّقوه يوم العاشر من المحرم، وبذلك ستثبت عليهم صفة قاتلي الإمام الحسين عليه السلام على مرّ الليالي وكرور الأيام وسير التاريخ.

---

(١) مقتل الحسين، ١٢٩.

(٢) مقتل الحسين، ١٣٠.

إنّك مقتول

نصح عدد من الناس الحسين عليه السلام بعدم الخروج من المدينة، وكان من الناصحين له أخوه عمر الأطرف، إذ قال له:

"حدّثني أبو محمد الحسن عن أبيه أمير المؤمنين: « **أنّك مقتول فلو بايعتَ لكان خيرا لك. قال الحسين: حدّثني أبي أن رسول الله أخبره بقتله وقتلي وأن تربته تكون بالقرب من تربتي. أتظن أنك علمت ما لم أعلمه؟ وإنّي لا أعطي الدنيّة من نفسي أبدا** »"(١)، ولعلّ إنعام النظر في هذا الحوار وفي إشاراته التي يبعثها للمتلقي يفضي إلى استكناه الحالة النفسية للمحاورَين، فالحوار من الأمور المهمة التي تكشف عن الشخصية، وتبيّن خصائصها وما يدور في أعماقها، كما أنه يظهر متبنّياتها الأيديولوجية، وما تفكّر وتؤمن به، فقد كشف الحوار عن طبيعة شخصيّة عمر الأطرف وعن خوفه مما عزم عليه الحسين عليه السلام من الخروج على يزيد بن معاوية، ومن نهاية هذه الحركة بمقتل أخيه الحسين عليه السلام. إن هذا الخوف الظاهر من ثنايا حواره جعله لا يحاور أخاه الإمام بشكل لطيف وحضاري، بل كان في حواره نوع من الجرأة على أخيه الكبير، وسعي واضح إلى إخافته مما سيقدم عليه، لذلك يؤكد له أنه سيُقتل في قوله: (« **أنك مقتول** »)، ثم يطلب منه بأسلوب بعيد عن مراعاة أن أخاه الحسين عليه السلام أكبر منه سنا وأعظم شأنا، فهو سبط النبي وابن الزهراء وسيد شباب أهل الجنة وإمام زمانه المعصوم، فيقول له: (« **فلو بايعت لكان خيرا لك** »)، وكأنّه يريد أن يعلّم الإمام ما يقوم به من فعل إزاء الأحداث، ويريد أن يبيّن له أن بيعته ليزيد خير له، ولا أدري أيّ خير يرجوه عمر الأطرف من بيعة الحسين عليه السلام ليزيد؟ وأيّ شيء يرجوه من إخافته بالقتل وتأكيده على مقتله، دون

---

(١) مقتل الحسين، ١٣٣.

اكتراث كما يظهر من سيميائية الحوار؟ وهل اعتقد أن الحسين عليه السلام سيخاف من هذا التخويف والترهيب بقتله، أو أنه سيتراجع عمّا عزم عليه من فعل كبير سيعود بالنفع العظيم على أمة جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله؟ وهل تصوّر أن هذا الأسلوب الجاف سينفع مع أخيه الكبير؟. إن هذا الأسلوب، وهذا التخويف من القتل المؤكّد لم يؤتِ أكله مع الحسين عليه السلام، لذلك يجيبه بثقة عالية، وشجاعة نادرة، وعزيمة فذّة، وبصيرة نافذة بعلمه بمقتله وعدم خوفه من هذا المصير الذي سيلقاه، مؤكدا كلامه في قبال توكيد أخيه لكلامه قائلا: («**حدّثني أبي أن رسول الله أخبره بقتله وقتلي**»)، وهنا يقطع دابر الخوف، ولا يدخل في دوّامته التي أريد له الدخول فيها، فهو يعلم من جدّه وأبيه أن أباه سيُقتل وأنه سيُقتل بعده فلِمَ الخوف من القتل؟، ثم يحاور أخاه حوارا حِجاجيا مفعما بالثقة والشجاعة والعنفوان، قائلا: («**أتظن أنك علمت ما لم أعلمه؟**»)، نعم، فالحسين عليه السلام يعلم أنه سيُقتل لا محالة، لكن لا خوفَ يذكر في نفسه ولا تردّد ولا اضطراب، لذلك يتابع حواره قائلا: («**وإني لا أعطي الدنيّة من نفسي أبدا**»)، مؤكّدا بهذه الجملة الخبرية التي تعاضد فيها التوكيد والنفي عدم تنازله، ومبيّنا بوساطة ظرف الزمان الذي يفيد التأبيد (أبدا) أنه لا يحني رأسه للظالمين المستبدّين اليوم وغدا وبعد غد، وهو بهذه الجملة التي تشير إلى علوّ نفسه، وعدم رضاه بالدنيّة، وقوّة عزيمته، وشجاعته، ورفعة شأنه، يعلّم البشرية دروسا لا تنتهي من عزّة النفس والإباء وعدم الرضا بالدنيّة وعدم الخوف من القتل؛ من أجل تحقيق الأهداف المرسومة التي تتغيّا الإصلاح والخير للبشرية، فمن الطبيعي لشخص مثل الحسين عليه السلام، والغاية هذه، أن يسعى إلى تحقيقها من دون تردّد أو اضطراب أو خشية من أي شيء حتى وإن كان إزهاق روحه وقتله، فالهدف الكبير والغاية العظمى تهون أمامها التضحيات كلها، حتى إن كانت التضحية بأغلى ما

يملك وهي الروح والأهل والأصحاب؛ لذلك نراه سعى بكلّ قوة إلى مقتله وموته؛ تحقيقا لما يصبو إليه من أهداف وغايات، كان متيقّنا أنها لا تتحقق إلا بهذه النهاية المدوّية والمتفجّرة بالدم والقتل الذي سيرسم دروب التضحية والفداء وعدم الإذعان للظالمين وعدم التسليم لهم والرضا بظلمهم، وسيخطّ للأجيال دروس الثورة ضدّهم.

وإنّي لأعرف اليوم الذي أقتل فيه والساعة التي أقتل فيها

وكان من الناصحين للحسين عليه السلام بعدم الخروج السيّدة أم سلمة، وكانت تخاف عليه من القتل، إذ تقول له:

"لا تحزنّي بخروجك إلى العراق، فإني سمعت جدّك رسول الله يقول: يُقتل ولدي الحسين عليه السلام بأرض العراق (...)

فقال الحسين: « **يا أمّاه وأنا أعلم أني مقتول مذبوح ظلما وعدوانا، وقد شاء عزّ وجل أن يرى حرمي ورهطي مشرّدين، وأطفالي مذبوحين مأسورين مقيّدين، وهم يستغيثون فلا يجدون ناصرا** »

قالت أم سلمة: واعجبا فأنّى تذهب وأنت مقتول؟

قال عليه السلام: « **يا أمّاه إن لم أذهب اليوم ذهبت غدا، وإن لم أذهب في غد ذهبت بعد غد. وما من الموت والله بدّ، وإنّي لأعرف اليوم الذي أقتل فيه، والساعة التي أقتل فيها** »"[١]. إن الحوار مليء بالإشارات إلى القتل والموت، فقد ورد القتل بوساطة عدّة ملفوظات هي: (يُقتل، مقتول، مقتول، أقتل، أقتل)، وهو حوار مفعم بالعاطفة والحنان من لدن السيّدة أم سلمة تجاه الحسين عليه السلام، ومفعم بالتقدير والاحترام

(١) مقتل الحسين، ١٣٥-١٣٦.

من لدن الإمام الحسين عليه السلام تجاه السيّدة أم سلمة، فهي تخاف من تعرّضه للقتل خوف الأم الرؤوم على ولدها، وتترجم خوفها في حوارها المفتتح ب (لا) الناهية التي تنهى بوساطتها الحسين عليه السلام عن إحزانها؛ بسبب خروجه إلى العراق، وسبب حزنها أنها سمعت النبي صلى الله عليه وآله يخبر بقتل سبطه بأرض العراق، وهي تخاف من تحقّق نبوءة من لا ينطق عن الهوى. إن الإمام يجيبها بطريقة حضارية لطيفة تتناسب مع عاطفتها وخوفها عليه، ومليئة باليقين وعدم الخوف من المكتوب، وهو مقتله ومقتل أهل بيته وأصحابه، لذلك يبدأ حواره بندائها: (« **يا أمّاه** »)، ثم يبيّن، بل يؤكّد علمه بقتله وما سيحصل لحرمه ورهطه وأطفاله قائلا: (« **وأنا أعلم أني مقتول مذبوح ظلما وعدوانا...** »). إن كلامه المؤثّر، وعلمه اليقيني بمقتله، وإخباره بهذا الأمر الخطير، وتوكيده له بوساطة قوله: (« **أني مقتول** »)، جعل السيدة أم سلمة تكلّمه بحرقة قلب، وتعجب من إقدامه على مقتله من دون تردّد أو خوف قائلة: (واعجبا فأنى تذهب وأنت مقتول؟) مستفهمةً منه بوساطة (أنى) عن سبب ذهابه، مع علمه بمقتله، فيجيبها عليه السلام جوابا يخفّف عليها هول الحدث الكبير والخطر الداهم الذي سيحدث، مبيّنا فلسفته تجاه الموت، ومعرفته باليوم الذي سيقتل فيه، والساعة التي سينال فيها الشهادة قائلا: (« **وما من الموت والله بدّ، وإني لأعرف اليوم الذي أقتل فيه والساعة التي أقتل فيها** »)، فهو ينفي بوساطة (ما) النافية إمكانية الهرب من الموت، ويؤكّد بوساطة القسم (والله) عدم قدرة الإنسان على التملّص والهرب من قدره المحتوم، ثم يؤكّد بوساطة مؤكّدين هما الحرف المشبه بالفعل (إنّ)، واللام المزحلقة، المتمظهرين في قوله: (وإني لأعرف) معرفته بيوم وساعة قتله، واللافت في النص أنه كرر قوله: (أقتل) مرتين، فقد كان من الممكن أن يقول: وإني لأعرف اليوم والساعة التي أقتل فيها. والمعنى قائم بهذه

الجملة، إلا أن تكرار الفعل (أقتل) مرتين يبعث إشارات سيميائية للمتلقي على يقين الحسين عليه السلام وتأكده من مقتله، وعدم خوفه من السير إلى هذا المصير الرهيب والنهاية المأساوية، فالقتل لا يشكّل عائقا ولا مانعا أمامه؛ لكي يوقف مسيرة الإصلاح التي يريد، فضلا عن أن التكرار يفيد تقرير المعنى في ذهن المتلقي، فأراد الحسين عليه السلام تأكيد قتله وتقريره في ذهن السيّدة أم سلمة؛ لكي تصبّر نفسها على حدث قتله المروّع، وأراد أن يقرّره في أذهان المتلقين لكلامه في كل زمان ومكان.

مقتل مسلم بن عقيل

إن الشجاعة النادرة، والعزم على تحقيق الهدف المرجو، وعدم الخوف من القتل أو أيّ عاقبة خطيرة مهما كانت نتائجها، أمور لم تقتصر على الإمام الحسين عليه السلام، بل سرَت من روحه الأبيّة الوثّابة إلى معالي الأمور، ومن نفسه التوّاقة إلى الإصلاح والمُقْدِمة على الشهادة بكل عزم وإصرار وثقة، سرت منه إلى أهل بيته وأبناء عمومته وأصحابه، فغدا الفيض الحسيني الفيّاض بالبطولة والشجاعة والعنفوان والإصرار على تحقيق الهدف، فائضا ومؤثرا في من كان معه، فلا عجب أنهم لا يخافون القتل ولا يأبهون به كسيّدهم الحسين عليه السلام، وهذا ما حصل مع ابن عمه وثقته مسلم بن عقيل حينما قُبِض عليه في الكوفة، وأُدخل على عبيد الله بن زياد فقال:

"السلام على من اتّبع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى.

فضحك ابن زياد وقال: سلّمتَ أو لم تسلّم إنك مقتول.

فقال مسلم: إن قتلتني فلقد قتل من هو شر منك من هو خيرا مني، وبعد فإنك لا تدع سوء القتلة، ولا قبح المثلة، وخبث السريرة، ولؤم الغلبة لأحد أولى بها منك.

فقال ابن زياد: لقد خرجت على إمامك، وشققت عصا المسلمين، وألقحت الفتنة.

قال مسلم: كذبت. إنما شق العصا معاوية وابنه يزيد، والفتنة ألقحها أبوك. وأنا أرجو أن يرزقني الله الشهادة على يد شرّ بريته"(١).

إن هذا الحوار مليء بالقوّة والصبر والعزم على لقاء الموت؛ من أجل إحقاق الحق ودحض الباطل من لدن مسلم بن عقيل، ومليء بالدناءة والغدر والسعي المحموم إلى إسكات صوت الحق وقتله من لدن ابن زياد، وهذا هو الفرق بين النهجين، نهج الحقّ الذي اختطّه الحسين عليه السلام وأتباعه، ونهج الباطل الذي اختطّه يزيد وأتباعه، لذلك نرى مسلم بن عقيل سائرا على نهج الحق، غير مكترث بالقتل، فهو يدخل إلى مجلس ابن زياد بكلّ هدوء وطمأنينة، مسلّما سلاما يحمل أكثر من إشارة سيميائية، ويرمز إلى أكثر من معنى؛ لفضح ابن زياد وأعوانه، قائلا: (السلام على من اتّبع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى)، معرّضا بهم، فابن زياد وأعوانه لم يتبعوا الهدى، ولم يخشوا عواقب الردى، ولم يطيعوا الله جلّ في علاه، لذلك لم يكن غريبا ضحك ابن زياد الذي يدلّ على سفاهته وعدم اكتراثه، ولم يكن مفاجئا عدم ردّه على السلام؛ لأن سلام ابن عقيل لا يشمله، لذلك يجيبه بقوله: (سلّمتَ أو لم تسلّم إنك مقتول)، فسيّان عنده سلام ابن عقيل وعدم سلامه، ثم يؤكد عن طريق توظيف (إنّ)، واسم المفعول (مقتول) سعيه المحموم لقتله.

فهل أخافَ هذا التهديد المؤكّد بالقتل مسلمَ ابن عقيل؟

وهل أرعبه؟ أبدا، بل على العكس زاده عزما وإصرارا على موقفه المبدئي، وزاده قوّة

---

(١) مقتل الحسين، ١٦٣ – ١٦٤.

ودافعية على فضح نهج الظالمين السافكين لدماء الأبرياء من أمثال ابن زياد، لذلك يقول له: (إن قتلتني فلقد قتل من هو شر منك من هو خيرا مني، وبعد فإنك لا تدع سوء القتلة ولا قبح المثلة وخبث السريرة ولؤم الغلبة لأحد أولى بها منك)، فكان ردّه بليغا مكثّفا بعبارات حملت وجوها سيميائية متعدّدة المعاني، بادئا كلامه بالجملة الشرطية المصدّرة بأداة الشرط الجازمة (إن)، مبيّنا أن قتله له لا يشكّل أمرا مخيفا له؛ لأن هناك من كان أكثر شرا من ابن زياد قد قتل من كان خيرا من ابن عقيل، وهذا ما عبّرت عنه جملة جواب الشرط المصدّرة بتوكيدين في قوله: (فلقد)، فاللام واقعة في جواب قسم محذوف، و(قد) تفيد التحقيق والتوكيد؛ لوقوع الفعل الماضي (قتل) بعدها، ولعلّه يشير إلى قتل عمه علي بن أبي طالب عليه السلام على يد ابن ملجم المرادي، وإلى قتل ابن عمه الحسن بن علي عليه السلام على يد جعدة بنت الأشعث بأمر من معاوية بن أبي سفيان، وإلى قتل خيار أهل الكوفة وصالحيها على يد أبيه زياد ابن أبيه، وهذا ما أشار إليه في حواره معه، إذ يقول لابن زياد بعد أن عاب عليه قدومه إلى الكوفة: "ولكن أهل المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم، وسفك دماءهم، وعمل عمل كسرى وقيصر، فأتيناهم؛ لنأمر بالعدل، وندعو إلى حكم الكتاب"[1].

يستمرّ مسلم بن عقيل في حواره، فاضِحًا ابن زياد، ومبيّنا بإشارات لغوية واضحة سوءَهُ، وقبحه، وخبث سريرته، ولؤمه، فهو الأولى بهذه الصفات من غيره من الناس، وهو الأولى بحملها والاتّصاف بها، لذلك يقول له: (وبعد فإنك لا تدع سوء القتلة، ولا قبح المثلة، وخبث السريرة، ولؤم الغلبة لأحد أولى بها منك)، كما أن ابن عقيل كان غير مكترث بتهديده بالقتل، ولا متردّد في إقدامه على الشهادة، لذلك يجيب ابن زياد حين

(١) مقتل الحسين، ١٦٥.

اتّهمه بالخروج على يزيد، وشقّ عصا المسلمين، وإلقاح الفتنة، بكلّ دقة، رادا تهمه عليه، مفنّدا إياها الواحدة تلو الأخرى، محاجِجا إيّاه بحوار جدلي دقيق مبني على رد الدليل بالدليل، والتهمة بالتهمة، قائلا: (كذبت. إنما شق العصا معاوية وابنه يزيد، والفتنة ألقحها أبوك. وأنا أرجو أن يرزقني الله الشهادة على يد شر بريّته). إن هذا الجواب مفعم بروح القوّة والتحدّي والوقوف الشجاع بوجه الطغاة، فهو يفتتحه بالفعل الماضي المتصل بتاء المخاطب (كذبت)؛ ليشير إلى كذبه، من دون خوف أو مواربة، ثم يحصر ويؤكّد بوساطة (إنما) أن من شق عصا المسلمين معاوية وابنه يزيد، وأن من ألقح الفتنة زياد بن أبيه والد عبيد الله، ثم يختم حواره بجملة تحمل كلّ معاني البطولة، وتفيض بالإيمان والتسليم لله، واليقين بأنه على حق، وعدوّه على باطل، إذ يفتتحها بقوله: (وأنا أرجو) مبينا أمنيته التي يرجوها من الله، وهي الشهادة على يد شر الخلق، وبهذا نرى أن التهديد بالقتل لم ينفع مع هذه النفوس المؤمنة التي سعت إلى مقتلها، وهي مطمئنّة وغير مكترثة برهبة الموت ومرارته وشدّة وقعه على النفوس، طالبة أن يرزقها الله الشهادة، متيقّنة أنها على حق، وأن عدوّها على باطل.

الحفاظ على حرمة بيت الله الحرام

بعد أن استقرّ الإمام الحسين عليه السلام في مكة مدّة من الزمن، عزم على الخروج منها متوجّها إلى العراق، وكان خروجه يوم التروية الثامن من ذي الحجة الحرام سنة ستين للهجرة، وقد أصرّ على الخروج قبل إتمام الحج، واكتفى بالعمرة؛ حفاظا على حرمة بيت الله الحرام، وخشية من أن تستباح حرمة الكعبة المشرّفة، ويستباح فيها دمه؛ لأن يزيد بن معاوية كان قد "أنفذ عمرو بن سعيد بن العاص في عسكر، وأمّره على الحاج،

وولّاه أمر الموسم، وأوصاه بالفتك بالحسين أينما وجد"[١]، وقد نصحه بعدم الخروج إلى العراق عدد من الأشخاص، وكان منهم عبد الله بن الزبير، الذي أجابه الحسين عليه السلام على نصيحته قائلا:

"« **إن أبي حدّثني أن بمكة كبشا به تستحلّ حرمتها، فما أحب أن أكون ذلك الكبش، ولأن أقتل خارجا منها بشبر أحبّ إليّ من أن أقتل فيها. وأيم الله لو كنت في ثقب هامة من هذه الهوام لاستخرجوني؛ حتى يقضوا فيّ حاجتهم** »"[٢]. إن استكناه الإشارات التي يبعثها النص يشير إلى وجود أكثر من إشارة إلى القتل، فالحسين عليه السلام يشير بوساطة الجملة الخبرية التي يبدأ بها كلامه أن أباه عليا عليه السلام كان قد أخبره أن ثمة شخصا سيُقتل في مكة، وبمقتله فيها ستُستَحَل حرمتها، وأنه لا يحبّ أن يكون ذلك الشخص؛ حفاظا على حرمتها وعلى حرمة المسجد الحرام والكعبة المشرفة، ثم يبيّن أن قتله بعيدا عن مكة ولو بشبر واحد أحبّ إليه من القتل فيها. إن اللافت للنظر في كلام الإمام أنه غير مكترث بقتله وغير خائف من نهايته المأساوية البتة، وأن خوفه لم يكن على نفسه، بل كان على حرمة مكة المكرمة والبيت الحرام، فهو مقتول لا محالة، لذلك يقسم في قوله: (« **وأيم الله** ») ويؤكّد أنهم عازمون على قتله في الأحوال كلّها، ومهما كانت العواقب، ومع ذلك نراه يخرج من مكة من دون أي رهبة من قتله، محافظا على حرمتها، متوجّها بصبر وإباء وجلادة إلى البلد الذي سيُقتل فيه. إن هذا الموقف الديني المبدئي والإنساني النبيل من لدن الحسين عليه السلام يحيل إلى أكثر من معنى من المعاني السامية التي يمكن رصدها في نقاط:

---

(١) مقتل الحسين، ١٦٨.

(٢) مقتل الحسين، ١٦٩.

١. الحفاظ على حرمة مكة المكرّمة وبيت الله الحرام، فحرمتهما عنده عليه السلام أثمن من دمه الطاهر وروحه الشريفة، وأن مقتله يهون في قبال الحفاظ على حرمتهما، فهو يحبّ القتل في سبيل الله، ولكن على أن يكون خارج مكة وليس فيها، وهذا ما أشار إليه في قوله: (« **ولأن أقتل خارجا منها بشبر أحبّ إلي من أن أقتل فيها** »).

٢. حرصه الكبير على الحفاظ على حرمة موسم الحج، والحفاظ على مشاعر حجّاج بيت الله الحرام، وعدم تكدير صفوهم؛ ليتفرّغوا لأداء مناسك الحج والتوجّه إلى الله في تلك الأيام المعلومات، وهذا إيثار كبير من سيد الشهداء عليه السلام.

٣. عدم سعيه إلى استغلال موسم الحج، كما يفعل الكثير من القادة والسياسيين في كل زمان ومكان، إذ يستغلون المواسم، ولا سيما الدينية منها؛ لتحقيق ما يصبون إليه من منافع تكون في أغلبها منافع دنيوية وشخصية، وإلا كان بمقدوره أن يبقى في المسجد الحرام وقرب الكعبة، وكان بمقدوره أن يؤلّب الرأي العام والأعداد الكبيرة من الحجّاج على يزيد وأعوانه وعلى بني أمية، ويقول لهم ما كان يعرفه وما كان متيقّنا من حدوثه، وهو قتله من لدن جلاوزة يزيد حتى إن كان متعلّقا بأستار الكعبة، إلا أنه عليه السلام لم يسعَ إلى استغلال الموسم، وفضّل الخروج من مكة يوم التروية.

٤. إن من يعزم على أمر معيّن عليه أن يكون مستعدّا لكلّ التطورات التي تحدث، حتى إن كانت خطيرة وفيها تهديد لحياته، وعليه أن يجد الحلّ الأمثل لكل حدث مفاجئ، ولا يهرب من المواجهة، ولا يسعى إلى استغلال بعض الظروف والحيثيّات استغلالا براغماتيا، وهذه من الصفات المهمّة في القائد الحقيقي الرسالي الصادق، ومن ثم فهذه دروس في القيادة يمكن استكناهها من الإمام الحسين عليه السلام ومن نهضته.

إن اللّه تعالى شاء أن يراك قتيلا

غادر الحسين عليه السلام مكة المكرّمة في ساعة السحر، وكان أخوه محمد بن الحنفية قد نصحه في تلك الليلة بعدم الخروج من مكة إلى العراق، وأشار عليه "بالذهاب إلى اليمن أو بعض نواحي البرّ، فوعده أبو عبد الله في النظر في هذا الرأي"[(١)]، إلا أنه قرّر السفر في سحر تلك الليلة. وخرج الركب الحسيني متوجّها إلى العراق، فما كان من ابن الحنفية إلا أن أتي الحسين عليه السلام، "وأخذ بزمام ناقته، وقد ركبها، وقال:

ألم تعدني النظر فيما سألتك؟

« **قال بلى، ولكن بعد ما فارقتك أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: يا حسين أخرج فإن الله تعالى شاء أن يراك قتيلا** »"[(٢)]، فالحسين عليه السلام يخبر أخاه محمد بن الحنفية أنه رأى جدّه رسول الله في الرؤيا مخاطبا إياه وآمرا بوساطة الجملة الإنشائية المبدوءة ب (يا) النداء وفعل الأمر (أخرج)، مسبّبا هذا الأمر بالخروج، بمشيئة الله أن يراه قتيلا مضرّجا بدمه، إلا أن ما يثير المتلقي أن هذا التبشير بالقتل من لدن جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله لم يُثنِه عن الخروج، ولم يشكّل عائقا أمام سفره إلى العراق، ولم يُلجئه على الأقل إلى تأخير خروجه مدّة يوم أو أكثر، بل خرج في الليلة نفسها وفي سحرها، ولم ينتظر حتى الفجر أو شروق الشمس، وبهذا فإن هذه الرؤيا الصادقة قد شكّلت دافعا مضافا إلى الدوافع التي دفعت الحسين عليه السلام إلى الخروج، كيف لا، ومما يروى عن جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله قوله:

" « **من رآني في منامه فقد رآني؛ لأن الشيطان لا يتمثّل في صورتي، ولا في صورة أحد**

(١) مقتل الحسين، ١٧٠.

(٢) مقتل الحسين، ١٧٠.

من أوصيائي، ولا في صورة واحد من شيعتهم، وإن الرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزءا من النبوة»"[١].

وهم قاتليَّ

وصل الحسين عليه السلام، وهو في طريقه إلى العراق، إلى (ذات عرق)، وهي المنزل الثالث من منازل الطريق، بعد التنعيم والصفاح، وفي هذه الأثناء التقى به أحد الحجّاج العائدين من الحجّ الذي يروي قصّة لقائه بالحسين عليه السلام قائلا:

"وانطلقتُ نحوه فإذا هو متّكئ على باب الفسطاط، يقرأ كتابا بين يديه، فقلت:

يا بن رسول الله بأبي أنت وأمي. ما أنزلك في هذه الأرض القفراء التي ليس فيها ريف ولا منعة؟

قال: « **إن هؤلاء أخافوني، وهذه كتب أهل الكوفة، وهم قاتليَّ، فإذا فعلوا ذلك ولم يدعوا لله محرما إلا انتهكوه، بعث الله إليهم من يقتلهم** »"[٢]، فالحسين عليه السلام يجيب هذا الرجل عن سؤاله الذي يحمل نبرة الاستغراب والتعجّب من نزوله في أرض جرداء قاحلة، لا نبات فيها ولا ماء ولا مَنَعَة ولا تحصّن من الأعداء، ويعزو ذلك إلى أكثر من سبب، أولها: أنه خرج خوفا من انتهاك حرمة الكعبة ومكة؛ لأنه كان متيقّنا أن بني أمية كانوا مستعدين لقتله حتى إن كان متعلقا بأستار الكعبة، وثانيها: أنه بهذه الطريقة الغادرة من القتل غيلةً يخشى عدم تحقق أهداف نهضته الإصلاحية التي كان يهدف عن

---

(١) من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي لجامعة المدرسين، قم، د. ط، د. ت، ٢/ ٥١٥، الحديث ٣١٩١.

(٢) مقتل الحسين، ١٧٨.

طريقها إصلاح الأمة وتغيير واقعها البائس، وثالثها: أنه خرج بناءً على الكتب الكثيرة التي وصلته من أهل الكوفة، والتي تطلب منه المجيء على نحو السرعة؛ لإنقاذهم، فهم مستعدون لاستقباله والقتال معه، فقد أينعت الثمار واخضرّ الجناب وإنما تقدم على جند لك مجنّدة بحسب ادعائهم في كتبهم؛ لذلك هو يتحمل الصعاب كلها من أجل تحقيق أهدافه، ومنها إنقاذ الناس، ومنهم أهل الكوفة، من ظلم بني أمية، إلا أن المفاجأة التي تكسر أفق التوقع عند المتلقي هي الجملة الخبرية التي نطقها الإمام، وهي قوله: (وهم قاتليَّ)، المكونة من الواو الحالية، والمبتدأ الضمير (هم) والخبر (قاتل) المضاف إلى ياء المتكلم، ومما يجذب الانتباه أكثر أنه وظّف صيغة اسم الفاعل (قاتل)؛ ليشير إلى تحقّق فعل القتل منهم بحقه؛ لأن صيغة اسم الفاعل تشير إلى الثبات على الصفة وعدم العدول عنها، وهو بهذا التعبير الدقيق يؤكّد مقتله لا محالة، لكنه مع تأكده ويقينه هذا، لا يزعزعه الخوف ولا ينال منه قيد ذرّة، لذلك ينتقل في كلامه إلى بيان سوء عاقبتهم إذا أقدموا على قتله، وانتهكوا حرمات الله، بوساطة الجملة الشرطية المصدّرة ب (إذا) الظرف لما يستقبل من الزمان المتضمن معنى الشرط، فهو يخبر، ويحذّر من الإقدام على قتله بوساطة جملة الشرط والجملة المعطوفة عليها بوساطة واو العطف: (« **فعلوا ذلك ولم يدعوا لله محرما إلا انتهكوه** ») كانت النتيجة والعاقبة السيئة لهم هي ما تمظهر في جملة جواب الشرط: (« **بعث الله إليهم من يقتلهم** »)، وهو بذلك يحذّرهم من مغبّة الإقدام على جريمة قتله، وهي القتل في الدنيا فضلا عن سوء العاقبة في الآخرة، فقد بيّنت الجملة الشرطية سوء فعلهم معه، وعاقبتهم السيئة إذا قتلوه، وهو هنا يبيّن حقيقة قرآنية مهمة، هي أن من يحارب الله ورسوله ويسعى في الأرض فسادا، ومن يقتل ظلما وعدوانا لا بدّ أن يُقتل ولو بعد حين، وتكون عاقبته الخزي في الدنيا وعذاب جهنم في الآخرة. قال

تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1]. لكن مع هذا التحذير، ومع هذا الإنذار الواضح الذي يحكي عاقبتهم السيئة إذا ما أقدموا على جريمة قتله، ومع هذه الإحالة إلى آيات القرآن الكريم، لم نجد استجابة منهم، بل أقدموا على قتله تلك القتلة البشعة والساديّة، ولم يراعوا حرمته ولا حرمة أهل بيته ولا حرمة شهر المحرّم، لذلك تحقّق فيهم الوعيد القرآني، وتحقّقت فيهم نبوءة الحسين عليه السلام: (« **بعث الله إليهم من يقتلهم** »)، إذ أقدم المختار الثقفي على أخذ ثأر الحسين عليه السلام، والاقتصاص من قاتليه واحدا تلو الآخر، فضلا عن خزيهم في الدنيا وعذابهم الشديد في الآخرة.

فو الله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلوك

في منازل الطريق، وبعد أن غادر الإمام الحسين عليه السلام الحاجر، كان "لا يمر بماء من مياه العرب إلا اتّبعوه، فانتهى إلى ماء من مياه العرب عليه عبد الله بن مطيع العدوي، ولما عرف أن الحسين عليه السلام قاصد للعراق قال له:

أذكرك الله يا بن رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك. أنشدك الله في حرمة العرب، فو الله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلوك، ولئن قتلوك لا يهابوا أحدا بعدك، فأبى الحسين عليه السلام إلا أن يمضي"[2]. إن تأمّل الإشارات التي يبعثها النص، ومحاولة تفكيك شيفراته يفضي إلى استكناه وعي دقيق للمرحلة وخطورتها الشديدة في كلام عبد

(١) المائدة: آية ٣٣.

(٢) مقتل الحسين، ١٨٠.

الله بن مطيع العدوي، تظهر عن طريق رجاء هذا الرجل ومناشدته للإمام بعدم الذهاب إلى العراق، فهو يستشرف المستقبل ويتوقّع ما سيحصل للحسين؛ لذلك يحاول أن يبيّن أن حرمة الإسلام ستنتهك، وحرمة العرب ستنتهك إذا ما وقع المحذور، وهو بكلامه هذا يبطن وعيا معرفيا بمنزلة الإمام وحرمته، فحرمة الإسلام وحرمة العرب متعلّقة بحرمته، وأي انتهاك لحرمته يشكّل انتهاكا لحرمة الإسلام والعرب، ثم يؤكّد بوساطة القسم بلفظ الجلالة أن بني أمية سيقتلونه إن نازَعَهم ملكهم، وطلب ما في أيديهم، وقد بيّنت الجملة الشرطية المكوّنة من أداة الشرط الجازمة (إن) وجملة الشرط: (طلبت ما في أيدي بني أمية)، وجملة جواب الشرط المؤكدة: (ليقتلوك) عزم بني أمية على قتلهم الحسين عليه السلام مهما كانت النتائج والعواقب إذا طلب ما في أيديهم من الملك ونازَعَهم عليه، ثم يستشرف المستقبل بعين المراقب الدقيق لما سيحصل، مبيّنا أن الأمويين سوف لا يهابون أحدا من الناس، مهما كانت حرمته بعد إقدامهم على انتهاك حرمة الإمام الحسين عليه السلام، وهذا ما أشارت إليه الجملة الشرطية الثانية: (ولئن قتلوك لا يهابوا أحدا بعدك) المكوّنة من أداة الشرط الجازمة (إن)، وجملة الشرط: (قتلوك) وجواب الشرط المبدوء بالنفي: (لا يهابوا أحدا بعدك)، فهو ينفي خوف بني أمية من أحد مهما كانت منزلته بعد جرأتهم وجريمتهم المروّعة بقتل الحسين عليه السلام. إن كلام هذا الرجل يشير فيما يبدو إلى أنه يملك وعيا ومعرفة وصورة واضحة بطبيعة بني أمية وحقدهم، وجرأتهم على سفك الدماء، وقتل من ينازعهم سلطانهم، وإلى معرفة المجتمع الإسلامي والعربي بطبيعة هذه العائلة الدموية والساديّة التي لا تنفك تفتك بكل معارض لها وتقتله أبشع قتلة، فقد كان هذا الأمر متسالما بين الناس، إلا أن ما يثير انتباه المطّلع على تلك الظروف والحيثيات الشائكة والصعبة، والمنتبِه إلى حبّ الناس الكبير للإمام، والظاهر في نصوص

ومواقف كثيرة، ومنها الموقف المذكور في النص المتقدّم من أنه كان (لا يمر بماء من مياه العرب إلا اتّبعوه)، يفاجأ بموقف الكثير من الناس تجاهه وتجاه نهضته وسعيه إلى التغيير والإصلاح، ويفاجأ بتخاذل الكثير عن الخروج معه ونصرته، فقد كان الخوف، وضعف الإرادة، وعدم وعيهم بحقيقة الإمام ومنزلته العظيمة، وخشيتهم من القتال معه ضد الأمويين من الأسباب التي أسهمت في خذلانهم له وعدم نصرته، وهذا ما عبّر عنه الشاعر الفرزدق حينما قال له بعد أن سأله عن خبر الناس:

"قلوبهم معك والسيوف مع بني أمية"[١]، وما أظهره قول بشر بن غالب حينما التقى به الإمام في (ذات عرق) وسأله سؤالا مقاربا فأجابه قائلا: "السيوف مع بني أمية والقلوب معك"[٢]؛ لذلك كان عبد الله بن مطيع العدوي حريصا فيما يبعثه كلامه من إشارات على ألا يُقتل الحسين عليه السلام، وكان جادًّا في مناشدته؛ لعلمه بدموية الأمويين وحقدهم وبُعدهم عن الله، وسعيهم المحموم لقتل الإمام، وبقتلهم إياه فإنهم سيكونون أجرأ على الناس، وسينتهكون حرمة الإسلام والعرب؛ لأن الحسين عليه السلام يمثّل الإسلام الحقيقي الناصع، لا إسلام الأمويين المحرّف بحسب أهوائهم وميولهم المنحرفة، ولأنه عليه السلام يمثّل ذروة سنام العرب وخير بيوتها فهو ينتسب إلى جدّه النبي صلى الله عليه وآله وإلى بني هاشم، إلا أنه مع هذا الرجاء وهذه المناشدة لم نجد استجابة من الإمام؛ لأنه كان عارفا بخسّة بني أمية وعدوانيّتهم وحقدهم القديم والمتجذّر في نفوسهم على بني هاشم بشكل عام، وعليه بشكل خاص، فهم متأهّبون لقتله، وساعون إلى تحقيق هذا الهدف بكلّ طريقة متاحة، وقد جنّدوا عشرات الآلاف من الناس، وصرفوا الأموال

---

(١) مقتل الحسين، ١٧٧.

(٢) مقتل الحسين، ١٧٨.

الطائلة، وحاولوا كسب الرأي العام بالترغيب تارة وبالترهيب تارات، وتوسّلوا بالكذب والخداع وتحريف الحقائق بطرق شتّى، ومنها الإعلام الكاذب والمحرِّف للحقائق الذي صوّر آل البيت بصورة الخوارج الخارجين عن الدين وعن سلطة الدولة الإسلامية، كلّ ذلك وغيره من أجل قتل الحسين عليه السلام وإسكات صوت الحقّ المطالب بالإصلاح والتغيير نحو الأفضل، وبالتخلص من الأمويين ومن على شاكلتهم، ومن سياساتهم التي انتهكت حرمة الإسلام، وسَعَت إلى إذلال المجتمع الإسلامي وإخضاعه تحت نِير سلطتهم الفاسدة والبعيدة عن الدين والعقيدة الحقّة التي جاء بها جدّ الحسين عليه السلام النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله، لذلك كان الإمام الحسين عليه السلام واعيا لدوره، ومشخّصا لظرفه تشخيص الإمام المعصوم الدقيق جدا والمطابق للواقع، وعارفا بأن بني أمية سيقتلونه في الأحوال كلّها؛ لأنهم لم يحصلوا منه على بيعة ليزيد بن معاوية أبدا، وبعد اللتيا والتي تحقّق ما استشرفه وتوقّعه عبد الله بن مطيع العدوي، وما كان متأكّدا من وقوعه الإمام الحسين عليه السلام، وهو قتله من لدن الأمويين، فقد قتلوه؛ لأنه قال أعظم (لا) في تاريخ الإنسانية، فأصبح رمزا للشهداء والأحرار والمصلحين والثائرين بوجه الظلم والاستهتار والاستبداد في كل زمان ومكان من يوم شهادته في العاشر من المحرم في العام الحادي والستين للهجرة إلى يوم الناس هذا.

وصول خبر مقتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة

في منطقة (زَرود) أُخبر الإمام الحسين عليه السلام "بقتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة، فاسترجع كثيرا، وترحّم عليهما مرارا وبكى، وبكى معه الهاشميون، وكثر صراخ النساء حتى ارتج الموضع لقتل مسلم بن عقيل، وسالت الدموع كلّ مسيل، فقال له عبد

الله بن سليم والمنذر بن المشمعل الأسديان:

ننشدك الله يا ابن رسول الله إلا انصرفت من مكانك هذا فإنه ليس لك بالكوفة ناصر، فقام آل عقيل وقالوا:

لا نبرح؛ حتى ندرك ثأرنا أو نذوق ما ذاق أخونا، فنظر إليهم الحسين عليه السلام وقال:

« **لا خير في العيش بعد هؤلاء** »"[١]. إن الملاحظ في النص المتقدّم تأثّر الحسين عليه السلام الكبير بمقتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة مما جعله يسترجع كثيرا، ويترحّم عليهما مرارا كثيرة، ويبكي بكاءً مسموعا ومُشاهدا ممن كان معه، مما جعل الهاشميين يبكون معه، وأدى إلى كثرة صراخ النساء وتفجّعهن على هذا الحدث المؤلم والخطير، ولعلّ سائلا يسأل عن سبب هذا البكاء والحزن الكبير، والتفجّع المدوّي الذي أدى إلى ارتجاج الموضع وسيلان الدموع كلّ مسيل على قتل هذين الرجلين، ويمكن تلخيص الإجابة بنقاط كما يأتي:

١. تألّم الحسين عليه السلام الكبير وحزنه؛ بسبب الطريقة البشعة والساديّة التي مورست في قتل هذين الرجلين الكريمين البطلين اللذين كانا يمثّلان ثقلين أساسيين في معسكره، فقد مورست معهما قساوة وبشاعة كبيرة في طريقة قتلهما والتمثيل بجثّتيهما إذ "أمر ابن زياد بسحب مسلم وهاني بالحبال من أرجلهما في الأسواق، وصلبهما بالكناسة منكوسين، وأنفذ الرأسين إلى يزيد، فنصبهما في درب من دمشق"[٢].

٢. معرفة الحسين عليه السلام حال الناس وغدرهم برسوله الذي كان ممثّلا له، وقد أرسله لاستطلاع الوضع "والنظر فيما اجتمع عليه أهل الكوفة، فإن رأى الناس

(١) مقتل الحسين، ١٨٢.

(٢) مقتل الحسين، ١٦٦ – ١٦٧.

مجتمعين مستوثقين عجّل إليه بكتاب"[١]، وقد كان الناس مجتمعين متكاتفين مع مسلم بن عقيل بداية الأمر، لكن قسوة ابن زياد المفرطة في التعامل معهم، وخوف الكثير منهم من سطوته وتنكيله بهم، وحبسه للآلاف من الكوفيين الذين كانوا مستعدين للقتال مع الإمام الحسين عليه السلام، وقطعه الطرق بالمسالح؛ لمنع الناس من الخروج من الكوفة للالتحاق بمعسكر الإمام، فضلا عن أسباب أخرى، جعلتهم ينكصون عن نصرة الحسين عليه السلام ويغدرون به وبرسوله ذلك الغدر الذي آلمه كثيرا وأحزنه على هؤلاء الناس وعلى مصيرهم المأساوي الذي سيؤولون إليه مستقبلا؛ نتيجة موقفهم المتخاذل معه ومع رسوله وابن عمه مسلم بن عقيل.

٣. كان الإمام الحسين عليه السلام ومن معه من أهل بيته وأبناء عمومته وأصحابه يتوقّعون أخبارا سارّة ومطمْئِنة من الكوفة، وكانوا ينتظرون الأخبار من مسلم بن عقيل بفارغ الصبر، وكانت معنوياتهم عالية، وكانوا متحفّزين ولديهم دافعية كبيرة لمواصلة الطريق إلى الكوفة، وبدل أن تأتيهم الأخبار المفرحة التي تخبرهم باجتماع الناس على نصرة الحسين عليه السلام والقتال معه ونصرته على أعدائه إلى آخر قطرة دم فيهم كما كتبوا في آلاف الكتب التي أرسلوها للإمام، وإذا بالأخبار تكسر أفق التوقع عند الإمام ومن كان معه، وتكشف أمرا خطيرا جدا لم يكن متوقّعا؛ لذلك كانت الصدمة كبيرة للحسين ومن كان معه، وكانت أكبر لعائلة مسلم وآل عقيل الذين آلوا على أنفسهم إلا أن يأخذوا بثأر مسلم ممن قتله تلك القتلة البشعة وممن مثّل بجثّته.

إن مما يثير الانتباه في سيميائية هذا الحدث المؤلم والخطير أن الحسين عليه السلام لم يتردّد بالاستمرار في طريق التضحية والفداء، مع هذا الوضع الدراماتيكي، وهذه الحالة

(١) مقتل الحسين، ١٤٦.

القصوى من الخطورة عليه وعلى من كان معه، فقد استشعر من كان معه خطورة الموقف وحراجته، وهذا ما تمخّض مناشدةً صادقةً وحريصةً على الإمام من لدن عبد الله بن سليم والمنذر بن المشمعل الأسديين إذ قالا له: (ننشدك الله يا ابن رسول الله إلا انصرفت من مكانك هذا فإنه ليس لك بالكوفة ناصر)، فهما يناشدان الإمام بالله تعالى، ويؤكّدان عدم وجود الناصر له، إلا أنه لم يتزحزح ولم يَخَفْ مما ينتظره، بل كان مساندا، بإصرار وعزيمة وشجاعة نادرة، للموقف الشجاع والثابت لآل عقيل حينما قالوا: (لا نبرح حتى ندرك ثأرنا، أو نذوق ما ذاق أخونا)، فقد بيّنت (حتى) الغائية و(أو) التخييرية غايتهم التي يريدون، وهي أمر من أمرين، فأما إدراك الثأر للمظلوم مسلم بن عقيل، أو أن يذوقوا الموت كما ذاقه، وهما خياران صعبان، مع قلّة عددهم وخذلان ناصريهم، وخطورة الأوضاع وحراجتها، وهنا يأتي دور القائد الرسالي والمصلح الربّاني الذي لا تزعزعه أحلك الظروف وأشدّ المواقف وأخطرها، ولا يعرف الخوف طريقا إلى معجم حياته المشحون بمفردات البطولة والشجاعة والعنفوان والقوّة والإباء، لذلك تقول الرواية التاريخية: (فنظر إليهم الحسين عليه السلام، وقال: لا خير في العيش بعد هؤلاء). وهنا أراني أقف محاكيا جملة: (فنظر إليهم الحسين)، محاولا اكتشاف الإشارات التي تبعثها عينا الحسين عليه السلام عن طريق هذه النظرة الحسينية، متسائلا:

هل هذه النظرة نظرة عطف عليهم؟

أوهي نظرة حزن وألم لما حلّ بهم؟

أو نظرة تأمل للموقف الذي وُضِعوا فيه؟

أو هي نظرة تبعث الأمل، والقوّة، والشجاعة، والعزم فيهم، وتعطيهم دافعية

كبيرة في الإقدام بشجاعة على الخيارين اللذين ذكروهما في كلامهم، وهما الثأر لمسلم، أو القتل كما قُتل؟

إنها نظرة تبعث الأمل، والقوّة، والشجاعة، والعزم فيهم، وتبيّن لهم أنهم ليسوا الوحيدين الذين يريدون ما يريدون، كما أظهر الانزياح الأسلوبي في هذه الجملة، والمتمظهر عن طريق تقديم الجار والمجرور (إليهم)على الفاعل (الحسين) عنايته واهتمامه وتخصيص نظرته بهم وتفكيره في خيارَيْهم، ولتحقيق أحد هذين الخيارين قال الحسين: (« **لا خير في العيش بعد هؤلاء** »)، مبيّنا إقدامه على مقتله مع آل عقيل؛ لتحقيق ما يسعون إليه، مساندا لهم، مضحّيا بروحه؛ من أجل تحقيق أهدافه التي يريد، وهذا ما أظهرته الجملة المصدّرة بالنفي ب (لا) النافية للجنس، إذ أشارت إلى عدم وجود أي جنس للخير في الحياة صغيرا كان أو كبيرا بعد استشهاد مسلم بن عقيل وهاني بن عروة،وإذا أردنا إنعام النظر في معنى المعنى بتعبير عبد القاهر الجرجاني لهذه الجملة، أو بيان نسقها الضامر بتعبير النقد الثقافي فإن (لا خير في العيش) قد تساوي:

(الخير في القتل)

أو: (الخير في الموت)

أو: (الخير في الشهادة)؛ تحقيقا للأهداف الرسالية الكبرى، ودفاعا عن الدين والعقيدة التي يريد يزيد وأتباعه تغييرها وتشويهها بما يتطابق مع مصالحهم الدنيوية الفاسدة، ومن ثم فإن الجملة تشير سيميائيا إلى إقدام الإمام الحسين عليه السلام على الذهاب إلى الكوفة مع الخطورة الكبيرة للأوضاع، وإلى إقدامه على مقتله مع من كان معه، ومنهم آل عقيل، وعدم تردّده وخوفه من القتل، فلا خير في العيش بعد مسلم

وهاني، كما يقول عليه السلام، ولا قيمة للدنيا وللعيش فيها من دون تحقيق ما يهدف إليه الإنسان، ولا قيمة للحياة بعد مقتل الأحباب والناس الرساليين الذين يطمحون إلى التغيير نحو الأفضل، فالدنيا تغدو موحشة بعدهم، وهذه نظرة حسينية بعيدة المدى وكثيرة المعاني يمكن للإنسان التأمل الدقيق فيها؛ لاستكناه معانيها وإشاراتها التي تبعثها على مرّ الزمان.

وصول خبر مقتل عبد الله بن يقطر

يستمر مسلسل القتل حاصدا رسل الإمام الحسين عليه السلام وأتباعه ومريديه ومؤيّدي نهضته، ففي "زُبالة أُخبر بقتل عبد الله بن يقطر، الذي أرسله الحسين من الطريق إلى مسلم بن عقيل، فقبض عليه الحصين بن نمير في القادسية، وسرحه إلى عبيد الله بن زياد، فأمره أن يصعد المنبر، ويلعن الكذاب ابن الكذاب، ولما أشرف على الناس قال: أيها الناس أنا رسول الحسين ابن فاطمة لتنصروه وتؤازروه على ابن مرجانة، فأمر به عبيد الله فأُلقي من فوق القصر، فتكسّرت عظامه، وبقي به رمق، فأتاه رجل يقال له عبد الملك بن عمير اللخمي فذبحه"(١). إن سيميائية هذا الحدث الدامي تبعث عدة إشارات للمتلقي، الأولى: بشاعة أعداء الحسين عليه السلام وقسوتهم المفرطة، وتلذّذهم بسفك دماء الأبرياء بطرق قاسية جدا، فهم لا يخافون الله وليس لديهم أي حرمة للبشر، والثانية: الشجاعة النادرة لأصحاب الإمام الحسين عليه السلام وأتباعه، فقد نهلوا هذه الشجاعة وهذه القدرة على مواجهة أحلك الظروف من نمير الشجاعة الفيّاض، من الحسين بن علي عليهما السلام، لذلك نجد هذا الموقف النادر والشجاع من رسول الحسين عبد

---

(١) مقتل الحسين، ١٨٤ – ١٨٥.

الله بن يقطر، إذ من المتوقع من إنسان يواجه هذا الموقف المصيري والشديد أن يداهن عدوّه؛ خوفا على حياته، أو يستعمل التقيّة ويسبّ لكن لا يتبرأ، ولو فعل هذا لما لامَهُ أحد على فعله، لكن أن يستثمر هذا الموقف الشديد والقاسي؛ ليعرّف بنفسه بوساطة الجملة الخبرية: (أنا رسول الحسين ابن فاطمة)، وليحفّز الناس على نصرة الحسين عليه السلام في قوله: (لتنصروه وتؤازروه)، وليفضح عبيد الله بن زياد بعدم نسبته لأبيه، بل لأمّه في قوله: (على ابن مرجانة)، فهذا ما حقّق المفاجأة الكبرى التي فاجأت الحاضرين، واستفزّت ابن زياد، فأقدم على قتله تلك القتلة الساديّة. إن هذا الفعل البطولي النادر يشير إلى عدم اكتراث ابن يقطر بقتله، وعدم خوفه مما أقدم عليه من فعل كان قاصدا له دون أيّ وجل من نهايته المتوقّعة، فأمام الأهداف الرسالية الكبرى وأمام السعي إلى الإصلاح تهون النفوس، وترخص الأرواح، ويصبح الموت أمرا يتمنّاه الإنسان المؤمن ولا يهرب منه، بل يقْدم عليه بكل شجاعة وإباء، محطّما حواجز الخوف الكثيرة التي تمنعه من أداء واجبه المناط به، فكيف إذا كان الواجب مناطا من الإمام المعصوم، من سبط النبي صلى الله عليه وآله.

الإشارة الثالثة التي يبعثها هذا الحدث تمظهرت في الرد المفحم من لدن عبد الله بن يقطر على ادعاء ابن زياد واتهامه للحسين بأنه كذاب ابن كذاب، حينما أمره (أن يصعد المنبر ويلعن الكذاب ابن الكذاب) كما ورد في الرواية، فما كان من ابن يقطر إلا أن يدافع عن الحسين عليه السلام، ويدعوهم لنصرته، ويعرّض بعبيد الله بن زياد، ويفضحه ويفضح أصله وانتماءه، فهو من المشكوكين نسبا إلى أبيه الذي هو الآخر لا يُعرف له أب، فسمي بزياد بن أبيه، وادّعاه أكثر من رجل. لقد ردّ هذا الرجل الشجاع اتهام ابن زياد للحسين وأبيه علي بن أبي طالب عليهما السلام ردّا صاعقا وفيه إشارات إلى أن الكذاب

ابن الكذاب ليس الحسين وأباه، إنما الكذاب ابن الكذاب واللقيط ابن اللقيط هو عبيد الله بن زياد وأبوه زياد بن أبيه،

فأين الثرى من الثريا؟

وأيـن أبنـاء النسـب العـالي والـشرف السـامق وأبنـاء الأنبيـــاء والأولياء مـن أبناء السـفاح والحرام؟

وأين ابن فاطمة الزهراء من ابن مرجانة؟

ولعلّ هذا الأمر جعل ابن يقطر ينسب الإمام الحسين عليه السلام إلى أمّه الزهراء عليها السلام، وينسب ابن زياد إلى أمّه مرجانة، فقد أراد أن يبيّن الفرق بين النَّسَبين، ويظهر الفرق الكبير والبَون الشاسع بين الحسين عليه السلام وابن زياد، وفيما يبدو لي أن ابن زياد فَهِم هذه الإشارات الدقيقة والرموز الفاضحة التي بعثتها كلمات عبد الله بن يقطر، وأمام هذه الفضيحة الكبرى أمام الملأ، ومن على منبر قصر الإمارة، لم يتمالك ابن زياد أعصابه، ولم يردّ على كلام ابن يقطر بكلام، بل ردّ بأن أمر برميِهِ من أعلى القصر، وهي قتلة لئيمة قاسية تشير إلى حقد ابن زياد وغضبه الشديد على هذا الرجل بحيث أمر بقتله هذه القتلة البشعة التي تلقّاها بصدر رحب ونفس مطمئنّة، بعد أن أوصل رسالة الإمام إلى أهل الكوفة، ومن على منبر قصر الإمارة، وبعد أن فضح ابن زياد، وسعى إلى المقارنة بينه وبين الإمام الحسين عليه السلام بإشارات لغوية مقتضبة ودقيقة؛ ليوصل رسالة دقيقة إلى الكوفيين من أنصار ابن زياد ومن كان معهم بأن وقوفهم مع هذا الرجل المطعون نسبا وانتماءً ضد الإمام الحسين بن علي وفاطمة وسبط النبي أمر خاطئ، وعليهم مراجعة أنفسهم وموقفهم الذي سيؤدي إلى عواقب خطيرة جدا.

حينما وصل خبر مقتل عبد الله بن يقطر إلى الحسين عليه السلام، أخرج كتابا إلى الناس وقرأه عليهم قائلا:

"« **أما بعد، فقد أتانا خبر فظيع، قتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة وعبد الله بن يقطر، وقد خذَلَنا شيعتنا، فمن أحبّ منكم الانصراف فلينصرف غير حرج ليس عليه ذمام** ». فتفرّق الناس عنه، وأخذوا يمينا وشمالا، حتى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه من المدينة، ونفر يسير ممن انضووا إليه، وإنما فعل ذلك؛ لأنه عليه السلام علم أن الأعراب الذين اتّبعوه، إنما اتّبعوه، وهم يظنون أنه يأتي بلدا قد استقامت له طاعة أهله، فكَرِهَ أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون على ما يقدمون"[١]، "وقد علم أنه إذا أذن لهم بالانصراف لم يصحبه إلا من يريد مواساته على الموت"[٢].

إن هذا الحدث لطالما شدّني وأثار انتباهي واهتمامي؛ لأنه يشير إلى أمور مهمة، ومواقف نبيلة، وأهداف مدروسة بعناية، ومختارة بدقة، يمكن عرضها بنقاط، وهي كما يأتي:

١. لما علم الحسين عليه السلام حراجة الموقف، وصعوبة الوضع السياسي والعسكري بعد مقتل مسلم بن عقيل، وهاني بن عروة، وعبد الله بن يقطر، أعلم الناس بحقيقة الأوضاع وخطورتها، وهو بفعله هذا يكسر أفق التوقع عند المتلقّين لفعله هذا زمانئذٍ وفي كل زمان؛ لأن من عادة القادة ألا يخبروا أتباعهم بهكذا أخبار تكسر معنوياتهم وتؤدي إلى ضعفهم وانكسار نفسياتهم، إلا أن أخلاق الإمام الحسين عليه السلام ونبله أدّى به إلى هذا الفعل الذي ندَر مثيله على امتداد تاريخ الإنسانية الطويل، فبدل أن يستعمل المواربة والتدليس معهم؛ لكي يبقيهم معه، نراه يخبرهم بحقيقة الأوضاع وخطورتها؛

---

(١) الإرشاد، الشيخ المفيد، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٩ – ٢٠٠٨، ٢١٢.

(٢) مقتل الحسين، ١٨٥.

لأنه علم (أن الأعراب الذين اتبعوه، إنما اتبعوه، وهم يظنّون أنه يأتي بلدا قد استقامت له طاعة أهله، فكَرِهَ أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون على ما يقدمون)، فأعلمهم بقتل مسلم وهاني وابن يقطر، وبعد علمهم بهذه الأحداث الخطيرة تفرّق عنه الكثير منهم يمينا وشمالا.

٢. حينما أعلمهم الحسين عليه السلام بحقيقة الأوضاع وخطورتها، كان من المتوقع منه أن يطلب منهم البقاء معه والقتال بين يديه ونصرته على أعدائه المارقين، إلا أنه يفاجئهم ويفاجئنا مرة ثانية بأن أَذِنَ لهم بالانصراف قائلا: (« **فمن أحبّ منكم الانصراف فلينصرف غير حرج ليس عليه ذمام** »)، وكان بإمكانه وهو الإمام المعصوم المفترض الطاعة أن يأمرهم بالبقاء معه، فإن أطاعوه فهو خير لهم ونعمة، وإن لم يطيعوه فقد خالفوا أمر المعصوم واستحقّوا العذاب والخزي، إلا أن نبله وحرصه على أن من يبقى معه يجب أن يعرف الحقيقة، ويكون مستعدا للقتال بين يديه والقتل معه، أدّى به إلى أن يأذن لهم هذا الإذن الشرعي الصادر عن المعصوم، ومن ثم فقد أسقط عنهم التكليف الشرعي الواجب عليهم، وهو نصرته؛ كونه إماما معصوما، وسمح لهم بالانصراف بحوار حضاري يفهم الآخر ويراعي ظرفه، ويبيّن له الحقيقة من دون تزييف، ويعفيه من أي حرج قد يصيبه جرّاء هذا الموقف الصعب، وهذا ما ظهر في قوله: (« **فمن أحبّ منكم الانصراف فلينصرف غير حرج ليس عليه ذمام** »)، وحينما تفرّقوا عنه يمينا وشمالا لم يندم على فعله وإذنه لهم بالانصراف، ولم يغضب عليهم بأن وصفهم بالجبناء والمتخاذلين، كما يفعل غيره من القادة، ولم يُسْمعهم كلاما فاضِحا لهم؛ بسبب خذلانهم وعدم نصرتهم له، بل تقبّل الموضوع بهدوء وأريحية وصبر ومطاوعة، وهذه صفة القادة العظماء الذين يندر مثيلهم.

٣. لقد أراد الإمام الحسين عليه السلام من إعلامِه الناس بخطورة الأوضاع، ومن إذنه لهم بالانصراف أن يختبر من كان خارجا معه إلى العراق، وأن يميّز بين من جاء للحصول على الغنائم، ومن جاء ليقاتل مع الإمام المعصوم ويعرف منزلته، ويعرف تكليفه الشرعي تجاهه، فهناك أناس تبعوه بعد خروجه من مكة وفي أثناء طريقه إلى العراق؛ طمعا في الحصول على الغنائم، ومن أجل أهداف دنيوية، وهم لا يعرفون بدقّة أهداف نهضته ومبادئها التي خرج من أجلها، ومن الطبيعي أن أناسا بهذه الصفات سيجلبون الضرر للنهضة الحسينية وأهدافها بدل أن يجلبوا النفع، فهم لا يمتلكون بعدا دينيا وعقائديا ورساليا واضحا، كما يمتلكه أصحاب الحسين عليه السلام الذين خرجوا معه من المدينة ومكة، لذلك كان الحسين عليه السلام واعيا لهذا الأمر ومدى خطورته، فأراد أن يميّز بين من كان معه، ويختبرهم اختبارا حقيقيا وصعبا، ففشل أناس في هذا الاختبار، ونجح أناس وبقوا وثبتوا مع الإمام الحسين عليه السلام، وقاتلوا معه إلى آخر قطرة من دمائهم.

٤. كان الإمام الحسين عليه السلام واضحا جدا مع الجميع، ولم يلجأ إلى الخداع والوعود الكاذبة، كما يفعل الكثير من القادة، فهو لم يعدهم بالأموال الطائلة والقصور الفارهة والامتيازات الكبيرة والمناصب إن انتصر على أعدائه وحقّق ما يصبو إليه، بل وعدهم على خلاف المألوف والمتوقّع بالموت في أكثر من موقف، وأراد أن يميّز من خرج معه للموت في سبيل الله، ونصرةً له، وإيمانا بمبادئ نهضته وأهدافها ممن خرج من أجل مكاسب دنيوية لا قيمة لها في معجم النهضة الحسينية، لذلك أذن للناس بالانصراف (وقد علم أنه إذا أذن لهم بالانصراف لم يصحبه إلا من يريد مواساته على الموت)، وفعلا تحقق ما علمه الإمام فانصرف من انصرف من الناس النفعيين، وبقي من بقي من الناس

الرساليين الذين لم يتردّدوا في إقبالهم على الموت مع الحسين عليه السلام، وكانوا فرحين ومستبشرين بهذه النهاية التي خلّدتهم مع إمامهم الحسين عليه السلام.

ما أراني إلا مقتولا

غادر الحسين عليه السلام زُبالة متجها إلى بطن العقبة، وحينما وصلها نزل فيها وقال لأصحابه:

"« **ما أراني إلا مقتولا، فإنّي رأيت في المنام كلابا تنهشني، وأشدّها عليَّ كلب أبقع** »"[١]. ولقيه "شيخ من بني عكرمة يقال له عمرو بن لوذان، فسأله:

أين تريد؟

فقال له الحسين عليه السلام: « **الكوفة** ».

فقال الشيخ: أنشدك الله لما انصرفت، فو الله ما تقدِم إلا على الأسنّة وحدّ السيوف، وإن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤونة القتال، ووطؤوا لك الأشياء فقدمت عليهم، كان ذلك رأيا، فأما على هذه الحال التي تذكر فإني لا أرى لك أن تفعل.

فقال له: « **يا عبد الله ليس يخفى عليّ الرأي، ولكنّ الله تعالى لا يغلب على أمره، ثم قال: والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا ذلك سلّط الله عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذل فرق الأمم** »"[٢]. إن الحسين عليه السلام يؤكّد مقتله عن طريق توظيف النفي ب (ما) والاستثناء ب (إلا)؛ ليحصر المعنى ويؤكّد حصول حدث قتله لا محالة، ثم يعطي سببا من أسباب تأكيد مقتله، وهو الرؤيا التي

(١) مقتل الحسين، ١٨٥.

(٢) الإرشاد، ٢١٢ – ٢١٣.

رآها، والتي يؤكّدها بوساطة (إن) الحرف المشبّه بالفعل الذي يفيد التوكيد في قوله: (« **فإني رأيت في المنام...** »)، إذ تشير هذه الرؤيا إلى شراسة أعدائه ووحشيّتهم وسعيهم إلى قتله بكل طريقة، فقد رآهم على شكل كلاب شرسة تنهش لحمه بقسوة ووحشيّة، وأقساها وأشرسها وأشدّها جرأة عليه ذلك الكلب الأبقع الذي يشير إلى قاتل الحسين عليه السلام الشمر بن ذي الجوشن الذي تميّز بأنه أبقع، وكان أجرأ الأعداء وأشدّهم وأشرسهم وأقساهم على الإمام الحسين عليه السلام، فهو الوحيد الذي تجرّأ على حزّ رأسه الشريف.

إن هذا الاستباق الزمني والاستشراف المستقبلي المؤكّد واليقيني من لدن الإمام المعصوم يؤشّر إلى حراجة الموقف وشدّته عليه وعلى من كان معه، فضلا عن أن صعوبة الظروف وخطورتها دفعت عمرو بن لوذان إلى أن يشير عليه وينصحه بالرجوع إلى المدينة، كما أشار عليه كثيرون قبله، وقد وظّف في مناشدته للإمام القسم بلفظ الجلالة، والتوكيد ب (إن)؛ ليؤكّد له خطورة الوضع في الكوفة، إلا أن الحسين عليه السلام يجيبه بهدوء تام: (« **يا عبد الله ليس يخفى عليّ الرأي ولكن الله تعالى لا يغلب على أمره** »)، نافيا بوساطة (ليس) غياب هذا الرأي عنه وأن بإمكانه أن يفعله ويرجع إلى المدينة، إلا أن لله أمرا لا يغلب عليه ولا بد من تحقيقه، وهو شهادته المدويّة المتفجّرة بالدم وبقِيَم التضحية والبطولة؛ إحياءً لدين المصطفى صلى الله عليه وآله، ولأمّته التي كادت تفقد دينها وعقيدتها لولا تضحية الحسين عليه السلام وشهادته المتفجّرة بالدم التي أجهضت مخططات الساعين إلى تغيير هذا الدين وتحريفه؛ لذلك نراه عليه السلام مطمئنا هادئا غير مكترث بقتله؛ لأنه يعلم أنه يسير على وفق إرادة ربّه ووفق أمره الذي قدّره له، والذي أخبره به جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله في أكثر من مورد. ثم يؤكّد أبو عبد

الله في قوله: (« **والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي** ») سعي بني أمية وأتباعهم إلى تحقيق غايتهم التي أظهرتها (حتى) الغائية، وأكّدها القسم، وهي قتله قتلة قاسية تحكي حقدهم ولؤمهم وتعطّشهم لسفك دمه وتمزيق جسده بساديّتهم التي عُرِفوا واشتهروا بها، ولعلّه يتوقّع في قوله: (« **حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي** ») إخراج قلبه من جسمه بعد قتله؛ تنكيلا به ومبالغة في القسوة عليه، كما فعلت ممثّلة الأمويين وأمّهم هند بالحمزة عليه السلام بعد مقتله في معركة أحد. ثم يستشرف عليه السلام مستقبلهم ونهايتهم السريعة إذا أقدموا على قتله بوساطة الجملة الشرطية (« **فإذا فعلوا سلّط الله عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذل فرق الأمم** ») المبدوءة ب (إذا) التي تحمل معنى الشرط، وجملة الشرط (فعلوا) وقتلوه، فإن النتيجة ستكون ما ظهر في جملة جواب الشرط (« **سلّط الله عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذل فرق الأمم** »)، وقد تحقّق توقّع الإمام، وسلّط الله عليهم من ذلّهم وأخذ بثأر الحسين عليه السلام منهم، فكانوا من أذل الأمم، وأقصر الدول عمرا.

لقاء الحسين عليه السلام بالحر الرياحي

في شَراف التقى الحسين عليه السلام بالحر بن يزيد الرياحي ومعه ألف فارس، وقد جاؤوا؛ ليحاصروه ويدخلوه الكوفة عنوةً على ابن زياد، إذ يقول الحر للحسين بعد أن سمعه يتحدث عن الكتب التي بعثها أهل الكوفة له:

"ما أدري ما هذه الكتب التي تذكرها. فأمر الحسين عليه السلام عقبة بن سمعان فأخرج خرجين مملوءين كتبا.

قال الحر: إني لست من هؤلاء، وإني أمرتُ ألا أفارقك إذا لقيتك حتى أقدمك الكوفة

على ابن زياد.

فقال الحسين: «**الموت أدنى إليك من ذلك. وأمر أصحابه بالركوب، وركبت النساء، فحال بينهم وبين الانصراف، فقال الحسين عليه السلام للحر: ثكلتك أمّك. ما تريد منا؟**»

قال الحر: أما لو غيرك من العرب يقولها لي، وهو على مثل هذه الحال ما تركت ذكر أمّه بالثكل كائنا من كان! والله ما لي إلى ذكر أمّك من سبيل إلا بأحسن ما تقدر عليه، ولكن خذ طريقا نصفا بيننا، لا يدخلك الكوفة ولا يردّك إلى المدينة؛ حتى أكتب إلى ابن زياد، فلعل الله أن يرزقني العافية ولا يبتليني بشيء من أمرك.

ثم قال للحسين: إني أذكرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلتَ لتُقتَلَن.

فقال الحسين: «**أ فبالموت تخوّفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟**» وسأقول ما قال أخو الأوس لابن عمّه، وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله:

سأمضي وما بالموت عارٌ على الفتى ... إذا ما نوى حقّاً وجاهد مسلما

وواسى الرجال الصالحين بنفسه ... وفارقَ مثبورا وخالف مجرما

فإن عشتُ لم أندم وإن متُّ لم أُلَمْ ... كفى بك ذلا أن تعيش وتُرغما

فلما سمع الحر هذا منه تنحّى عنه، فكان الحسين يسير بأصحابه في ناحية، والحر ومن معه في ناحية"[١].

يبعث النص المتقدّم عدّة إشارات، منها طبيعة شخصية الحر الرياحي غير الخبيثة وغير الشريرة، فهو لم يحمل في قلبه حقدا على الإمام الحسين عليه السلام، بل كلّ ما

(١) مقتل الحسين، ١٨٩. وينظر: الإرشاد ٢١٤ – ٢١٥.

فعله أنه كان ينفّذ الأوامر العسكرية؛ كونه قائدا عسكريا مأمورا بإدخال الحسين عليه السلام ومن معه إلى الكوفة، وحينما وضح له الأمر، وبان غدر الناس بالحسين عليه السلام ونكوصهم عنه، التجأ إلى الحل الوسطي بأن يأخذ الحسين عليه السلام طريقا وسطا لا يدخله الكوفة ولا يرجعه إلى المدينة؛ حتى يكتب لابن زياد ويأتيه الجواب منه؛ ليرى ما يفعل، مع أنه كان بإمكانه تنفيذ أمر ابن زياد مباشرة وإدخال الحسين عليه السلام إلى الكوفة عنوةً، من دون الرجوع إليه، لكنه كان يرجو من الله ألا يبتلى بشيء من أمر الحسين عليه السلام، وهذا ما ظهر في قوله: (فلعل الله أن يرزقني العافية ولا يبتليني بشيء من أمرك)، فقد عبّر الحرف المشبه بالفعل (لعل) الذي يفيد الترجي، و (لا) النافية عن رجائه وطلبه من الله تعالى أن لا يبتليه بإلحاق أي أذى بالحسين عليه السلام، حتى لو كان بسيطا، وهذا ما أشار إليه قوله (بشيء).

من الإشارات التي يبعثها حوار الحر مع أبي عبد الله، أن قلبَ الحر رقّ للحسين عليه السلام بعد أن عرف حقيقة الأوضاع وخطورتها على الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، وهو يعلم منزلة الحسين عليه السلام، ويعلم عظمة شخصيته ولا سيما فيما ظهر من موقفه النبيل حينما سقاه هو والألف فارس الذين جاؤوا معه؛ ليحاصروا الإمام ويقدموه إلى الكوفة بالإكراه، وكادوا يموتون عطشا في تلك الصحراء وفي ذلك الهجير، فما كان من سبط النبي إلا أن ينقذهم من الموت المحقّق ويأمر فتيانه بأن يسقوهم الماء ويرشّفوا خيولهم، مع ندرة الماء وحاجة الحسين عليه السلام الماسّة له[١]، ومع الخطر الكبير والتهديد الواضح الذي يحمله الحر وعسكره للحسين وأتباعه، لذلك نجد هذه الحالة من رقّة القلب والحرص على عدم تعرّض الإمام للقتل قد ظهرت في كلامه بشكل

---

(١) ينظر: الإرشاد، ٢١٣.

واضح، وهي تعبّر عن حالته النفسية التي كان عليها، وعن موقفه تجاه الإمام، إذ يقول: (إني أذكرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلتَ لتُقتَلَن)، فهو يبدأ كلامه بالتوكيد ب (إنّ) مذكّرا الحسين عليه السلام بالله أن يرأف بنفسه، ثم يوظّف (إنّ) التوكيدية مرة ثانية، والفعل المضارع (أشهد) واللام الموطئة للقسم، و(إن) الشرطية الجازمة، وجملة الشرط (قاتلت)، وجملة جواب الشرط المكوّنة من اللام الواقعة في جواب القسم، والفعل المضارع المؤكد بنون التوكيد الثقيلة. لقد حشد الحر في حواره مع الحسين عليه السلام عددا من التوكيدات بوساطة (إنّ) التي تكررت مرتين، والقسم، ونون التوكيد الثقيلة، ووظّف أسلوب الشرط مبيّنا أن الحسين عليه السلام إذا قاتل وتحقّق هذا الشرط، كانت النتيجة ما ظهر في جواب الشرط المؤكّد، وهي قتل الحسين عليه السلام على نحو التأكيد، وليس على نحو التوقّعات والإرهاصات للأحداث المستقبلية التي ستحدث في قابل أيام نهضته.

مع هذه التأكيدات كلّها من لدن الحر بن يزيد الرياحي على قتل الإمام، نجد الحسين عليه السلام غير مكترث بقتله، ولا خائف من موته، بل كان صلبا شجاعا مقداما لا يخاف من تأكيد الحر المشدّد على قتله إن قرر قتال بني أمية، فهو يجيبه بكل إباء وصبر ومطاوعة قائلا: («**أ فبالموت تخوّفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟** »)، موظّفا في كلامه همزة الاستفهام التي خرجت إلى معنيي الإنكار والتوبيخ، مبيّنا عدم خوفه من موته المحقّق، وإنكاره لأمر تخويفه من الموت، ثم يوظّف (هل) الاستفهامية التي خرجت إلى معنى النفي، فيكون المعنى: لا يعدو بكم الخطب والحدث القابل أن تقتلوني، فعملية قتلي متحقّقة ولا أشكّ فيها أبدا، ثم يؤكد قتله وعدم خوفه من الموت مرة أخرى عن طريق استشهاده بأبيات أخي الأوس التي استشهد بها في أكثر من موقف، وهي تبعث

إشارات واضحة للمتلقي على عزم الحسين عليه السلام على المضي في مشروع نهضته الإحيائي والتنويري، حتى وإن قتل ومات؛ لأن الموت لا يشكّل عارا على الإنسان المجاهد الطالب للحقّ والمحارب للباطل وأتباعه، ولا يشكّل عارا على الإنسان الرسالي الذي يسعى جاهدا لتحقيق أهدافه، مواسيا بعمله هذا الرجال الصالحين من الأمة بأعز ما يملك، بالنفس العزيزة، فإن انتصر وكُتب له الاستمرار بالحياة لم يندم على ما قام به من عمل جهادي في سبيل الله، وإن مات في معركة الحقّ ضد الباطل والخير ضد الشر والعز ضد الذل لا يلام؛ لأنه بذل غاية المجهود وضحّى بروحه؛ كي لا يعيش ذليلا مهانا، فما قيمة العيش بذلٍ وهوان؟ ومن ثم فإن الموت يكون أفضل من هذا العيش بكثير، فالحسين عليه السلام عزيز ومقدام وذو نفس أبية، ولا يمكن أن يقبل الذل، أو العيش في حياة الهوان؛ لذلك كان عليه السلام يبيّن هذا المعنى، ويرمز إليه في مواقف كثيرة، منها قوله لأخيه عمر حينما نصحه ببيعة يزيد بن معاوية:

"« **وإني لا أعطي الدنيّة من نفسي أبدا** »"[١]، وقوله لأخيه محمد بن الحنفية:

"« **يا أخي لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية** »"[٢]، وقوله لقيس بن الأشعث يوم عاشوراء:

"« **لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد** »"[٣]، وقوله في خطبته الثانية يوم عاشوراء:

"« **ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة، وهيهات منا**

(١) مقتل الحسين، ١٣٣.

(٢) مقتل الحسين، ١٣٤.

(٣) مقتل الحسين، ٢٣٩.

الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون... »"[١]. إن هذه المواقف البطولية والصلبة التي أبانتها كلمات أبيّ الضيم، أعطت ومازالت تعطي للبشرية دروسا في العزّة والمَنَعَة والإباء والصبر والقوّة والشجاعة، وتحمّل الصعاب، واسترخاص الروح والإقبال على الموت والشهادة في سبيل الله وتحقيق ما يريده المصلحون والأحرار والثوّار، وعدم الرضا بأيّ منقصة أو مثلبة أو أيّ نوع من الذل والصغّار وإهانة النفس وهوانها، وهي دروس غالية وثمينة لا تقدّر بثمن؛ لأن مدادها دم الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، وكاتِبها بدم الشهادة هو الإمام الحسين عليه السلام ومن استشهد معه، فما أغلاه من دم! وما أعظمه من كاتب.

وأيم الله ليقتلوني

حينما وصل الإمام الحسين عليه السلام إلى الرُهيمة "لقيه رجل من أهالي الكوفة، يقال له أبو هرم، فقال: يا ابن رسول الله ما الذي أخرجك عن حرم جدّك؟ فقال: « **يا أبا هرم إن بني أمية شتموا عرضي فصبرت، وأخذوا مالي فصبرت، وطلبوا دمي فهربت، وأيم الله ليقتلوني، فيلبسهم الله ذلا شاملا وسيفا قاطعا، ويسلط عليهم من يذلّهم** »"[٢]، فالسائل يسأل الإمام عن سبب خروجه من حرم جدّه المدينة المنورة وتوجّهه إلى الكوفة؛ لأنه يعلم خطورة الأوضاع وحال الناس التي هم عليها، والتي وضّحتها كلمات الفرزدق مع الحسين عليه السلام حينما لقيه في الصفاح[٣]، وكلمات بشر بن غالب حينما

---

(١) مقتل الحسين، ٢٤٤.

(٢) مقتل الحسين، ١٩٠.

(٣) ينظر: مقتل الحسين، ١٧٧.

لقيه في ذات عرق[١]، وكلمات ذلك الرجل الذي حاوره في الشُقوق[٢]، إلا أن أوضح حوار بيّن حال الناس ونكوصهم عن الإمام، هو ذلك الذي دار بين الإمام الحسين عليه السلام وعدد من أصحابه الذين تسللوا إليه من الكوفة، وهم نافع بن هلال، ومجمع بن عبد الله، وعمرو بن خالد، ودليلهم الطرماح بن عدي[٣]، فقد سألهم أبو عبد الله عن حال الناس قائلا:

"« **أخبروني خبر الناس خلفكم** »، فقال له مجمع بن عبد الله العائذي، وهو أحدهم: أما أشراف الناس فقد أُعظمت رشوتهم، ومُلئت غرائرهم، يستمال ودّهم، ويستخلص به نصيحتهم، فهم ألب واحد عليك، وأما سائر الناس بعدهم فإن قلوبهم تهوى إليك، وسيوفهم غدا مشهورة عليك"[٤].

مما تقدّم يظهر سبب استفسار أبي هرم من الحسين عليه السلام عن سبب خروجه؛ لأنه يعلم أنه سيقدم على مكان فيه خطورة كبيرة على حياته، وقد يسفك فيه دمه، ويقتل في أيّة ساعة، وفي أيّ منزل من منازل الطريق إلى العراق، فما كان من الإمام إلا أن يجيبه جوابا يوضح فيه ظلم بني أمية له، وتجاوزهم الوقح عليه، وعدم تردّدهم في قتله، وهم يعلمون أنه سبط النبي محمد صلى الله عليه وآله، فهم لم يراعوا نسبه وشرف انتمائه وعظمة شخصيته، بل كانوا يريدون إسكات صوت المعارضة السياسية التي كان يقودها بوعي وبصيرة، بكلّ طريقة، بل حتى بسفك دمه الشريف والسعي المحموم إلى قتله، حتى إن كان في بيت الله الحرام، وحتى إن كان في حرم جدّه في المدينة المنورة، فالأماكن كلّها

(١) ينظر: مقتل الحسين، ١٧٨.

(٢) ينظر: مقتل الحسين، ١٨٤.

(٣) ينظر: نفس المهموم، ١٩٢.

(٤) نفس المهموم، ١٩٣.

عندهم متساوية، سواء أكانت حراما أم حلالا، والأشهر كلّها عندهم متساوية أيضا، سواء أكانت أشهرا حلالا أم حراما، فقد أعمى حقدهم على الحسين عليه السلام بصرهم وبصيرتهم، وأصبحوا لا يكترثون بأيّ مقدّس من المقدّسات، وأي حرمة من الحرمات، حتى وإن كان خامس أهل الكساء، وسيد شباب أهل الجنة، وسبط النبي و...، وقد كان الحسين عليه السلام مدركا لهذه الحقيقة المرّة، وعالما بالتطورات الدراماتيكية للأحداث، ومتحرّكا بيقين راسخ إلى العراق، عالما بما سيفعله الأمويون الساعون إلى سفك دمه حينما قال لأبي هرم: (« **وطلبوا دمي** »)، وحينما أكّد له قتلهم إيّاه في قوله: (« **وأيم الله ليقتلوني** »)، موظّفا القسم، واللام الواقعة في جواب القسم؛ ليؤكّد قتلهم إياه، سواء أبقي في المدينة أم مكة أم خرج إلى العراق، إلا أنه مع ذلك كلّه لا يتراجع ولا ينكص، ولا يبحث عن مكان؛ ليلجأ إليه أو يواري نفسه فيه من أنظار أعدائه، كما نُصِحَ من قبل، بل يزداد إصرارا وعزيمة وقوة على مواصلة طريق الإصلاح والشهادة، حتى إن كانت النتيجة قتله، ثم يذكر عاقبتهم السيئة، ونهايتهم الذليلة إن قتلوه، فإن الله سيعاقبهم على فعلهم بأن يلبسهم لباس الذلّ الشامل، ويسلّط عليهم سيفا بتّارا يقطّعهم ويمزّقهم؛ عقابا لهم على جرائمهم الكثيرة التي اقترفوها بحقّ الإنسانية، ونكالا لهم على جريمتهم الأفظع والأكبر، وهي قتلهم الإمام الحسين عليه السلام ومن معه، وسبيهم لعائلته.

مقتل قيس بن مسهر الصيداوي

كان الحسين عليه السلام قد أرسل قيس بن مسهر الصيداوي، رسولا منه إلى أهل الكوفة، وقد قبض عليه الحصين بن نمير التميمي في القادسية، "ولما أراد أن يفتّشه، أخرج قيس الكتاب وخرقه، وجيء به إلى ابن زياد، فقال له:

لماذا خرقت الكتاب؟

قال: لئلا تطلع عليه، فأصر ابن زياد على أن يخبره بما فيه، فأبى قيس، فقال:

إذاً اصعد المنبر، وسبّ الحسين وأباه وأخاه، وإلا قطّعتك إربا، فصعد قيس المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي وآله، وأكثر من الترحّم على أمير المؤمنين والحسن والحسين، ولعن عبيد الله بن زياد وأباه وبني أمية، ثم قال:

أيها الناس أنا رسول الحسين إليكم، وقد خلفته في موضع كذا فأجيبوه، فأمر ابن زياد أن يرمى من أعلى القصر، فرمي وتكسرت عظامه ومات"[١]. إن هذا الموقف البطولي من لدن رسول الحسين عليه السلام قيس بن مسهر الصيداوي يذكرنا بالمواقف البطولية لمسلم بن عقيل، وهاني بن عروة، وعبد الله بن يقطر، وفيه شبه من موقف ابن يقطر وشجاعته ووقوفه البطولي بوجه ابن زياد. إن سيميائية هذا الحدث المثير، وهذا الموقف الشجاع لقيس بن مسهر الصيداوي يؤشر عدة إشارات يمكن إدراجها وتسليط الضوء عليها في نقاط، كما يأتي:

١. إخلاص أصحاب الحسين عليه السلام ووفاؤهم النادر الذي جعله عليه السلام يصفهم بكلمته التي قالها بحقّهم ليلة عاشوراء:

"«**فإني لا أعلم أصحابا أوفى ولا خيرا من أصحابي**»"[٢]، والتي أضحت وساما خالدا على صدورهم العامرة بالإيمان وحبّ الحسين عليه السلام على مدى الليالي وكرور الأيام، وكذلك وصفهم حينما سألته أخته زينب عليها السلام ليلة عاشوراء قائلة له:

---

(١) مقتل الحسين، ١٩٠ – ١٩١.

(٢) الإرشاد، ٢٢٠.

"« **هل استعلمت من أصحابك نيّاتهم، فإني أخشى أن يسلموك عند الوثبة. فقال لها: والله لقد بلوتهم، فما وجدتُ فيهم إلا الأشوس الأقعس، يستأنسون بالمنيّة دوني استئناس الطفل إلى محالب أمه** »"[(١)]. إن هذا الإخلاص والوفاء النادر تجسّد في موقف قيس بن مسهر الصيداوي، حينما وقف تلك الوقفة المشرفة، وأبى أن يسلّم كتاب الحسين عليه السلام إلى الحصين بن نمير، بل أخرجه ومزقه أمام ناظريه، من دون اضطراب أو وجل أو تراجع، وأبى أن يخبر ابن زياد بمضمونه، مع علمه بقسوته وإجرامه وعدم تردّده في قتله والتمثيل بجثّته، كما فعل بمسلم بن عقيل وهاني بن عروة وعبد الله بن يقطر، بل قال له بصلابة وصراحة ومن دون مواربة: إنه مزّقه لئلا يطلع عليه، ويكتشف بعض أسرار نهضة الحسين عليه السلام، وهو بفعله هذا حفظ أسرار القيادة وأسرار المواجهة التي كان يخطّط لها الإمام، ولم يفشِ بها إلى الأعداء؛ ليستغلّوها ضد الحسين عليه السلام وأتباعه ومريديه.

٢. العقيدة الثابتة والراسخة عند أصحاب الحسين عليه السلام التي جعلتهم يستشعرون أهمية الإمامة؛ كونها أصلا من أصول الدين لا يمكن التغاضي أو التنازل عنه لأيّ سبب كان، وتحت أي ظرف، حتى أدّت بهم هذه العقيدة إلى التضحية بأغلى ما يملك الإنسان، وهذا ما تجسّد في فعل قيس بن مسهر الصيداوي حينما أمره ابن زياد في قوله له: (إذاً اصعد المنبر، وسبّ الحسين وأباه وأخاه، وإلا قطّعتك إربا، فصعد قيس المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي وآله، وأكثر من الترحّم على أمير المؤمنين والحسن والحسين، ولعن عبيد الله بن زياد وأباه وبني أمية). إن هذا النص يشير إلى قوة عقيدة قيس بن مسهر، فهو بدل أن يسب الحسين وعليا والحسن، كما طلب منه ابن زياد؛

(١) مقتل الحسين، ٢٢٦.

ليخلّص نفسه من القتل المحتّم، ولو فعل ذلك وسبّ، وقلبه مطمئن بالإيمان، ومن دون البراءة منهم، لما دخل في الإشكال الشرعي أو العقدي، ولما حاسبه أو عاتبه أحد، أقول: بدل أن يسبّ أئمته وقادته الرساليين، نراه يبدأ كلامه برباطة جأش، وعقيدة راسخة بحمد الله تعالى والثناء عليه، مشيرا بذلك إلى الأصل الأول من أصول الدين، وهو التوحيد، ثم أشار إلى النبوة حينما صلى على النبي وآله، وأشار إلى الإمامة حينما ذكر الآل بعد ذكر النبي، وأكثر من الترحّم على علي والحسن والحسين عليهم السلام، ولعل ما يثير الانتباه في هذا الموقف أن الرواية قالت: (وأكثر من الترحّم على أمير المؤمنين والحسن والحسين)، فهو لم يترحّم عليهم مرة واحدة ويمضي في كلامه، بل أكثر من الترحّم عليهم؛ بيانا لعقيدته الثابتة بهم، وحبّه الكبير لهم، ونكاية بابن زياد ومن كان حاضرا معه في المجلس، ثم أشار في كلامه إلى فرع من فروع الدين، وهو البراءة من أعداء محمد وآل محمد ولعنهم، حينما لعن ابن زياد وأباه وبني أمية، وهو بفعله هذا يسجّل موقفا عقائديا وبطوليا وإنسانيا ندر مثيله.

٣. شجاعة أصحاب الحسين عليه السلام، ومنهم قيس بن مسهر الصيداوي، هذه الشجاعة النادرة، فضلا عن الإخلاص والوفاء والعقيدة الثابتة التي لا تزعزعها أشدّ الظروف حراجة وقساوة، جعلت من رسول الحسين عليه السلام يستثمر الموقف الشديد عليه استثمارا أمثلَ؛ من أجل أن يوصل رسالة قائده إلى أهل الكوفة، فاستثمر حدث قتله الذي يعلم أنه سيكون قاسيا ومؤلما ومروّعا من أجل تحقيق المهمة التي أناطها الإمام به، وهي استعلام أخبار أهل الكوفة وأوضاعهم، وإخبارهم بمقدمه عليهم، وحثّهم على الاستعداد للتوجّه إلى معسكره والقتال معه ضد أعدائه، وفعلا استثمر هذا الحدث المؤلم والقاسي، استثمر سفك دمه وقتله؛ ليقول لهم:

(أيها الناس أنا رسول الحسين إليكم، وقد خلفته في موضع كذا فأجيبوه)، مناديا إياهم ب (يا) النداء المحذوفة، إذ تقدير الكلام: يا أيها الناس، ومنبّها لهم بوساطة (ها) التي تفيد التنبيه، ومعرّفا لهم بنفسه بوساطة الجملة الخبرية: (أنا رسول الحسين إليكم)، مبيّنا لهم المكان الذي تركه فيه، طالبا منهم إجابته والخروج إليه بوساطة فعل الأمر (أجيبوه). إن هذا الحدث المؤثّر والبطولي، وهذا الاستثمار النادر للموت جعل ابن زياد يستشيط غيظا، ولا يتمالك السيطرة على أعصابه؛ لذلك نراه يأمر فورا بقتل ابن مسهر الصيداوي قتلة تنبئ عن غضبه الشديد وحقده على هذا البطل الأشوس الذي أرعبه وأهانه وسبّه وسبّ أباه وبني أمية في قصر الإمارة، وأوصل رسالة الحسين عليه السلام من مبنى السلطة الحاكمة الظالمة إلى أهل الكوفة.

٤. من إشارات هذا الحدث أنه يشير إلى غباء الظالمين وعدم استكناههم حقيقة الأمور، فهو يشير إلى غباء ابن زياد، إذ إنه لم يتّعظ ولم يتعلّم درسا مما حصل من موقف بطولي من لدن رسول الحسين عليه السلام الأسبق مسلم بن عقيل، ومن رسوله السابق عبد الله بن يقطر الذي قبض عليه، وطلب منه ما طلب، ولم يحصل على مراده، بل انقلب الموقف ضده، فكان الأولى به ألا يكرر الطلب عينه، ولا يورّط نفسه مع الرسول الحالي كما ورّط نفسه من قبل مع عبد الله بن يقطر، إلا أن غباءه واستهتاره وعدم تقديره الأمور، وعدم معرفته بطبيعة أصحاب الإمام الحسين عليه السلام وشجاعتهم النادرة وثباتهم البطولي على مبادئهم مع إمامهم، جعله يكرر الطلب من قيس بن مسهر الصيداوي، وأنّى لهكذا أناس فوضويين مجرمين كعبيد الله بن زياد أن يعرفوا ويفهموا حقيقة أناس مؤمنين رساليين ثابتين كالإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه؟ إنه لا يعلم مع أيّ رجال يتعامل؛ لذلك وقع فيما وقع فيه من مواقف محرجة مع رسل الحسين عليه السلام.

إني لأرجو أن يكون خيرا ما أراد اللّه بنا، قتلنا أم ظفرنا

في عَذيب الهجانات أقبل على الحسين عليه السلام أربعة أشخاص كانوا خارجين من الكوفة كما مرّ آنفا، وهم "عمرو بن خالد الصيداوي وسعد مولاه، ومجمع بن عبد الله المذحجي، ونافع بن هلال، ودليلهم الطرماح بن عدي الطائي"(١)، الذي كان ينشد أبياتا من الشعر، "فلما انتهوا إلى الحسين عليه السلام أنشدوه الأبيات، فقال عليه السلام:

« **أما والله إني لأرجو أن يكون خيرا ما أراد الله بنا، قتلنا أم ظفرنا** »"(٢). إن هذه الكلمة الصادرة من الإمام تحمل أكثر من معنى، على وجازتها، إذ بيّن عليه السلام أن ما أراده الله به هو خير محض، سواء قُتل أم انتصر في نهضته، إذ يؤكّد هذا الكلام بأكثر من مؤكد، فهو يوظّف القسم بلفظ الجلالة، و(إنّ) التي تفيد التوكيد، واللام الواقعة في جواب القسم (« **أما والله إني لأرجو** »)، مؤكّدا إرادة الله تعالى به الخير في الأحوال كلها، ومن ثم فإن هذه الجملة القليلة الكلمات الكبيرة المعاني تشير إلى حسن ظنه بالله عزّ شأنه، وإلى يقينه الكبير به سبحانه، وإلى ثقته الكبيرة بنفسه، فهو عليه السلام قائد رسالي محنّك يسعى إلى إدامة روح التحدي والقوّة والصبر والجهاد واليقين بخير ما أراده الله به وبأتباعه، كما أنه ينشر الطاقات الإيجابية في معسكره؛ ليعطيهم دافعية وقوّة على تحمل قابل الأحداث الجسام.

مما يثير المتلقي لهذا النص القصير أن الإمام الحسين عليه السلام قدّم ذكر القتل على الظفر فقال: (« **قتلنا أم ظفرنا** »)، ولم يقل: (ظفرنا أم قتلنا)، فهو عليه السلام يرسل رسالة عبر أثير الزمن، علينا أن نسعى إلى فك شيفراتها المهمة وفهمها، وهي عدم الخوف من الموت إن كان

---

(١) مقتل الحسين، ١٩١.

(٢) مقتل الحسين، ١٩١.

مقدّمة للتغيير والإصلاح وإحياء النفوس المريضة والميتة، لذلك فهو أفضل من الحياة على الذلّ، والسكوت عن الظالمين المستبدّين، ومن ثم فهو مقدّم على الحياة، ومقدّم على الظفر؛ لأنه سيكون أكثر تأثيرا في إصلاح المجتمع وتغييره نحو الأحسن، صحيح أن (أم) المعادلة في قوله عليه السلام: (« **قتلنا أم ظفرنا** ») جاءت؛ لتعادل كفتي القتل والظفر، ولتبيّن لنا أن كل ما أراده الله بالحسين عليه السلام خير سواء قتل واستشهد أم انتصر وظفر، لكن تقديم القتل على الظفر يشير سيميائيا إلى توقّع القتل من لدن الإمام، وإلى عدم اكتراثه أو خوفه منه، كما يشير إلى تفضيله على النصر؛ لما سيحقّقه من نتائج سريعة وكبيرة، فضلا عن أنه أُخبر من لدن جدّه صلى الله عليه وآله أن له درجات لا ينالها إلا بالشهادة؛ لذلك قدّم القتل على الظفر، مشيرا إلى هذه المعاني وغيرها.

لقاء الحسين بعبيد الله بن الحر الجعفي

غادر الحسين عليه السلام عَذيب الهجانات متوجّها إلى قصر بني مقاتل، فلما نزل بها رأى "فسطاطا مضروبا ورمحا مركوزا وفرسا واقفا، فسأل عنه، فقيل: هو لعبيد الله بن الحر الجعفي، فبعث إليه الحجاج بن مسروق الجعفي، فسأله ابن الحر عما وراءه، قال:

هدية إليك وكرامة إن قبلتها، هذا الحسين يدعوك إلى نصرته، فإن قاتلت بين يديه أجرت، وإن قُتلتَ استشهدت.

فقال ابن الحر: والله ما خرجت من الكوفة إلا لكثرة ما رأيته خارجا لمحاربته وخذلان شيعته، فعلمت أنه مقتول، ولا أقدر على نصره، ولست أحبّ أن يراني وأراه"[١]، وحين رجع الحجاج بن مسروق الجعفي وأخبر الحسين عليه السلام بما قاله عبيد الله بن الحر

(١) مقتل الحسين، ١٩٣ – ١٩٤.

الجعفي، ذهب إليه الإمام بنفسه ومعه جماعة من أهل بيته وأصحابه، وقال له:

"« **يا ابن الحر إن أهل مصركم كتبوا إلي أنهم مجتمعون على نصرتي، وسألوني القدوم عليهم، وليس الأمر على ما زعموا، وإن عليك ذنوبا كثيرة، فهل لك من توبة تمحو بها ذنوبك؟** »

قال: وما هي يا ابن رسول الله؟

فقال: « **تنصر ابن بنت نبيك وتقاتل معه** ».

فقال ابن الحر: والله إني لأعلم أن من شايعك كان السعيد في الآخرة، ولكن ما عسى أن أغني عنك، ولم أخلف لك بالكوفة ناصرا، فأنشدك الله أن تحملني على هذه الخطة؛ فإن نفسي لا تسمح بالموت..."[١].

كان الحسين عليه السلام يعرض على كل من يشاهده في طريقه إلى العراق الانضمام إلى جماعته والقتال معه؛ دفاعا عن بيضة الإسلام، ودفاعا عن الحقّ الذي يمثله ضد الباطل الذي يمثّله يزيد بن معاوية، ومن الذين عرض عليهم هذا العرض عبيد الله بن الحر الجعفي، حينما رأى فسطاطه في قصر بني مقاتل، فأرسل له الحجاج بن مسروق الجعفي، وهو من أبناء عمومته؛ ليكون التواصل والتفاهم بينهما أفضل. وبالتأمل في الحوار الذي دار بين الجعفيين، وبالتحليل السيميائي له، نرصد عدة إشارات، منها معرفة إيمان الحجاج بن مسروق الجعفي وعقيدته الراسخة بإمامه الحسين عليه السلام، حينما أخبر عبيد الله بن الحر الجعفي أن ما وراءه هدية وكرامة من الله ومن الإمام بشرط قبولها، وهذا ما عبّرت عنه الجملة

---

(١) مقتل الحسين، ١٩٤.

الشرطية التي حُذف جوابها؛ لدلالة ما قبله عليه: (« **إن قبلتها** »)، ثم قال له: (هذا الحسين يدعوك إلى نصرته، فإن قاتلت بين يديه أجرت، وإن قُتلتَ استشهدت)، عارضا عليه نصرة الإمام، مبيّنا عن طريق توظيف جملتين شرطيتين متتابعتين نوعي الجزاء الذي سيحصل عليه إن قاتل مع أبي عبد الله، فأما الأجر الكبير إن بقي على قيد الحياة، وأما الأجر الأكبر، وهو القتل شهيدا في سبيل الله تعالى.

الإشارة الثانية التي يبعثها الحوار هي عدم معرفة عبيد الله بن الحر الجعفي بمنزلة الإمام، وعدم رسوخ عقيدته وثبات إيمانه، على العكس من ابن عمه، لذلك لم يكن مستعدا للقتال أو القتل مع الحسين عليه السلام؛ لأنه كان خائفا من القتل، ولكثرة ما رآه من عسكر يخرج من الكوفة لقتال الحسين عليه السلام. أما الإشارة الثالثة فهي عدم قدرته على مواجهة الظروف الصعبة وعدم قدرته على نصرة الإمام، وهذا الأمر يشير إلى تخاذله وجبنه وتردّده وضعف شخصيته، وعدم قدرته على اتخاذ القرار الصائب في الوقت المناسب، لذلك كان عازما على عدم نصرته والقتال أو القتل معه؛ لأنه كان قارئا جيّدا للتطورات الدراماتيكية ولطبيعة الظروف المحيطة بالإمام الحسين عليه السلام، وكان متأكّدا من مقتله عليه السلام؛ لذلك خرج من الكوفة لكي لا يقاتل ضده أو معه، وهذا ما ظهر واضحا في كلامه: (والله ما خرجت من الكوفة إلا لكثرة ما رأيته خارجا لمحاربته وخذلان شيعته، فعلمت أنه مقتول، ولا أقدر على نصره، ولست أحب أن يراني وأراه)، فهو يؤكّد كلامه بالقسم، والحصر بالنفي والاستثناء، ويبيّن عن طريق توظيف الفعل الماضي الذي يشير إلى التحقق والثبوت (علمت)، مع أن فعل القتل لم يتحقق بعد، وتوظيف (أنّ) التوكيدية أن مقتل الحسين عليه السلام مؤكد ومتحقّق في قابل الأيام، ويخبر بعدم قدرته على نصرته بوساطة (لا) النافية، والفعل المضارع (أقدر)، وعدم حبّه

لأن يراه، عبر الفعل الماضي الناقص(ليس).

بعد هذا الموقف المتخاذل الذي يحمل عقوقا واضحا للإمام، وعدم معرفة واضحة بمنزلته، يفاجئنا أبو عبد الله بقلبه الرؤوم العطوف على الناس، فهو لم يترك عبيد الله بن الحر الجعفي وشأنه، بعد أن أخبره رسوله بما دار بينهما، بل مشى بنفسه إليه في جماعة من أهل بيته وصحبه؛ لينصحه ويردّه عن موقفه المتخاذل، ويدعوه إلى نصرته مرة ثانية، بعد أن دعاه في الأولى بوساطة رسوله، وهنا بودّي أن أقف على هذا الموقف الإنساني النبيل للإمام، فقد كان بإمكانه ترك هذا الرجل ومغادرة قصر بني مقاتل، ولا يكترث بموقفه ولا يأبه به ولا يعيره وقتا أو اهتماما، فما حاجته إلى رجل متردّد وخائف كهذا؟ وما قيمة هذا الرجل أمام الشجعان الذين جاؤوا مع إمامهم؟ ما قيمته أمام أبي الفضل العباس، وحبيب بن مظاهر و... إلخ؟ إلا أن الإمام الحسين عليه السلام أراد ألا يخسر هذا الرجل آخرته، وأراده أن يحصل على منزلة الشهادة مع المعصوم؛ لذلك ذهب بنفسه إليه مستصحبا معه مجموعة من الرجال؛ لكي يدعوه إلى نصرته، ويقيم الحجة عليه، ولكن أنى لرجل رعديد خائف كهذا أن يفهم هذه الرسالة الحسينية المليئة بالعطف والحنان عليه؟ نعم لم يفهمها ولم يستطع فك شيفراتها؛ لذلك قضى عمره ندما وحسرة وحزنا على موقفه هذا بعد استشهاد الحسين عليه السلام، وقد ترجم ندمه وحسراته وأحزانه هذه في أكثر من قصيدة، إذ يقول:

فيا لك حسرة ما دمتُ حيا	تردّدُ بين حلقي والتراقي
حسينٌ حين يطلب بذلَ نصري	على أهل الضلالة والنفاقِ
غداةَ يقول لي بالقصر قولا	أتتركنا وتزمعُ بالفراقِ
ولو أني أواسيه بنفسي	لنلتُ كرامةً يوم التلاقي

مع ابـن المصطفى نفسـي فـداهُ تولـــى ثـم ودّع بـانـطـلاقِ
فلو فلقَ التلهّفُ قلـــبَ حيٍ لَهَـمّ الـيـومَ قلبـي بـانـفـلاقِ
فـقـد فـاز الأولى نـصروا حسينا وخـاب الآخـرون إلى النفاقِ(١)

بعد أن مشى إليه الحسين عليه السلام حاوره حوارا حضاريا بهدوء، ولم يتخّذ منه موقفا سلبيا في قبال موقفه السلبي، بل ناداه بقوله: (يا ابن الحر)، ولعل الحسين عليه السلام كان قاصدا أن يناديه بهذا النداء، ناسبا إياه إلى أبيه الحر؛ لأن اسم (الحر) يشير من ضمن إشاراته إلى الرجل الحر الشجاع غير المتخاذل، لكن الرجل كعادته لم يلتقط هذه الإشارة الحسينية الدقيقة، ثم أخبره بأن أهل الكوفة كتبوا إليه يطالبونه بالقدوم إليهم، لكن الأمر تغيّر، ثم يؤكد له أن عليه ذنوبا كثيرة، ممهّدا له الطريق للحصول على توبة تمحو ذنوبه في قوله: (« **وإن عليك ذنوبا كثيرة، فهل لك من توبة تمحو بها ذنوبك؟** »).

إن الإمام الحسين عليه السلام يعرض عليه التوبة، على الرغم من ذنوبه الكثيرة، بحوار حضاري فيه حرص على توبته، واحتواء له، وسعي إلى هدايته إلى طريق الحقّ الذي قلّ سالكوه في ذلك الوقت، إذ يوظّف (هل) الاستفهامية التي خرجت إلى معنى العرض، وقد كان هذا العرض الحسيني سخيا جدا؛ لأن التوبة التي عرضها عليه توبة شاملة تمحو ذنوبه جميعا، ولا يبقى عليه ذنب، فلم يقل له مثلا: تمحو بعض ذنوبك، أو: تقلل من ذنوبك، كما أن تقديم الجار والمجرور (بها) على المفعول به (ذنوبك) أشار إلى معنيي الاختصاص، والعناية والاهتمام، فهي توبة من نوع خاص ومخصوصة به، ومهمة جدا لتغيير واقع النكوص والانهزام والتخاذل عند هذا الانسان إلى واقع مغاير تماما. إن هذا العرض الخاص والمهم والسخي، جعل عبيد الله بن الحر الجعفي يتساءل عن هذه التوبة

(١) أدب الطف أو شعراء الحسين عليه السلام، السيد جواد شبرّ،مؤسسة التاريخ، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م، ١/ ٩٦ – ٩٧.

المعروضة عليه من سبط النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، قائلا بلهفة تفصح عنها صيغة سؤاله: (وما هي يا ابن رسول الله؟)، فأجابه مباشرة: (« **تنصر ابن بنت نبيك وتقاتل معه** »)، فقد وظّف الفعلين المضارعين (تنصر) و(تقاتل)؛ ليشيرا إلى طلبه من هذا الرجل أن ينصره ويقاتل معه اليوم وغدا وبشكل مستمر لا تراجع ولا نكوص فيه، فما كان من الرجل إلا أن يفاجئه ويفاجئنا بجواب غير متوقّع لهذا العرض العظيم من هذا الإمام العظيم قائلا: (والله إني لأعلم أن من شايعك كان السعيد في الآخرة، ولكن ما عسى أن أغني عنك، ولم أخلف لك بالكوفة ناصرا، فأنشدك الله أن تحملني على هذه الخطة؛ فإن نفسي لا تسمح بالموت)، فهو يؤكد علمه بأن من كان في صفّه وقاتل معه كان فائزا وسعيدا في الآخرة، ويوظّف في توكيده لهذا الكلام عدّة مؤكدات هي القسم بلفظ الجلالة، و(إنّ) الحرف المشبه بالفعل الذي يفيد التوكيد، واللام الواقعة في جواب القسم، وقد كان متوقّعا لمن يسمع أو يقرأ هذه الجملة الخبرية التي حشد لها الرجل هذه التوكيدات المتتابعة أنه سيستجيب لطلب الإمام ويشكره على هذا العرض، إلا أن المفاجأة التي تكسر أفق التوقعات أنه يتردّد في نصرته وينكص ويتخاذل، موظّفا (لكن) التي أفادت معنى الاستدراك، ويتساءل بوساطة (ما) الاستفهامية عن أنه هل يفيده ويغني عنه في هذا الوضع الشائك، ثم يرجوه ويناشده الله تعالى أن لا يحمله على هذا الأمر الخطير؛ بسبب جبنه وخوفه من الموت الذي يؤكّده بوساطة (إنّ) قائلا: (فإن نفسي لا تسمح بالموت)، ففي هذه الجملة دلالة نفسية واضحة على أن هذه النفس الانهزامية الخائفة المتردّدة لا تمنحه القوّة والصبر والعزم على المضي مع الإمام الحسين عليه السلام ونصرته والقتال معه والقتل والشهادة بين يديه، بل تجعله جبانا خائفا من المضي مع الإمام في مشروعه التغييري الإصلاحي؛ لأنه علم، عبر قراءته للظروف المحيطة بالإمام

الحسين عليه السلام، أن النصر العسكري يصعب تحقيقه، وبناء على ذلك فإن انضمامه مع معسكر الحسين عليه السلام سيسبّب له الموت، وهو ما لا يريده؛ لذلك فرّ هاربا من الكوفة، وجاء إلى قصر بني مقاتل؛ ليكون بعيدا عن دائرة الأحداث. إن موقف عبيد الله بن الحر الجعفي يغاير تماما مواقف رسل الإمام الحسين عليه السلام التي سبق الحديث عنها، ويغاير مواقف أهل بيته وأصحابه الذين ثبتوا معه إلى آخر قطرة من دمائهم.

بعد كلامه هذا الذي عبّر عن موقفه البعيد عن الشجاعة والرجولة، يفاجئنا عبيد الله بن الحر الجعفي بموقف آخر، إذ يقول لأبي عبد الله عليه السلام: "ولكن فرسي هذه الملحقة، والله ما طلبت عليها شيئا قط إلا لحقته، ولا طلبني أحد وأنا عليها إلا سبقته، فخذها فهي لك.

قال الحسين: « **أما إذا رغبت بنفسك عنا فلا حاجة لنا في فرسك، ولا فيك، وما كنت متّخذ المضلّين عضدا، وإني أنصحك كما نصحتني إن استطعت أن لا تسمع صراخنا، ولا تشهد وقعتنا فافعل، فو الله لا يسمع واعيتنا أحد ولا ينصرنا إلا أكبّه الله في نار جهنم** »"[١]. إن تحليل هذا الحوار على وفق المسار السيكو نصي في التحليل السيميائي، والسعي إلى رصد آليات توليد الدلالات النفسية فيه، يظهر لنا النفس التي تعاني عقدة الفوبيا من الموت عند عبيد الله بن الحر الجعفي، ويظهر نتائج هذه العقدة من تردّد وانهزام وعدم مواجهة، ظهرت عن طريق هربه من الكوفة أولا، وبعدم استجابته لطلب الحسين عليه السلام ثانيا، وعدم فهمه لحقيقة الإمام المعصوم ثالثا، الذي تأسّس عليه عدم استجابته لعرضه الذي عرضه عليه رابعا. إن عدم الفهم هذا وعدم الوعي أدّى به إلى أن يعرض فرسه على الإمام الحسين عليه السلام، ولعله تصوّر أن الحسين

(١) مقتل الحسين، ١٩٤ – ١٩٥.

عليه السلام إنسان براغماتي يسعى إلى منافع شخصية، أو أنه يحتاج فرسا أو سيفا أو رمحا ليطلبه منه، ولم يفهم ولم يعِ أن نفسية هذا المصلح الكبير وهذا الإمام المضحّي بكل شيء من أجل الإصلاح، ليست كنفسيته الخائفة التي تعاني عقدة الفوبيا من الموت، وليست كنفسه الصغيرة التي تتصاغر أمام المهمات الرسالية الكبرى، وليست كنفسه البراغماتية التي تبغي المنفعة في كل فعل تفعله، فهناك فرق كبير بين النفسين وبين الشخصين. إن أبا عبد الله عليه السلام يريد رجالا أشدّاء مضحّين بكلّ شيء من أجل الدين والعقيدة، ولا يأبهون بالموت، ويقدّمون أرواحهم بسخاء ويقين، ولا يريد رجالا خائفين على حياتهم، ويحبّون الدنيا ويفضّلونها على الآخرة؛ لذلك كان جوابه دقيقا لعبيد الله بن الحر الجعفي، ويحمل عدّة معانٍ، إذ بدأه بقوله: (« **أما إذا رغبت بنفسك عنا فلا حاجة لنا في فرسك، ولا فيك** »)، إذ يبيّن له،عبر توظيف الجملة الشرطية المكوّنة من (إذا) الشرطية، وجملة الشرط وجوابه، أنه إذا بخل بنفسه ورغب بها عنه، فإنه لا حاجة له في فرسه ولا فيه، إذ نفى أيّ جنس أو نوع من الحاجة لهما بوساطة (لا) النافية للجنس، التي حُذف خبرها الذي يقدر بكلمة (موجودةٌ)، ثم وظّف واو العطف وكرّر (لا) النافية؛ لتوكيد النفي، فهو عليه السلام لا يحتاجه ولا يحتاج فرسه، فما قيمة الفرس أمام الموقف المبدئي والشجاع للرجال الرساليين؟، ثم بيّن له أنه لا يتخذ المضلّين مساعدين ومعاضدين له، عن طريق استشهاده بجزء من الآية الحادية والخمسين من سورة الكهف التي تبعث إشارة واضحة على أن هذا الرجل قد أصبح ضالا مضلا؛ بسبب موقفه من الإمام، ومن ثم فإن رجلا كهذا لا يمكن أن يتخذه معاونا ومعاضدا، فكيف بفرسه التي لا قيمة لها عنده.

بعد ذلك نصحه الإمام الحسين عليه السلام قائلا: (« **وإني أنصحك كما نصحتني. إن استطعت أن لا تسمع صراخنا، ولا تشهد وقعتنا فافعل، فو الله لا يسمع واعيتنا**

أحد ولا ينصرنا إلا أكبّه الله في نار جهنم »)، مؤكّدا له أنه سينصحه في قبال نصيحته، وشتّان بين نصيحة القادة الكبار الواعين لدورهم ولظرفهم، وبين نصيحة الصغار الخائفين الانهزاميين، فالإمام الحسين عليه السلام بقلبه الحنون ونفسه الكبيرة لم يؤنّب هذا الرجل، ولم يقل له مثلا: إنك جبان أو خائف أو انهزامي، بل نصحه نصيحة تنقذه من عذاب الآخرة في نار جهنم، نصحه أن لا يسمع أصواتهم في المعركة المرتقبة، ولا يشهد الواقعة، بل يبتعد ما أمكنه إلى ذلك سبيلا، فالحسين عليه السلام يقسم مؤكّدا أنه إذا سمعهم أو شاهدهم شخص ما ولم ينصرهم، فإن عاقبته ستكون سيئة، إذ سيكبّه الله تعالى على وجهه في نار جهنم، فأين هذه النصيحة من تلك؟!.

وإن قُتل الحسين، فأوطئ الخيل صدره وظهره

بعد أن أمّرَ عبيدُ الله بن زياد عمرَ بن سعد على الجيش الذي خرج لقتال الحسين عليه السلام، أرسل ابن سعد كتابا إلى ابن زياد يخبره زورا وكذبا أن الحسين عليه السلام يريد الرجوع إلى المكان الذي جاء منه، أو السير إلى ثغر من الثغور، أو وضع يده بيد يزيد[١]، فأجابه عبيد الله بن زياد على كتابه قائلا:

"إني لم أبعثك إلى الحسين لتكفّ عنه، ولا لتطاوله، ولا لتمنّيه السلامة والبقاء، ولا لتعتذر له، ولا لتكون له عندي شافعا. انظر فإن نزل حسين وأصحابه على حكمي واستسلموا، فابعث بهم إليّ سلما، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثّل بهم، فإنهم لذلك مستحقّون، وإن قُتل الحسين، فأوطئ الخيل صدره وظهره فإنه عاتٍ ظلوم، وليس أرى أن هذا يضرّ بعد الموت شيئا، ولكن عليّ قول قلته: لو قتلته لفعلت هذا

---

(١) ينظر: مقتل الحسين، ٢١٣.

به"[١]. يكشف التحليل السيكو نصي للنص عن عقدتي الساديّة والنقص عند ابن زياد، وعن حقده الكبير على الإمام الحسين عليه السلام، وسعيه إلى التنكيل به وقتله بكل طريقة متاحة، والتلذّذ بهذا القتل البشع، فهو يضعه بين خيارين لا ثالث لهما، يضعه بين الذلّة والاستسلام والانقياد للكافرين الظالمين، وبين السلّة والقتل بشرف وعدم الاستسلام والانقياد للظالمين، ومن الطبيعي أن أبيّ الضيم سيختار طريق السلّة وذات الشوكة؛ ليحقّق أهداف نهضته، وابن زياد يعلم ذلك؛ لذلك يركّز في الخيار الثاني على قتل الحسين عليه السلام قائلا: (وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثّل بهم، فإنهم لذلك مستحقون)، إذ يوظّف الجملة الشرطية المكونة من أداة الشرط الجازمة (إن)، وجملة الشرط (أبوا) المكونة من الفعل والفاعل، التي تشير إلى رفض الحسين عليه السلام وأتباعه الاستسلام، فإن النتيجة ستكون ما ظهر في جملة جواب الشرط المكوّنة من الفاء الرابطة لجواب الشرط وفعل الأمر (ازحف) الذي يأمره بوساطته بالزحف إلى معسكر الحسين عليه السلام وأصحابه وقتلهم والتمثيل بهم، وهذه غايته ومناه، وهذا ما أظهرته (حتى) الغائية، فقتل الحسين عليه السلام ومن كان في صفّه هو ما يريد ابن زياد تحقيقه بكلّ إصرار، إلا أن عقدتي الساديّة والنقص اللتين تعاني منهما نفسه المريضة جعلته لا يكتفي بالقتل، بل أراد التمثيل بجثثهم بعد قتلهم، مع علمه بحرمة هذا الأمر من الناحية الشرعية، وعدم قبوله من الناحية الأخلاقية والاجتماعية، وفوق ذلك نراه يبرّر لنفسه هذا العمل الإجرامي الكبير، إذ يؤكد بوساطة (إنّ) استحقاقهم لهذه القتلة القاسية بحقّهم، والأمر الأنكى والأفظع ما ظهر في قوله: (وإن قُتل الحسين، فأوطئ الخيل صدره وظهره فإنه عاتٍ ظلوم، وليس أرى أن هذا يضرّ بعد الموت شيئا، ولكن عليّ قول قلته: لو قتلته

---

(١) الإرشاد، ٢١٩.

لفعلت هذا به)، فهو يشترط على ابن سعد بوساطة الجملة الشرطية، ويأمره بوساطة فعل الأمر (أوطئ) في حال قتل الحسين عليه السلام أن يطأ بسنابك الخيل صدره وظهره. إن هذه الجملة الشرطية وما بعدها تشير إلى ساديّة هذا الرجل ومرضه وحقده الكبير جدا على الإمام، وإلا فما الفائدة من التمثيل بجثّته وطحنها تحت حوافر الخيول، فهذا النوع من الإجرام الكبير لم يعتد عليه الناس، فضلا عن حرمته، إلا أن هذا الإنسان المريض الذي يعاني من عقدة النقص؛ بسبب وضاعة انتمائه ونسبه المشكوك به؛ وبسبب سعيه إلى إرضاء أسياده، جعله يقدم على هذه الجريمة النكراء والكبرى، ومع عظمة هذه الجريمة نراه يسببها بثلاثة أسباب كاذبة وواهية لا قيمة لها ولا تصمد أمام النقد والتحقيق، أولها أن الحسين عليه السلام حاشاه عاتٍ ظلوم، وهذا كذب صراح، وثانيها أن هذا الأمر لا يضرّ بعد الموت، وهنا أطرح سؤالا هو: إن كان هذا الأمر لا يضرّ بعد الموت فلماذا أمر بفعله؟ لقد فعل ابن زياد هذا الأمر الفظيع وهذه الجريمة الكبرى؛ لكي يبالغ في إذلال الإمام الحسين عليه السلام، ولكي يؤذي عائلته وأهل بيته أذى نفسيا كبيرا، ولكي يخيف من يفكّر بالقيام على الأمويين، ويردعهم بهذا العمل اللئيم والبغيض، إلا أن كل ما أراده لم يتحقّق، بل تحقّق عكس ما كان يريد، فقد بقي الحسين عليه السلام علما عاليا مرفرفا في سماء الإصلاح والتضحية والفداء، وبقي عزيزا أبيا تتغنّى الأجيال بعزّه ومنَعَته وإبائه، وصمدت عائلته أمام أعتى جبروت وطاغية زمانئذٍ، وتتابعت بعد نهضته الثورات ضد الظالمين والفاسدين، فقد رفعت نهضة الحسين عليه السلام قيود الخوف والتردّد التي كانت تكبّل النزّاعين نحو الحرية والإصلاح والتغيير، وثالثها أن هذا القول قد قاله سابقا وأن عليه الوفاء به، وأيّ وفاء يرجى من إنسان مريض وفاسد وناقص كهذا؟.

لا تقتلوا أنفسكم مع الحسين

قبل يوم التاسع من المحرم أراد الشمر بن ذي الجوشن أن يمنح العباس وأخوته أمانا إذا تركوا أخاهم الحسين عليه السلام؛ لوجود صلة قرابة بينه وبين أمهم السيدة أم البنين، ولكي يسحب ركنا قويا ومهما من أركان معسكر الإمام الحسين عليه السلام، فصاح بأعلى صوته:

"أين بنو أختنا؟ أين العباس وإخوته؟ فأعرضوا عنه.

فقال الحسين عليه السلام: «**أجيبوه ولو كان فاسقا**».

قالوا: ما شأنك وما تريد؟

قال: يا بني أختي أنتم آمنون لا تقتلوا أنفسكم مع الحسين، والزموا طاعة أمير المؤمنين يزيد.

فقال العباس: «**لعنك الله ولعن أمانك. أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له، وتأمرنا أن ندخل في طاعة اللعناء وأولاد اللعناء؟!**»"[(١)]. حقا إنه موقف يبعث على الحيرة والتعجّب، فهل حقا كان الشمر صادقا في دعوته هذه؟

وهل كان يظنّ ولو ظنّا بسيطا جدا أن أولاد علي عليه السلام وأم البنين سيتنازلون عن أخيهم الإمام الحسين عليه السلام مقابل أمان لا قيمة له؟

لقد أراد الشمر تحقيق ما يريد عن طريق إطلاق صوته عاليا، سائلا عمن سمّاهم ب (بنو أختنا) بوساطة (أين) الاستفهامية التي وردت في موضعين، معيّنا إياهم ب (العباس وإخوته)، فما كان من هؤلاء الأشاوس إلا أن يهملوه ولا يجيبوه؛ لأنه لا يستحق جوابا،

---

(١) مقتل الحسين، ٢١٦.

لكن نفس الحسين عليه السلام الكبيرة لم ترضَ بذلك، فطلب منهم إجابته بوساطة فعل الأمر (أجيبوه)، حتى إن كان فاسقا، فكان جوابهم له مقتضبا، ومحددا بسؤالين: (ما شأنك وما تريد؟)، من دون قبول له، ومن دون مجاملة أو إطالة في الكلام؛ لأنه لا يستحق ذلك، فأجابهم مناديا إياهم، وساعيا إلى جذبهم واستمالة نفوسهم قائلا: (يا بني أختي أنتم آمنون)، مانحا إياهم الأمان، ثم نهاهم بوساطة (لا) الناهية الجازمة عن قتل أنفسهم مع أخيهم الحسين عليه السلام بالبقاء في معسكره، والقتال معه؛ لأن ذلك سيؤدي إلى قتلهم، إذ قال: (لا تقتلوا أنفسكم مع الحسين)، ثم أمرهم بوساطة فعل الأمر: (الزموا) أن ينتقلوا من طاعة وولاية أخيهم الإمام المعصوم إلى طاعة يزيد بن معاوية. وهنا لا بدّ من مناقشة فعل الشمر هذا وطرح بعض الأسئلة، فهل يظنّ هذا الرجل أن من تربَوا في مدرسة الإمام علي والحسن والحسين عليهم السلام، وفي مدرسة السيدة أم البنين أن بهم خوفا من القتل مع أخيهم؛ لكي ينهاهم عن قتل أنفسهم مع الحسين عليه السلام؟

وهل يظنّ أن الحسين السبط عليه السلام رخيص عندهم إلى هذه الدرجة بحيث أنهم يتركونه؛ خوفا من القتل وحبّا للدنيا؟

وهل يظنّ أن إيمانهم ضعيف وعقيدتهم مهزوزة ليتركوا طاعة وولاية إمام زمانهم، ويلزموا طاعة يزيد بن معاوية، وهم يعلمون من هو يزيد؟

وهل يظنّ أنهم خائفون من القتل والموت شهداء؛ ليمنحهم هذا الأمان؟

لا أعتقد أنه يظنّ كل هذه الظنون، لكن الإنسان الذي تهون عليه نفسه، ويبيعها بأبخس ثمن للطغاة والمجرمين، من أجل مطامع دنيوية لا قيمة لها، يظنّ أن بعض الناس مثله، ويحاول أن يجعل البعض الآخر مثله؛ لأن المصيبة إن عمّت هانت، ولأن هذا الرجل

مصاب في أخلاقه ودينه وعقيدته، فقد أراد للآخرين أن يكونوا مثله، وهذا ما أراده من العباس وإخوته، فما كان من أبي الفضل إلا أن يردّه ردّا صاعقا، ويعرّفه حجمه، و يبيّن له الفرق بين الرجل المؤمن المجاهد الذي لا يبالي بالقتل من أجل دينه وعقيدته ومبادئه، وبين الرجل الإمّعة الذي يبيع دينه وآخرته من أجل دنيا غيره، فقال له: (« **لعنك الله ولعن أمانك. أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له، وتأمرنا أن ندخل في طاعة اللعناء وأولاد اللعناء؟!** »)، إذ يبدأ جوابه الصاعق لهذا المجرم الإمّعة بلعنه ولعن أمانه الذي جاء به إليهم، ثم يوظّف همزة الاستفهام التي حملت معاني الإنكار والتوبيخ والتعجّب؛ لينكر عرضه الأمان عليهم، والحسين عليه السلام ابن رسول الله لا أمان له،، ويوبّخه عليه، ويتعجّب من هكذا عرض، ولينكر عليه أمره لهم بالدخول في طاعة من لعنهم القرآن الكريم ولعنهم النبي الأعظم صلى الله عليه وآله فهم لعناء وأولاد لعناء، ويوبّخه عليه، ويتعجّب من فعله هذا، فيا لها من مفارقة، و يا له من عرض عجيب! من إنسان هانت عليه نفسه، ولم يستطع تمييز معادن الرجال الرساليين الشجعان الذين لا يخافون القتل والشهادة في سبيل الله من الرجال الجبناء الذين يخافون من الظالمين؛ بسبب خوفهم من الموت، وخوفهم على حياتهم التي لا قيمة لها في قبال حياة هؤلاء الأبطال الذين هانت عليهم حياتهم من أجل تحقيق ما يريدونه من أهداف سامية.

وإنّما هي قتلةٌ واحدةٌ، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبدا

جمع الإمام الحسين عليه السلام أهل بيته وأصحابه قرب المساء قبل مقتله بليلة واحدة، وخطب فيهم، وأخبرهم بأن موعد استشهاده قريب، وهو في العاشر من المحرم، ثم أذن لهم بتركه والانصراف من كربلاء؛ لأن بني أمية يطلبونه ولا يطلبون غيرة، ولو أصابوه

لذهلوا عن طلب غيره، بحسب قوله عليه السلام[1]، فما كان منهم ألا أن أجابوه بأجوبة يحار الدهر أمامها، وهي أجوبة تعبّر عن إخلاصهم النادر ووفائهم العجيب لإمامهم، وتحكي شجاعتهم، وإيثارهم وتفضيلهم القتل مع الحسين عليه السلام على الحياة بدونه، ومن الأجوبة التي ركّزت على ثيمة القتل قول سعيد بن عبد الله الحنفي، إذ قال:

"والله لا نخليك؛ حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسوله فيك، أما والله لو علمت أني أُقتل ثم أحيا ثم أُحرق حيّا ثم أذرّى، يفعل بي ذلك سبعين مرة، لما فارقتك؛ حتى ألقى حمامي دونك، وكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبدا"[2]. إن هذه الكلمات الصادقة والنابعة من ضمير حي ترمز إلى موقف بطولي وشجاعة نادرة لأصحاب الحسين عليه السلام، ومنهم سعيد بن عبد الله الحنفي الذي بدأ كلامه بالقسم بلفظ الجلالة بأنهم لا يتركون الحسين عليه السلام حتى تتحقّق غايتهم، وهي أن يعلم الله تعالى أنهم قد حفظوا غيبة نبيّه صلى الله عليه وآله في الحسين عليه السلام، وهو يؤكّد كلامه وغايته هذه التي يريدها بوساطة (أنّ) و (قد)، فضلا عن القسم. إن هذه الجملة تشير إلى العمق الإيماني والعقائدي عند الأصحاب وعند هذا الرجل، فهم باقون مع إمامهم، وسيقتلون معه في سبيل الله، وكرامةً وحبًّا لرسوله عن طريق الحفاظ على ابنه الحسين عليه السلام، فالقتال والقتل معه يمثّل طريقا لرضا الله تعالى، ولرضا رسوله صلى الله عليه وآله.

ثم يفترض سعيد بن عبد الله الحنفي افتراضا في قوله: (أما والله لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق حيّا ثم أذرّى، يفعل بي ذلك سبعين مرة، لما فارقتك؛ حتى ألقى حمامي

---

(١) ينظر: مقتل الحسين، ٢٢٠.

(٢) مقتل الحسين، ٢٢١.

دونك)، فهو يؤكّد بمؤكّدين هما القسم بلفظ الجلالة، و(أنّ)، ويوظف (لو) الشرطية وجملة الشرط وجوابه، أنه لو علم أنه سيقتل ثم يعود حيّا ثم يحرق وهو حي، وهذه حالة مؤلمة جدا للإنسان ولا يمكن تحمّلها؛ لأن آلام الحرق من أشدّ الآلام على الإنسان، لكن هذه الآلام كلها تهون أمام الحسين عليه السلام، ثم بعد أن يُحرق حيا يُذرّى رماد جسده المحترق، ثم يفترض افتراضا آخر يعمّق عقيدته في الإمامة والدفاع عن النهج الحقّ الذي اختطّه سبط النبي صلى الله عليه وآله، وهو أن يُفعل به ما افترضه من قتله وإحيائه وإحراقه حيّا وتذريته، سبعين مرة وليس مرة واحدة، فهو مستعد لتحمّل هذه الآلام والأوجاع جميعا ولا يفارق إمامه ولا يتركه وحيدا أمام أعدائه المتربّصين به، ومن المعلوم أن العدد (٧) و(٧٠) من الأعداد التي كان العرب يتفاءلون بها ويستعملونها للتكثير، إذ ليس المقصود من كلامه أنه يتوقف عند سبعين قتلة أو حرقا، بل إن ما يرمز إليه توظيفه لهذا العدد هو التكثير، وأن الاستعداد موجود عنده حتى لأكثر منه، ثم تأتي (حتى) الغائية؛ لتبيّن غايته المبتغاة من هذه التضحية الفريدة، وهي الموت دون الإمام، دفاعا عن الدين والعقيدة والمبدأ. ثم يقول: (وكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبدا) متسائلا بوساطة (كيف) الاستفهامية، أنه كيف لا يُقبل على القتل بكل إصرار ويقين مع أبي عبد الله، وإنما هي قتلة واحدة لا أكثر، موظّفا (إنما) التي أفادت الحصر والتوكيد على أن القتلة مع الحسين عليه السلام واحدة وليست سبعين قتلة، فإذا كان مستعدا وموطّنا لنفسه على سبعين قتلة مؤلمة من النوع الذي افترضه، فما قيمة قتلة واحدة بسيف أو رمح أو نبلة في قبال النعيم الأخروي الذي لا نهاية له، وفي قبال الكرامة الأبدية التي لا كرامة بعدها؛ جرّاء نصرة الحق الذي مثّله الحسين عليه السلام؟.

والله لوددت أني قُتلت ثم نُشرت ثم قُتلت، حتى أقتل هكذا ألف مرة

تحدث بعد سعيد بن عبد الله الحنفي زهير بن القين البجلي الذي ركّز في كلامه على ثيمة القتل أيضا، إذ قال للإمام عليه السلام:

"والله لوددت أني قُتلت ثم نُشرت ثم قُتلت، حتى أقتل هكذا ألف مرة، وأن الله تعالى يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك"(١). إن هذا النص القصير مليء بذكر القتل، فهناك أربع إشارات لغوية تشير إلى القتل، هي الفعل (قُتلت) الذي ورد مرّتين، والفعل (أقتل)، والاسم (القتل)، فزهير بن القين يتمنّى ويودّ أن يُقتل في سبيل الله، وتحقيقا لأهداف النهضة الحسينية، ونصرةً للإمام ولأهل بيته، ثم يُنشر، ثم يُقتل، مؤكّدا ذلك بالقسم بلفظ الجلالة، واللام الواقعة في جواب القسم، و(أنّ)، ومكرّرا الفعل المبني للمجهول (قُتلت)، ومبيّنا عدم اكتراثه بقتله، وعدم خوفه من هذا المصير، ثم يفترض افتراضا مفاده أنه حتى لو قُتل هذه القتلة ألف مرة لما تردّد أو تراجع عن موقفه الشجاع، ولو عقدنا مقارنة بين تمنّيه للقتل وتمنّي سعيد بن عبد الله الحنفي، في قوله الذي مررنا عليه في الفقرة السابقة، سنجد أن الحنفي يذكر العدد (سبعين) عند ذكره لعدد مرات قتله مع الإمام الحسين عليه السلام، مع خصوصية هذا العدد كما ذكرنا، في حين يرتفع العدد مع زهير بن القين إلى ألف مرة، فهو يودّ أن يقتل ألف مرة بالطريقة التي ذكرها في قبال أن يدفع، بهذا النوع من القتل وبهذا العدد الكبير من القتلات، القتل عن الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته، وكأنّ أصحاب الحسين عليه السلام في مزايدة علنية إيمانية تُظهر حبّهم وولاءهم لإمامهم، فهم يتزايدون مزايدة تبيّن إيمانهم وعقيدتهم وعشقهم الكبير لأبي عبد الله أمام التاريخ الإنساني وأمام الناس،

(١) الإرشاد، ٢٢١.

ومن ثم فإنهم لا يخافون القتل والموت ما داموا في صفّ الحسين عليه السلام، يقاتلون معه، ويفدونه بأغلى ما يملكون، فما قيمة الحياة في قبال العزّة والمنَعة والشرف والإباء والشهادة في سبيل الله ومع الإمام الحسين عليه السلام.

فإذا نحن قُتلنا، كنّا وفَينا وقضينا ما علينا

بعد كلام زهير بن القين "تكلّم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضا في وجه واحد، فقالوا:

والله لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء، نقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا، فإذا نحن قُتلنا، كنّا وفينا وقضينا ما علينا"(١). إنهم يفتتحون كلامهم بالقسم بلفظ الجلالة، و(لا) النافية، مؤكّدين عدم مفارقتهم لإمامهم مهما تطورت الأوضاع، ومهما ازدادت خطورتها، ثم يستدركون بوساطة (لكن)؛ ليخبروه بأن أنفسهم فداء له، وقد عبّر الانزياح الأسلوبي في هذه الجملة، الذي تمظهر عن طريق تقديم الجار والمجرور (لك) على الخبر (الفداء) عن معنيي الاختصاص والتعظيم، فهم يخصّونه عليه السلام بهذا الفداء النادر، ويعظّمون شأنه، ثم يوظّفون الفعل المضارع (نقيك) الذي يفيد معنى الاستمرار على وقايته والدفاع عنه والبقاء معه مهما ادلهمّت الخطوب وساءت الظروف، لكن اللافت في كلامهم هو أنهم بأي شيء يقونه؟

هل يقونه بمالهم مثلا؟

أو بأولادهم؟

هل يقونه بالقتال وحمل السلاح ولبس الدروع الواقية؟

(١) نفس المهموم، ٢٢٩.

إن اللافت في كلامهم أنهم مستعدون لوقايته بثلاثة أشياء غير التي تساءلنا عنها من مال أو ولد أو سلاح ودروع، إنهم يقونه

بنحورهم المكشوفة

وجباهم العالية

وأيديهم التي تقاتل دونه

إن كلمة (النّحور) تشير إلى أنهم مستعدون لتقديم نحورهم مكشوفة أمام مذبح التضحية والفداء من أجل الإصلاح والحرية، ومن أجل نصرة إمامهم الذي يمثّل القيم العليا ويسعى جاهدا لتحقيقها. وتشير كلمة الجباه سيميائيا إلى أن جباههم عالية مع الإمام الحسين عليه السلام، وقد تعلّموا منه عدم الإذعان للظالمين، وعدم الرضا بالدنيّة، وعدم القبول بالذلّ، لذلك لا يحنون رقابهم أمام أعدائهم، وبذلك ستبقى هذه الجباه مرتفعة عزيزة، وتقاتل دفاعا عن الدين والعقيدة وعن الإمام، ولا ترضخ ولا تنحني أبدا، حتى لو كان الثمن هو القتل والشهادة، فموت الإنسان مرفوع الرأس أفضل من العيش في الذلّ والهوان. أما الأيدي فتشير إلى استعدادهم للدفاع عنه وعن مبادئه التي يحملها بأيديهم، سواء أكانت تحمل السلاح أم لا تحمله، فهذه الأيدي ستقاتل في الأحوال كلّها، وستقي الحسين عليه السلام في الظروف كلّها ولا تتخلّى عنه أبدا.

ثم يختمون كلامهم المعبّر عن موقفهم البطولي ووفائهم الكبير بقولهم: (فإذا نحن قُتلنا، كنّا وفينا وقضينا ما علينا)، فقد عبّرت الجملة الشرطية المصدّرة ب (إذا)، وجملة الشرط (نحن قتلنا)، وجملة جواب الشرط (كنا وفينا وقضينا ما علينا) عن موقفهم من القتل، وعدم خوفهم منه أبدا، فالمهم عندهم هو ما ظهر في جملة جواب الشرط من

نتيجتين يرجون تحقيقهما، حتى إن قُتلوا وسالت دماؤهم، هما الوفاء للحسين ولمبادئه التي خرج من أجل تحقيقها أولا، وقضاء ما عليهم من حقوق وواجبات تجاه الله تعالى، وتجاه الإمام عليه السلام ثانيا، وهما هدفان رساليان سعوا إلى تحقيقهما بكلّ ما يملكون من قوّة وطاقة، غير متردّدين، ولا ناكصين، ولا خائفين من القتل الذي واجهوه بنحورهم وجباههم وصدورهم وأيديهم.

البشارة بالقتل

بعد أن علم الحسين عليه السلام صدق أهل بيته وأصحابه، واستعدادهم للتضحية والقتل دونه "أوقفهم على غامض القضاء فقال:

« **إني غدا أُقتل وكلّكم تُقتلون معي ولا يبقى منكم أحد، حتى القاسم وعبد الله الرضيع، إلا ولدي عليا زين العابدين؛ لأن الله لم يقطع نسلي منه، وهو أبو أئمة ثمانية** ».

فقالوا بأجمعهم:

الحمد لله الذي أكرمنا بنصرك

وشرّفنـــــا بالقتل معــــــك

أولا نرضى أن نكون معك في درجتك يا بن رسول الله"[١]. إن الحسين عليه السلام يخبرهم بصراحة ومن دون مواربة أنه سيُقتل غدا ويُقتلون، وقد قدّم خبر قتله على قتلهم، وأكّده بقوله (إنّي)، فهو يريد أن يبيّن لهم أنهم لم يُقتلوا وحدهم، بل سيُقتل هو أيضا، وقد بيّن الانزياح الأسلوبي الوارد بوساطة تقديم ظرف الزمان (غدا) على الفعل

---

(١) مقتل الحسين، ٢٢٢.

(أُقتل)، الذي أشار إلى بيان أهمية الشيء المقدم، أن عملية قتله ستحصل في اليوم التالي، وهو العاشر من المحرم، ثم أكّد بوساطة التوكيد المعنوي المتمظهر بوساطة لفظة (كلّ) المضافة إلى الضمير (كم) الذي يعود عليهم أنهم سيُقتلون مع الحسين عليه السلام، وهذا شرف كبير ما بعده شرف، ثم يؤكّد مرة أخرى بأنهم سيُقتلون جميعا دون استثناء في قوله: (ولا يبقى منكم أحد)، نافيا بوساطة (لا) النافية بقاء أيّ أحد منهم على قيد الحياة، موظّفا الانزياح الأسلوبي عبر تقديم الجار والمجرور (منكم) على الفاعل (أحد) الذي أفاد معنى الاختصاص، بل حتى الأطفال سيقتلون، ومنهم القاسم بن الحسن، وعبد الله الرضيع، باستثناء الإمام السجاد عليه السلام؛ لأن الله لا يقطع نسل آل محمد عليهم الصلاة والسلام.

بعد هذا الخبر المؤكّد بقتلهم بأكثر من توكيد، والصادر من الإمام المعصوم، ما الذي نتوقّعه من ردّة فعل منهم تجاهه؟

هل سيخافون الموت؟

هل سيصيبهم الرعب من مصيرهم المؤكّد هذا؟

هل سيتركون الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وحدهم في كربلاء؟

هل سيتّخذون الليل جملا ويتفرّقون عن الإمام الحسين عليه السلام، كما طلب منهم؟

هذه الأسئلة وغيرها مما يدور في أذهاننا أجابوا عنها بقولهم الذي يفصح عن إيمانهم بالله، وبطولتهم الفذة قائلين: (الحمد لله الذي أكرمنا بنصرك)، فنصرة الإمام كرمٌ من الله، ونعمة كبيرة عليهم؛ لذلك بدأوا كلامهم بحمد الله على هذه النعمة العظيمة التي شرّفهم وأكرمهم بها، ثم أضافوا قولهم (وشرّفنا بالقتل معك)، وهنا يؤشّر كلامهم إلى

أمر في غاية الأهمية، وهو أن القتل مع الإمام الحسين عليه السلام شرف كبير ما بعده شرف، فهم يجيبونه على قوله: (« **وكلّكم تُقتلون معي** ») بهذا الكلام المعبّر، وبهذا الوعي الكبير، وهذا الموقف النبيل الذي ندر في ذلك الزمان الذي وقف فيه الآلاف من الناس ضدّ الإمام الحسين عليه السلام، وسعوا إلى قتله بكل طريقة؛ إرضاءً لعبيد الله بن زياد، وليزيد بن معاوية، فأين هذه الثلّة المؤمنة الواعية من تلك الكثرة التي أصبح الدين لعقا على ألسنتها، وتشكو من قلة الوعي؟. ومما يشير إلى وعيهم لدورهم التاريخي الذي حباهم الله به قولهم: (أولا نرضى أن نكون معك في درجتك يا بن رسول الله)، فهم لا يكتفون بالدرجات الدنيا أو الوسطى في الآخرة وفي الجنان، بل يريدون نيل الدرجة الأعلى التي سينالها الإمام الحسين عليه السلام بشهادته، إذ من المرجّح أنهم سمعوا الحسين عليه السلام، وهو يروي لهم قصة رؤياه حينما زار قبر جده محمد صلى الله عليه وآله في المرة الثانية مودّعا، قبل خروجه من المدينة، فنام عند القبر الشريف "فجاءه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو في منامه، فأخذ الحسين عليه السلام،وضمّه إلى صدره، وجعل يقبّل بين عينيه ويقول: « **بأبي أنت، كأنّي أراك مرملا بدمك بين عصابة من هذه الأمة يرجون شفاعتي، ما لهم عند الله من خلاق، يا بني إنك قادم على أبيك وأمك وأخيك، وهم مشتاقون إليك، وإن لك في الجنة درجات لا تنالها إلا بالشهادة** »"[(١)]. إن الذي يبدو لي أنهم كانوا على درجة كبيرة من الإيمان والوعي الذي أهّلهم إلى هذا الموقف النبيل، وهذه التضحية الكبيرة، بحيث أنهم يريدون أن يكونوا مع إمامهم الحسين عليه السلام في الدنيا والآخرة، وفي درجته، فكما ثبتوا وقاتلوا وقُتلوا معه في الدنيا، يريدون صحبته والبقاء معه وبجانبه في الآخرة، لذلك يوظّفون في كلامهم الاستفهام المتمظهر

---

(١) أمالي الصدوق، الشيخ الصدوق، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ١، ١٤٣٠ هـ ٢٠٠٩ م، ١١٨

بوساطة الهمزة، والنفي بوساطة (لا) النافية؛ لتقرير هذه الحقيقة المهمة، وهذه العاقبة الحسنة التي يسعون إلى تحقيقها في قولهم: (أولا نرضى أن نكون معك وفي درجتك يا ابن رسول الله)، وهذا هو غاية مطلوبهم ومناهم الذي يرجونه.

وأنا فيمن يُقتل؟

حينما سمع القاسم بن الإمام الحسن عليهما السلام من عمّه الحسين عليه السلام خبر قتله وقتل عبد الله الرضيع، قال لعمّه الحسين عليه السلام مستفهما:

"وأنا فيمن يُقتل؟ فأشفق عليه فقال له:

« **يا بُني كيف الموت عندك؟** »

قال: يا عم أحلى من العسل.

فقال: « **إي والله، فداك عمّك إنك لأحد من يُقتل من الرجال معي، بعد أن تبلو ببلاء عظيم، وابني عبد الله** ».

فقال: يا عم ويصلون إلى النساء حتى يُقتل عبد الله وهو رضيع؟

فقال: « **فداك عمّك يُقتل عبد الله...** »"[(١)]

إن هذا الحوار المشحون بالعلامات اللغوية الدالّة على القتل والموت يشير إلى الكثير من الدلالات الفكرية والنفسية، فالقاسم بن الحسن يستفهم من عمّه الحسين عليه السلام عن قتله، حينما سمع منه أنه سيُقتل وعبد الله الرضيع، إلا أن مما يثير الانتباه أن عمّه لم يجبه مباشرة بالإيجاب، بل أجاب استفهامه باستفهام بوساطة (كيف) التي

---

(١) نفس المهموم، ٢٣٠.

يستفهم بها عن الحال؛ ليسأله عن حاله مع الموت وفي مواجهته، وعن حال الموت بالنسبة له، ولعلّ الإمام الحسين عليه السلام كان قاصدا من هذا السؤال الكبير أن يكشف معدن هذا الفتى، وفهمه العميق، وموقفه إزاء عمّه في هذا الظرف العصيب، وعدم خوفه من القتل والموت دفاعا عن الدين والعقيدة، فما المتوقع من فتى لم يبلغ الحلم أن يجيب عن هذا السؤال الفكري والفلسفي؟ لقد فاجأنا بجواب دقيق وقصير، لكنه يحمل دلالات فكرية ونفسية، منها أن الموت مع مرارته فهو أحلى من العسل عنده، إذ يوظّف صيغة التفضيل (أحلى)؛ ليفضّل حلاوة الموت على حلاوة العسل، وهل ثمة شيء أحلى من العسل؟ نعم، إنه الموت عند هذا الفتى الذي امتلأ إيمانا وعقيدة راسخة، وثمة دلالة نفسية في قوله، فهو لم يَخَفْ من الموت، ولم يصبه التطيّر ولا الرّهاب من ذكره، بل حتى أنه لم يتأخر في الإجابة، ولم يدُر ويلف حول السؤال، بل أجاب بسرعة وبشكل واضح جدا ومن دون تردّد أو تلعثم في الكلام، مما يدلّ على قوّة شخصيته، مع صغر سنّه، وثقته العالية بنفسه، وشجاعته وإقدامه على الموت بيقين ثابت ونفس مطمئنّة.

بعد هذا الجواب المعبّر الذي كشف حقيقة هذا الفتى الهاشمي، والذي أدخل السرور على قلب عمّه، نجد الحسين عليه السلام يجيبه بالإيجاب بقوله: (« **إي والله، فداك عمّك إنك لأحد من يُقتل من الرجال معي** »)، مؤكّدا جوابه بالقسم بلفظ الجلالة، و(إنّ)، واللام، فالحسين عليه السلام يؤكّد مقتل القاسم بهذه التوكيدات المتتابعة؛ ليبيّن له تحقّق مقتله لا محالة؛ ولأنه علم يقينه وشجاعته في مواجهة القتل والموت، فلا شيء يؤخّره عن نصرة عمّه والقتال معه، إلا أن مما يلفت الانتباه في جواب الإمام عدة أمور هي:

١. إن الحسين عليه السلام يقول له: (« **فداك عمك** »)، فأيّ فتى هذا الذي يقول له الإمام المعصوم هذا القول، وأيّ منزلة له عند عمّه؟، كما أن هذا القول يبيّن رقّة قلب

الإمام، وحنانه الكبير على وديعة أخيه عنده، ونفسه الرقيقة التي تحنو على هذا الفتى والتي تودّ فداءه.

٢. صنّف أبو عبد الله عليه السلام هذا الفتى البطل، ووضعه في صنف الرجال وليس في صنف الفتيان في قوله: (« **إنك لأحد من يُقتل من الرجال معي** »)، فالبطولة والقوّة والدافعية إلى القتال التي ميّزت القاسم بن الحسن جعلته في صنف الرجال الخالدين الذين يدفعون أرواحهم زهيدة، في قبال الأهداف الكبرى، فضلاً عن مقتله مع المعصوم، هذا القتل وهذه الشهادة التي يتمنّاها كل مؤمن؛ ليختم حياته بها خير ختام.

٣. يبشّر الإمام الحسين عليه السلام ابن أخيه أنه سيبلو مع حداثة سنّه بلاءً عظيما في ساحة المعركة في قوله: (« **بعد أن تبلو ببلاء عظيم** »)، وهنا يريد الإمام الحسين عليه السلام أن يميّز بلاء هذا الفتى، ويبيّن عظمة هذا البلاء النابع من عظمة شخصية القاسم؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، فلو لم يكن هذا الفتى عظيما لما أبلى بلاءً عظيما في العاشر من المحرّم الحرام.

مع هذا التأكيد على قتله نجد القاسم غير مكترث بهذا القتل، وغير مبالٍ، فكان همّه في جوابه على كلام عمّه ليس روحه التي سيفقدها، وليس حياة الشباب التي سيُحرم منها، بل كان ما يشغل تفكيره هو وصول الأعداء إلى النساء، بعد أن علم بمقتل عبد الله الرضيع؛ لأن من العادة أن يكون الطفل الرضيع عند أمّه، لذلك يقول: (يا عم ويصلون إلى النساء حتى يُقتل عبد الله وهو رضيع؟). إن هذا الكلام يشير سيميائيا إلى دلالتين نفسية واجتماعية، أما الدلالة النفسية فهي الغيرة، والرجولة، والحميّة على العرض، والنفس الكبيرة التي يتمتّع بها هذا الفتى، فهو لم يتأثّر بخبر مقتله، ولم يعِره اهتماما يذكر قدر اهتمامه بأمر النساء، وأما الدلالة الاجتماعية فهي صون المرأة في المجتمع

العربي الإسلامي وعدم التجاوز عليها، وإلا فهذا الأمر يعدّ عيبا اجتماعيا كبيرا لا يقبله الإنسان الذي تربّى في هذا المجتمع على القيم العربية الإسلامية التي تحافظ على ستر المرأة وعفافها، وتمنع الاعتداء عليها أو انتهاك حرمتها.

إن الله عزّ وجل قد أذِنَ في قتلكم اليوم وقتلي

أقبل يوم العاشر من المحرم، وهو ينذر بالخطر الكبير، والحدث المأساوي الأفظع والأفجع، "وأصبح الحسين عليه السلام فصلّى بأصحابه الفجر، ثم قام خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه وقال لأصحابه:

« **إن الله عز وجل قد أذن في قتلكم اليوم وقتلي، وعليكم بالصبر** »"[(١)]، فالحسين عليه السلام يخبر من كان معه من أهل بيته وأصحابه في صبيحة يوم عاشوراء بأن الله جلّ شأنه قد أذن في قتلهم وقتله عليه السلام، وهو يؤكّد على الإذن بهذا القتل بمؤكدين هما (إنّ) و (قد) التي أفادت التحقيق والتوكيد، ولكن ما معنى الإذن الإلهي بالقتل؟ إن الذي يبدو من الفعل الماضي (أذن) أن الله تعالى قدّر قتلهم وشهادتهم في هذا اليوم وليس قبله أو بعده، وأنه عزّ ذكره لم يكن ليأذن ويقدّر قتلهم قبل هذا اليوم، وإذا استأنسنا برأي الراغب الأصفهاني فإنه يقول: "والإذنُ في الشيء إعلام بإجازته والرخصة فيه نحو ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[(٢)]، أي بإرادته وأمره. وقوله: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[(٣)] (...) قيل: معناه بعلمه، لكن بين العلم والإذن فرق، فإن الإذن أخصّ ولا يكاد يستعمل إلا فيما فيه مشيئةٌ به راضيا منه الفعل

(١) نفس المهموم، ٢٣٦.

(٢) النساء: آية ٦٤.

(٣) آل عمران: آية ١٦٦.

أم لم يرضَ به، فإن قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[(١)]، فمعلوم أن فيه مشيئته وأمره. وقوله: ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[(٢)]، ففيه مشيئته من وجه، وهو أنه لا خلاف أن الله تعالى أوجد في الإنسان قوّة فيها إمكان قبول الضرب من جهة من يظلمه فيضرّه ولم يجعله كالحجر الذي لا يوجعه الضرب، ولا خلاف أن إيجاد هذا الإمكان من فعل الله، فمن هذا الوجه يصحّ أن يقال: إنه بإذن الله ومشيئته يلحق الضرر من جهة الظالم"[(٣)].

إن كلام الراغب الأصفهاني يشير إلى أكثر من معنى يمكن استكناهه للفعل (أذن)، ومن هذه المعاني أن الله تعالى أعطى الرخصة بقتلهم جميعا باستثناء الإمام السجاد عليه السلام، ومنها أن الله تعالى أعلم الإمام الحسين عليه السلام بإجازته قتلهم وقتله على أيدي الظالمين بوساطة إخباره من لدن جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله ومن طرق أخرى، ومنها أن الله شاء قتلهم بإرادته ومشيئته وأمره؛ من أجل الإصلاح وتغيير المنظومة الفاسدة، وهو يعلم جلّ شأنه أن فيهم قوّة وإرادة وعزيمة وصبرا منحه لهم؛ لكي يتمكّنوا من تحمّل الظلم والقتل قربةً لوجهه الكريم، وأمام هذا التقدير الإلهي، وهذه الرخصة، والعلم، والإجازة، والإرادة، والمشيئة الإلهية، والأمر الربّاني كان لابد لهم من الصبر الذي أمَرهم به الإمام في قوله: (وعليكم بالصبر)، وقد أطاعوا أمر إمامهم خير طاعة، وصبروا صبرا كبيرا حتى أقبلوا على قتلهم وشهادتهم إقبال الحبيب على حبيبه بكل قوّة وثبات، ومن دون تردّد؛ لأنهم كانوا يعلمون أن في هذا القتل شرفا ما

---

(١) يونس: آية ١٠٠.

(٢) البقرة: آية ١٠٢.

(٣) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ضبطه: هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٨م، ١٩، مادة أذن.

بعده شرف، وخلودا ما بعده خلود، وقد قدّم الحسين عليه السلام في كلامه قتلهم على قتله فقال: (« **إن الله عز وجل قد أذن في قتلكم اليوم وقتلي** »)؛ لأنه يعلم درجة إيمانهم وصبرهم، وإنهم لا يرضون إلا أن يدافعوا عنه، ويُقتلوا بين يديه ما دام فيهم روح تسري وعرق ينبض، كما أخبروه ليلة العاشر من المحرم.

هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟!

خطب الإمام الحسين عليه السلام خطبتين يوم عاشورا، ومما قاله في الخطبة الأولى مشيرا إلى قتله:

"« **أيها الناس انسبوني من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها وانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟!**

ألستُ ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه وأول المؤمنين بالله والمصدّق لرسوله بما جاء من عند ربه؟

أوليس حمزة سيد الشهداء عمّ أبي؟

أوليس جعفر الطيار عمّي؟

أولم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي: هذان سيّدا شباب أهل الجنة؟ »"[١]، إذ يطلب منهم بوساطة فعل الأمر (انسبوني) الرجوع إلى نسبه الشريف، ثم يذكر لهم هذا النسب العظيم، فهو ابن فاطمة الزهراء عليها السلام ابنة النبي صلى الله عليه وآله، وابن علي ابن أبي طالب عليه السلام، كما أن حمزة سيد الشهداء عمّ أبيه، وجعفر الطيار عمّه، ثم يذكّرهم بقول النبي صلى الله عليه وآله فيه وفي أخيه بأنهما سيدا شباب أهل الجنة،

---

(١) مقتل الحسين، ٢٣٧.

ثم يطلب منهم بوساطة فعلي الأمر (ارجعوا) و(عاتبوها) الرجوع إلى أنفسهم الأمّارة بالسوء التي تريد الإقدام على قتله ومعاتبتها على ما تريد فعله من فعل إجرامي كبير وخطير، ثم يطلب منهم النظر بوساطة فعل الأمر (انظروا)، وموظّفا (هل) الاستفهامية، سائلا إياهم هذا السؤال: (« **هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟!** ») الذي ينطوي على بنية احتجاجية عالية يحتجّ بها عليهم؛ لكي يمنعهم من الإقدام على قتله، ليس خوفا منهم، ولا خوفا على حياته؛ لأنه يعلم أن مصيره القتل على أيديهم، والشهادة الموعود بها من جدّه النبي صلى الله عليه وآله، بل خوفا عليهم وعلى مصيرهم بعد قتله، وحرصا عليهم لكي لا يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة ونار جهنم التي لا تبقي ولا تذر، فضلا عن أن هذا الاستفهام يحمل معاني الإنكار والتوبيخ والتعجّب من فعلهم الشنيع الذي يرومون فعله، وهو قتله وانتهاك حرمته، وهو بإنكاره سعيهم إلى قتله، وتوبيخهم عليه، وتعجّبه من إقدامهم على هذه الجريمة النكراء يريد منهم عدم التورّط بقتله، هذا القتل الذي سيجرّ عليهم الويلات تلو الويلات والندم تلو الندم في الدنيا والآخرة، ولكن.. هل من مستمع؟.. وهل من مدّكر؟.

والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه

بعد خطبة الحسين عليه السلام الأولى يوم عاشوراء، خطب زهير بن القين بالقوم ناصحا إياهم بعدم التورط بقتال الحسين عليه السلام وقتله، وعدم نصرة أعدائه عليه، "فسبّوه، وأثنوا على ابن زياد وقالوا:

والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله بن زياد سلما.

فقال لهم: يا عباد الله إن ولد فاطمة عليها السلام أحقّ بالودّ والنصر من ابن سميّة، فإن لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم. خلوا بين هذا الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية، فلعمري إن يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين عليه السلام.

فرماه شمر بسهم وقال: أسكتْ. أسكتَ الله نأمتك، أبرمتنا بكثرة كلامك.

فقال له زهير رحمه الله: يا ابن البوّال على عقبيه ما إياك أخاطب، إنما أنت بهيمة. والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم.

فقال له شمر: إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة.

قال: أ فبالموت تخوفني، فو الله للموت معه أحبّ إلي من الخلد معكم.

قال: ثم أقبل على الناس رافعا صوته فقال:

يا عباد الله لا يغرنّكم من دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فو الله لا تنال شفاعة محمد صلى الله عليه وآله قوما أهرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذبّ عن حريمهم"[١].

لقد حاول زهير بن القين إنذار القوم ونصحهم بعدم الإقدام على قتال الإمام الحسين عليه السلام وقتله، لذلك يبدأ خطبته بقوله: "نذار لكم من عذاب الله، نذار إن حقّا على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن أخوة على دين واحد وملّة واحدة ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منّا أهل"[٢]، فهو يحاورهم حوارا حضاريا، وينصحهم نصيحة الأخ لأخيه، وينذرهم بصيغة المصدر النائب عن فعل الأمر (نذار)

---

(١) نفس المهموم،٢٤٢ - ٢٤٣.

(٢) نفس المهموم، ٢٤٢.

التي كررها مرتين؛ ليحذّرهم من عذاب الله، وخطورة ما يريدون الإقدام عليه، إلا أنهم يجيبونه بالسبّ واللعن، والثناء على ابن زياد، وإذا حلّلنا الحوار الدائر بينهم وبين زهير بن القين تحليلا سيميائيا، مع التركيز على العلامات اللغوية الدالّة على القتل سنجدهم مصرّين إصرارا كبيرا على قتل الإمام، وهذا ما ظهر بشكل واضح في قولهم: (والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله بن زياد سلما)، فهم يقسمون بالله أنهم لا يتركون أماكنهم، ولا يتحرّكون أو ينتقلون إلى مكان آخر حتى يحقّقوا غايتهم التي جاؤوا من أجلها، والتي أظهرتها (حتى) الغائية، وهي قتل الحسين عليه السلام ومن معه، وهذا ما بيّنه الفعل المضارع (نقتل)، أو تسليمه وأصحابه إلى ابن زياد، فقد وظّفوا في كلامهم حرف العطف (أو) الذي يفيد التخيير. إلا أن إصرارهم على قتل الإمام الحسين عليه السلام ومن معه جعلهم يقدّمون خيار القتل على خيار التسليم، فهم لقتله أشوق وأقرب، وبذلك يظهر التحليل على وفق المسار السيكو نصي حقد هذه النفوس على الإمام وأصحابه، وتفضيلهم قتله وأصحابه على تسليمهم أحياء لابن زياد، ولو سألنا سؤالين مفادهما:

ما سبب هذا الحقد الكبير على الإمام ومن معه؟

وما سبب هذه الساديّة التي ملأت قلوبهم؟

إن هؤلاء الناس قد أعمى حبّ الدنيا عيونهم وقلوبهم عن التمييز بين الحق الذي يمثّله الإمام الحسين عليه السلام، والباطل الذي يمثله يزيد وابن زياد، كما أن حب الجوائز والمناصب التي وعدهم بها أعداء الحسين عليه السلام قد خرّب نفوسهم وجعلهم لا يرون الحقّ، فضلا عن عقدة النقص التي تعاني منها نفوسهم المريضة في قبال شخصية كبيرة وعظيمة كالإمام الحسين عليه السلام، فأمام عظمة الحسين عليه

السلام وكبريائه، وسموّ نفسه، وشرف انتمائه، وشجاعته في الوقوف ضدّ الظالمين تصغر هذه النفوس المريضة وتضمحل، فضلا عن ابتعادهم عن الدين والعقيدة والمثل العليا والأخلاق الكريمة، فقد مُسِخت أرواحهم، وأصبحوا كالوحوش الكاسرة التي لا همّ لها إلا إشباع ملذّاتها دون الالتفات إلى أي محذور شرعي أو أخلاقي أو نفسي أو اجتماعي، فقد استحالت نفوسهم إلى نفوس ساديّة شرّيرة تتلذّذ بأذى الآخر والتنكيل به وقتله، وأضحت أرواحهم أرواحا مخرّبة لا تأبه بالأفعال غير الإنسانية ولا ترتدع عنها، لذلك نراهم غير متأثّرين بإنذار زهير بن القين لهم ونصحه إيّاهم، كما لم يتأثّروا بخطبة الإمام الحسين عليه السلام الأولى، مع سعيه إلى هدايتهم وبيان حقيقة الأمور لهم ونصحهم بعدم قتله.

بعد هذا التهديد الشديد بقتل الإمام الحسين عليه السلام ومن معه الذي كشف عن هذه النفوس المريضة التي تعاني من عقدتي النقص والساديّة، نجد زهير بن القين يجيبهم بحوار حضاري، مفتتحا كلامة بقوله: (يا عباد الله إن ولد فاطمة عليها السلام أحق بالودّ والنصر من ابن سميّة)، مناديا إياهم بوساطة (يا) النداء، واصفا إياهم ب(عباد الله)، مع أنهم عبيد الشيطان، محاولا إصلاح ما خرب من نفوسهم وأرواحهم، مبيّنا لهم أن أبناء فاطمة الزهراء عليها السلام أحقّ بالودّ والنصر من ابن سميّة، وهو هنا يقارن بين أم الحسين عليه السلام فاطمة الزهراء بنت النبي محمد صلى الله عليه وآله، وبين أم زياد بن أبيه والد عبيد الله (سميّة) التي يعلم الجميع من هي، ويعلم قصّة حملها بزياد بن أبيه، إذ يبعث في كلامه هذا إشارات واضحة إلى الفرق الكبير بين نسب الإمام الحسين عليه السلام الذي تقاعس هؤلاء الناس عن نصرته، وغدروا به، وجاؤوا لقتله، وبين نسب عبيد الله ابن زياد الذي جاؤوا لنصرته على ابن بنت نبيّهم، فشتّان بين النسبين،

كما أنه يعرّض بنسب ابن زياد، ولكن مع هذا الفرق الكبير بين النسبين نراهم ينصرون صاحب النسب الوضيع على صاحب النسب العالي، فقد عميت عيونهم وقلوبهم عن التفكير و التمييز والإدراك. ثم قال لهم: (فإن لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم)، موظّفا أسلوب الشرط، مفتتحا الجملة الشرطية بأداة الشرط الجازمة (إن)، محذرا إيّاهم، في حالة عدم نصرهم لهم، من التورّط في قتلهم، ويستمر الحوار السجالي من الشمر مع زهير بن القين، إلى أن ينهيه زهير بحوار حضاري مع القوم، ناصحا إياهم ومحذّرا لهم مما يريده منهم الشمر وأمثاله، إذ يقول: (يا عباد الله لا يغرنّكم من دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فو الله لا تنال شفاعة محمد صلى الله عليه وآله قوما أهرقوا دماء ذريّته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذبّ عن حريمهم)، فهو يكرّر نداءه لهم ب (عباد الله)، ناهيا إياهم عن الغرور، ثم يقسم بلفظ الجلالة أن شفاعة النبي محمد صلى الله عليه وآله لا تشمل قوما أهرقوا دماء ذريّته وأهل بيته، وقتلوهم وقتلوا من قاتل معهم، ودافع عنهم، وذبّ عن حريمهم، وبذل روحه من أجل دفع القتل عنهم، إلا أن هذا الحوار الحضاري من لدن زهير بن القين، وهذه النصائح التي نصحهم بها لم تنفع معهم، مما دفع أحد رجال معسكر الإمام الحسين عليه السلام إلى ندائه قائلا: "إن أبا عبد الله يقول لك: أقبل، فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه وأبلغ في الدعاء، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ"[(١)]، فهذا الكلام من الحسين عليه السلام يشير إلى أن هؤلاء الناس قد وصلوا مرحلة يمكن أن نسميها بمرحلة اللاتوبة واللاعودة، فلا حوار حضاري، ولا نصيحة مخلصة، ولا كلام مؤثّر وبليغ يفيد معهم؛ ليتوبوا ويعودوا عمّا يريدون اقترافه من ذنب كبير، لذلك أمره الإمام بالرجوع بوساطة الفعل (أقبل).

---

(١) نفس المهموم، ٢٤٣.

خطبة برير بن خضير

وخطب برير بن خضير بعد زهير بن القين، فقد استأذن الحسين عليه السلام في أن يتحدث مع القوم، فأذن له، ومما قال لهم:

"أنسيتم كتبكم وعهودكم التي أعطيتموها وأشهدتم الله عليها وعليكم؟ أدعوتم أهل بيت نبيّكم وزعمتم أنكم تقتلون أنفسكم دونهم، حتى إذا أتوكم أسلمتموهم إلى ابن زياد، وحلأتموهم عن ماء الفرات؟ بئسما خلفتم نبيكم في ذريته"[١]. إن كلام برير بن خضير يشير إلى المفارقة الواضحة والانقلاب الكبير الذي أصاب هؤلاء الناس، فبعد أن دعوا الحسين عليه السلام؛ ليقيم حكم الله فيهم، وبعد أن أرسلوا آلاف الكتب، وعاهدوه على نصرته والقتال معه والقتل دونه، فإذا بهم ينكصون ويغدرون، وبدل أن يُقتلوا دون الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته دفاعا عنهم، كما وعدوا، فإذا بهم يسعون عامدين ومصرّين على قتله؛ لذلك يوبّخهم برير، وينكر فعالهم، ويتعجّب من هذه المفارقة وهذا الانقلاب السريع وغير المبرّر بوساطة همزتي الاستفهام في قوله: (أنسيتم) و (أدعوتم)، ثم يذمّهم ويذمّ فعلهم اللئيم في قوله: (بئسما خلفتم نبيّكم في ذريته)، لكن هذا الكلام وهذا الحجاج لم يؤتِ أكله مع قوم طُبع على عقولهم وقلوبهم، فهم لا يفقهون شيئا ولا يعون دورهم ومسؤوليّتهم تجاه ابن بنت نبيّهم وأهل بيته؛ لذلك قاموا برمي برير بالسهام؛ لكي لا يستمر في كلامه وتوبيخه لهم، ومحاجته إيّاهم عسى أن يعودوا إلى رشدهم، بل بقوا على غيّهم وطيشهم وإجرامهم حتى قتلوا الإمام الحسين عليه السلام ومن معه، وأراقوا دماءهم الطاهرة التي روت شجرة الإسلام.

---

(١) مقتل الحسين، ٢٤٣.

خطبة الإمام الحسين عليه السلام الثانية يوم عاشوراء

وبعد هذه الأحداث والأفعال التي أثّرت في الإمام الحسين عليه السلام وفي أهل بيته وأصحابه، خطب عليه السلام خطبته الثانية يوم عاشوراء، إذ "ركب فرسه، وأخذ مصحفا ونشره على رأسه، ووقف بإزاء القوم وقال:

« **يا قوم إن بيني وبينكم كتاب الله وسنّة جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله** »، ثم استشهدهم على نفسه المقدّسة وما عليه من سيف النبي ولامته وعمامته، فأجابوه بالتصديق، فسألهم عما أقدمهم على قتله، قالوا: طاعة للأمير عبيد الله بن زياد"[(١)]، فالحسين عليه السلام يسألهم مستفسرا عن سبب إقدامهم على قتله، بعد أن عرّفهم بنفسه مع أنهم كانوا يعرفونه ونبّههم إلى علاقته برسول الله صلى الله عليه وآله، بوساطة أكثر من إشارة سيميائية، منها ما ظهر عن طريق صورة مرئية تحمل رمزية عالية، ويشاهدها القوم بعيونهم، تمثّلت في حمله سيف جدّه محمد صلى الله عليه وآله، ولبسه لامة حربه وعمامته، ومنها ما ظهر عبر صورة كلامية يسمعها القوم بآذانهم ويفهمونها حين قال: (« **يا قوم إن بيني وبينكم كتاب الله وسنة جدّي رسول** »)، إلا أن ما يلفت النظر في جواب القوم مع معرفتهم بالحسين عليه السلام ونسبه وانتمائه جوابهم المتمثّل في قولهم: (طاعة للأمير عبيد الله بن زياد)، وتقدير كلامهم هو: نقتلك؛ طاعة للأمير عبيد الله بن زياد، فهذا الجواب يدلّ على خسّتهم ودناءتهم وغدرهم بالإمام الحسين عليه السلام، وطاعتهم لابن زياد، مع أن الحسين عليه السلام هو الأولى بالطاعة والاتّباع والنصرة، ولا سيما مع دعوتهم له بوساطة آلاف الكتب التي أرسلوها له ليقدم إليهم، ومع معرفتهم بنسب الحسين عليه السلام ومنزلته ومكانته وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله، ويشير

---

(١) مقتل الحسين، ٢٤٣.

جوابهم أيضا إلى إصرارهم على قتله في الأحوال كلّها، مع معرفتهم بمنزلته والفرق الكبير بينه وبين عبيد الله بن زياد، فهم لم يتردّدوا في جوابهم الوقح للإمام، ولم يستعملوا التورية أو المواربة ليحاولوا إخفاء ما يريدون القيام به أو التدليس عليه، كما أنهم لم يخجلوا منه، مع أنه كان يحمل سيف جدّه النبي، ويلبس لامته وعمامته، ولم يراعوا حرمته وحرمة جدّه، ولم يذكروا الأيادي البيضاء لرسول الله صلى الله عليه وآله عليهم، وإخراجه لهم من ظلمات الجهل والكفر والشرك إلى نور الإيمان والعلم. إن موقف القوم المتمظهر في جوابهم للإمام الحسين عليه السلام يكشف عن نفوس مريضة لئيمة حاقدة طمّاعة أعماها حبّ الدنيا وحبّ جوائز الظالمين، مما أدّى إلى مسخها وحوشا كاسرة على شكل بشر، وإلى عدم تمييزها بين الحقّ الذي يمثله الإمام الحسين عليه السلام ومعسكره، والباطل الذي يمثّله ابن زياد ومعسكره، ومن ثم فإن هذه النفوس المريضة والأمّارة بالسوء جعلتهم ينصرون الباطل على الحقّ، ويقتلون الإمام الحسين عليه السلام قتلة بشعة تنبئ عن حقدهم ولؤمهم، وتشير إلى غدرهم وخسّتهم ودناءة نفوسهم.

واللهُ لا يدع أحدا منهم إلا انتقم لي منه قتلة بقتلة

يختم الإمام الحسين عليه السلام خطبته بقوله: "« **واللهُ لا يدع أحدا منهم إلا انتقم لي منه قتلة بقتلة وضربة بضربة، وإنه لينتصر لي ولأهل بيتي وأشياعي** »"[(١)]، وهو هنا يستشرف المستقبل، ويتوقّع ما سيحصل لقاتليه وظالميه من مصير أسود ينتظرهم، ويحصر مؤكدا انتقام الله تعالى منهم، وقتلهم كما قتلوه، وضربهم كما ضربوه عن طريق توظيف القصر بوساطة النفي والاستثناء في قوله: (« **واللهُ لا يدع أحدا منهم إلا انتقم**

(١) مقتل الحسين، ٢٤٥.

لي منه قتلة بقتلة وضربة بضربة »)، فمثلما قتلوه سيسلّط الله عليهم من يقتلهم، ومثلما ضربوه سيُضربون، وهذا هو العدل الإلهي والانتقام الربّاني الذي يشير إليه كلام الإمام، ثم يؤكّد بوساطة (إنّ) واللام المزحلقة في قوله: (« **وإنه لينتصر لي ولأهل بيتي وأشياعي** ») أن الله تعالى سينتصر له ولأهل بيته وأشياعه في المستقبل القريب عن طريق قتل من قتله ومن معه يوم عاشوراء، وهذا ما عبّر عنه الفعل المضارع (ينتصر) الذي يشير إلى المستقبل الذي سينتقم الله فيه من قتلة الحسين عليه السلام ويخزيهم، وينبئ عن انتصار دم الشهادة على سيف الغدر والظلم والعدوان. وقد أشار الحسين عليه السلام إلى نهايتهم وعاقبتهم السيّئة أيضا في الفقرة التي سبقت هذه الفقرة من خطبته حينما "رفع يديه نحو السماء، وقال:

« **اللهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسنيّ يوسف، وسلّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأسا مصبرة فإنهم كذبونا، وخذلونا، وأنت ربّنا عليك توكّلنا وإليك المصير** »"[١]، فقد أشار دعاؤه عليهم إلى عاقبتهم الوخيمة التي ستحلّ بهم إن قتلوه، وهي أن الله سيسلّط عليهم المختار الثقفي، الذي أشار إليه قوله: (« **غلام ثقيف** »)، الذي سينتقم له من قتلته، وسيقتلهم واحدا تلو الآخر، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله: (« **يسقيهم كأسا مصبرة** ») فقد حملت هذه الجملة إشارة سيميائية واضحة إلى قتلهم في المستقبل، وهذا ما عبّر عنه الفعل المضارع (يسقيهم)، وإلى سقيهم كأس المنيّة المصبرة، وهي المملوءة والممزوجة بالصبر ذي الطعم المر الذي لا يُحتمل، وتجريعهم غصصها من لدن المختار الثقفي، كما قتلوه عليه السلام، وجرّعوه غصصها.

---

(١) مقتل الحسين، ٢٤٥، وينظر: نفس المهموم، ٢٤٩.

أتزعم أنك تقتلني ويولّيك الدعي بلاد الريّ وجرجان؟

بعد خطبته الثانية يوم عاشوراء، "استدعى الحسين عليه السلام عمر بن سعد، فدعي له، وكان كارها لا يحبّ أن يأتيه، فقال:

« **أي عمر، أتزعم أنك تقتلني ويولّيك الدعيّ بلاد الري وجرجان؟ والله لا تتهنأ بذلك، عهد معهود فاصنع ما أنت صانع، فإنك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة، وكأني برأسك على قصبة يتراماه الصبيان بالكوفة، ويتخذونه غرضا بينهم** »، فصرف بوجهه عنه مغضبا"[١]، فالحسين عليه السلام يوظّف في كلامه مع عمر بن سعد أداة النداء (أي) التي تستعمل لنداء القريب؛ ليناديه ويجذب سمعه وينبهه إلى أمر خطير وجرم كبير يريد اقترافه، وهو قتله، ويوظّف همزة الاستفهام التي أفادت معنيي التنبيه والتهكّم في قوله: (أتزعم)؛ لينبهه إلى أن سعيه إلى قتله؛ طمعا في ولاية بلاد الري وجرجان سوف يفشل، ولا يحصل على الولاية أبدا، فضلا عن تهكّمه به وبقائده الدعي ابن الدعي عبيد الله بن زياد، فالحسين عليه السلام يريد أن ينبهه إلى أن حرصه الكبير وسعيه المحموم وإصراره على قتله سوف لا يحقق له أطماعه التي ينشدها وهدفه الذي يرجوه، وهو الولاية، وهو بذلك يقدم له النصيحة، مع أنه جاء لقتله، عسى أن يرجع عما يريد فعله من جريمة شنيعة يندى لها جبين الدهر، إلا أن هذا الرجل، وبسبب انتهازيته وطمعه بالمنصب، عميت بصيرته، فأصبح لا يميز بين الحق والباطل، ولا يميز بين من ينصحه ويريد مصلحته، وبين من يريد اتخاذه وسيلة لتحقيق أهدافه وبناء مجده الزائف على دماء الأبرياء.

---

(١) مقتل الحسين، ٢٤٥.

إن موقف عمر بن سعد من الإمام الحسين عليه السلام يؤشر إلى شخصية هذا الرجل الانتهازي والمحبّ للمنصب والجاه، فهو يسعى إلى الحصول على أي منصب من الظالمين في قبال أي عمل يفعله، حلالا كان أم حراما، مقبولا كان أم غير مقبول، أخلاقيا كان أم غير أخلاقي، بل حتى إن كان هذا العمل متمثلا بقتل سبط النبي محمد صلى الله عليه وآله، وقتل أهل بيته وأصحابه، فالمهم عنده هو الحصول على المنصب. إن هذا الموقف يشير إلى عقدة النقص وعقدة الساديّة عند هذا الرجل، فهو يريد أن يعوّض النقص في شخصيته عن طريق الحصول على المنصب، ويريد التعبير عن ساديّته بممارسة القتل البشع والتلذّذ به مع الحسين عليه السلام وأتباعه، فضلا عن أن هذا الموقف من ابن سعد يشخّص مرضا نفسيا يمكن أن نسميه بمرض (حب المناصب) الذي يصاب به الكثير من الناس في كل زمان ومكان، ولاسيما في هذا الزمن الذي كثر فيه المصابون بهذا الداء، وكثر اللاهثون وراء المناصب، وكثر المستعدّون لتقديم التنازلات كافة، حتى إن كانت على حساب الدين والعقيدة والمبدأ والأخلاق، فالمهم عندهم الحصول على المنصب والحظوة عند السلطان، والغاية هي الجلوس على الكرسي، وأي وسيلة تحقّق لهم هذه الغاية، وأي طريق يوصلهم إلى هذا الهدف، نراهم مستعدين له الاستعداد كله، ومتهيّئين له أحسن التهيؤ، حتى إن كان يؤدي إلى قتل الأبرياء، أو ظلم الناس، أو عمل الحرام، أو الكذب والخداع والمواربة، فالخيارات كلها مفتوحة أمام طموحهم المريض، وهذا ما فعله عمر بن سعد، فقد اقترف جريمة من أبشع الجرائم في التاريخ، وقتل أنفسا طاهرة لا مثيل لها في ذلك الوقت، وداس بسنابك الخيل صدر الإمام الحسين عليه السلام أفضل رجل في زمنه، وحمل رأسه ورؤوس أهل بيته وأصحابه على رؤوس الرماح؛ ليقدّمها هدية إلى أسياده الظالمين، فيحقّق رضاهم عنه؛ ليعطوه المنصب الذي

وعدوه به، ودغدغوا مشاعره ونفسه المريضة به، ذلك المنصب الذي لم يدركه ولم يهنأ به، والذي بيّن له الحسين عليه السلام أنه لن يحصل عليه حتى إن قتله، وأقسم له قائلا: (« **والله لا تتهنأ بذلك، عهد معهود فاصنع ما أنت صانع، فإنك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة** »)، فالإمام يقسم له بلفظ الجلالة؛ لكي يقنعه بحقيقة ما يقول، وينبهه إلى أنه لن يهنأ بقتله الذي أراده طريقا للحصول على المنصب، ولا يهنأ بالمنصب، لأنه لن يظفر به، ثم يؤكد له عن طريق توظيف (إنّ) و (لا) النافية أنه لن يفرح بعد مقتله بدنيا و لا آخرة، ثم يحذّره من عاقبته السيئة في الدنيا، عن طريق جملة تصويرية مخيفة تشدّ المتلقي، وتصوّر، بوساطة كلماتها التي تبعث إشارات سيميائية تصويرية واضحة، مصير ابن سعد المأساوي والأسود الذي ينتظره، إذ يقول له: (« **وكأنّي برأسك على قصبة يتراماه الصبيان بالكوفة، ويتخذونه غرضا بينهم** »)، فهو يبيّن ويصوّر له بشكل دقيق ما سيصيبه في المستقبل، فمثلما سيقتله فإنه سوف يُقتل، ومثلما سيرفع رأسه على الرمح؛ ليقدمه إلى عبيد الله بن زياد ويزيد بن معاوية، فإن رأس ابن سعد سيُرفع على رمح، وينصب غرضا للرماية يتراماه الصبيان في الكوفة ويتخذونه مرمى وهدفا لنبالهم. وهنا يتبادر أمامي سؤال مفاده:

هل أفاد هذا النصح وهذا التحذير الشديد من الحسين عليه السلام مع عمر بن سعد؟ كلا لم يفِد أبدا؛ لأن هذا الرجل مصاب بأكثر من مرض نفسي كما أسلفنا وقد أعمت هذه الأمراض عينيه وقلبه عن فهم كلام الإمام، والتمييز بين الحق والباطل؛ لذلك تقول الرواية التاريخية: إنه بعد سماعه هذا التحذير من الحسين عليه السلام، وبدل أن يشكره على نصيحته وتحذيره له، فإنه صرف بوجهه عنه مغضبا، وبدل أن يرجع عما يريد اقترافه من جريمة نكراء، نجده يتقدم نحو معسكر الحسين عليه السلام، ويرمي بسهم، ويقول:

"اشهدوا لي عند الأمير أني أول من رمى"[١].

لا والله لا تُقتل حتى أقتل دونك

برمية السهم هذه بدأت المعركة وحمى وطيسها، وقتل فيها الكثير من الرجال من المعسكرين، حتى زالت الشمس، وحان وقت صلاة الظهر، فقال أبو ثمامة الصائدي للحسين عليه السلام:

"نفسي لك الفداء. إني أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، لا والله لا تُقتل حتى أقتل دونك، وأحب أن ألقى الله وقد صلّيت هذه الصلاة التي دنا وقتها، فرفع الحسين عليه السلام رأسه إلى السماء وقال:

« **ذكرت الصلاة. جعلك الله من المصلين الذاكرين، نعم هذا أول وقتها. سلوهم أن يكفوا عنا حتى نصلي** ».

فقال الحصين: إنها لا تقبل"[٢]. إن ما يثير المتلقي في هذا الحوار القصير الذي دار في أرض المعركة بين الحسين عليه السلام وأبي ثمامة الصائدي أنه أشار إلى عدة أمور يمكن إدراجها في نقاط، كما يأتي:

١. إخلاص هذا الرجل الكبير للإمام الحسين عليه السلام جعله يسعى إلى القتل والشهادة دونه، ودفاعا عنه وعن المبادئ التي يحملها، لذلك يقول: (لا والله لا تُقتل حتى أقتل دونك)، موظفا القسم بلفظ الجلالة، والنفي ب (لا) النافية، أن الحسين عليه السلام لا يقتل ولا ينال منه الأعداء حتى تتحقق غايته التي أشارت إليها (حتى) الغائية، وهي أن يُقتل دفاعا عنه وقبل مقتله.

---

(١) مقتل الحسين، ٢٤٧.

(٢) مقتل الحسين، ٢٥٣ – ٢٥٤، وينظر: نفس المهموم، ٢٧٠.

٢. الشجاعة والبطولة التي يتمتع بها جعلته لا يأبه بالقتل والموت دون الحسين عليه السلام، ولا يكترث به، ولا يخاف منه أبدا، هذه الشجاعة النادرة أشارت إليها كلماته وقسمه وغايته التي يرجوها بعزة وإباء، وهي القتل دون إمامه عليه السلام.

٣. اليقين الراسخ والعقيدة الثابتة التي لا يزعزعها الخوف من القتل أبدا، فضلا عن الإيمان الكبير الذي تمظهر في قوله: (وأحب أن ألقى الله وقد صلّيت هذه الصلاة التي دنا وقتها)، فيقينه وعقيدته وإيمانه جعله يحبّ لقاء الله تعالى، ويتمنّى أن يلقاه ويستشهد في أرض المعركة وقد أدى صلاة الظهر.

٤. علاقة المؤمن بالصلاة، وحفاظه عليها في أقسى الظروف وأشد المواقف خطرا وحراجة، فلم تمنعه شدة المعركة، وشراسة العدو، وغدره، وعدم اكتراثه بأمر الصلاة من التذكير بوقتها، والحرص الصادق على إقامتها، كذلك لم تمنع هذه الظروف الإمام الحسين عليه السلام من إقامة الصلاة، فقد طلب سؤال القوم أن يكفّـوا عنهم ويوقفوا المعركة من أجل إقامة الصلاة، فضلا عن أن دعاءه لأبي ثمامة الصائدي يدلّ على أهمية الفعل الذي قام به الرجل، وهو ذكر الصلاة والتذكير بدخول وقتها، وفي هذا الفعل حجّة على كل إنسان لا يصلّي، أو يصلّي من دون حرص على صلاته أو حفاظ على أوقاتها. إننا نجد كثيرا من المصلّين يتساهلون في أداء صلواتهم، ولا يحافظون على أدائها في وقتها، بل يؤخّرونها دون عذر وبحجج واهية، في حين أن مشهد إقامة الصلاة يوم عاشوراء، وفي أرض المعركة، وتحت رشقات نبال العدو وسهامه، الذي لم يستجب لطلب الإمام الحسين عليه السلام بأن يكفّـوا عنهم ويوقفوا المعركة في أثناء إقامة الصلاة يشكّل حجّة على كل إنسان، ودافعا له على أن لا يؤخّر صلاته عن وقتها، ولا يتعاجز عن أدائها كما أرادها الله تعالى.

قتلة مثل قتلة النبيين وآل النبيين

نزل الحر الرياحي إلى أرض المعركة، وأبلى بلاءً حسنا، وقاتل قتال الأبطال، فهو البطل المعروف والمقاتل الصنديد في سوح القتال، وحينما حُمل من أرض المعركة إلى فسطاط الشهداء، قال الإمام الحسين عليه السلام.

" « **قتلة مثل قتلة النبيين وآل النبيين** ». ثم التفت إلى الحر، وكان به رمق، فقال له وهو يمسح الدم عنه: « **أنت الحر كما سمّتك أمك، وأنت الحر في الدنيا والآخرة** »"[١]. إن إنعام النظر في هذا النص يظهر أنه مشحون بالقتل، إذ تتكرر كلمة (قتلة) مرتين، فالحسين عليه السلام يشبّه قتلة الحر الرياحي واستشهاده في سبيل الله تعالى بقتلة النبيين وآل النبيين واستشهادهم، وقد وظف أداة التشبيه (مثل) بقصدية واضحة، ولم يوظف أداتي التشبيه (الكاف) أو (كأن)؛ لأن أداة التشبيه (مثل) "تمثل الدرجة العالية من درجات التشابه بين الشيئين"[٢]، وأراد الحسين عليه السلام أن يبينّ الدرجة العالية من درجات التشابه بين قتلة الحر واستشهاده في سبيل الله، ودفاعا عن دينه وعقيدته وإمام زمانه وقتلات النبيين وآل النبيين دفاعا عن الدين والعقيدة. إن هذا التشابه الكبير بين القتلتين عن طريق توظيف أداة التشبيه (مثل) يشير سيميائيا إلى المنزلة الكبيرة التي حظي بها الحر الرياحي بقتله واستشهاده مع الحسين عليه السلام، مع أنه هو الذي جعجع به وحاصره في أرض كربلاء وسلّمه بيد الأعداء، وفي ذلك إشارة واضحة ودلالة بيّنة على صحّة توبة الحر، وقبول هذه التوبة، ومن ثم الحصول على المنزلة العالية التي حصل عليها، والتي

---

(١) مقتل الحسين، ٢٥٥.

(٢) البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي، د. محمود البستاني، دار الفقه للطباعة والنشر، إيران، ط ١، ١٤٢٤ هـ، ٩٤.

عبّر عنها قول الإمام المعصوم بأنها قتلة تشبه بشكل كبير قتلة النبيين وآل النبيين، ومن الجدير بالذكر أن جملة: (« **قتلة مثل قتلة النبيين وآل النبيين** ») كررها الإمام عليه السلام مع عدد من شهداء واقعة الطف، وفي ذلك دلالة واضحة على درجاتهم العالية التي حصلوا عليها باستشهادهم مع الإمام الحسين عليه السلام.

إن هذا الحدث العاشورائي المهم، وقول الإمام الحسين عليه السلام الذي صاحبه يشكّل حجّة واضحة وبرهانا جليّا لكل إنسان بعيد عن الله، ولا يفكّر بالتوبة في يوم من الأيام، بحجّة أن ذنوبه كثيرة ولا يغفرها الله تعالى، فباب التوبة مفتوح لكل إنسان مهما كثرت ذنوبه وعظمت، فهذا الحر الرياحي يأتي إلى الحسين عليه السلام تائبا نادما معترفا بما اقترفه من ذنب قائلا: "جعلت فداك يا بن رسول الله. أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع، وسايرتك في الطريق، وجعجعت بك في هذا المكان، وما ظننتُ أن القوم يردّون عليك ما عرضته عليهم، ولا يبلغون منك هذه المنزلة. والله لو علمت أنهم ينتهون بك إلى ما أرى ما ركبت منك الذي ركبت، وإني تائب إلى الله مما صنعت، فترى لي ذلك توبة؟

فقال له الحسين عليه السلام: « **نعم يتوب الله عليك** »"[١]، فالحر يخبر الإمام ويؤكّد له أنه تائب إلى الله مما صنع بوساطة الجملة الخبرية (وإني تائب إلى الله مما صنعت)، ثم يسأله عن توبته، وهل هي مقبولة من الله عز شأنه، فيجيبه بكل هدوء وإيجاب وقبول له ولتوبته الصادقة بقوله: (« **نعم يتوب الله عليك** »)، من غير لومه أو معاتبته أو تعنيفه على فعله الذي فعله وذنبه الذي اقترفه، مع فداحته وكونه سببا رئيسا فيما حصل للحسين وأهل بيته وأصحابه، ثم كانت نتيجة هذه التوبة الصادقة والخالصة أن دفع حياته ثمنا لتوبته وإيمانه، واستشهد في سبيل الله، فمنحه الحسين عليه السلام هذا الوسام الخالد

---

(١) نفس المهموم، ٢٥٥.

الذي يدلّ على قبول توبته، ومنزلته الكبيرة التي ناها جراء توبته وشهادته قائلا له: (« **قتلة مثل قتلة النبيين وآل النبيين** »)، ومردفا بقوله: (« **أنت الحر كما سمّتك أمك، وأنت الحر في الدنيا والآخرة** »)، وفي هذا القول دلالة سيميائية واضحة يحملها اسم الحر، فكما أسمته أمه بالحر، فقد بقي حرا، ولم يذعن للظالمين، ولما يريدونه منه، ولم يكن عبدا ذليلا لهم يحقق ما يطلبونه منه وهو قتال الإمام الحسين عليه السلام، بل بقي حرا أبيا حتى انتقل من معسكر الكفر والظلم إلى معسكر الإيمان والعدل، واستشهد دفاعا عن الدين والعقيدة، ودفاعا عن إمام زمانه.

قتلني الله إن لم أقتلك

حينما استشهد عمرو بن قرظة الأنصاري، توجّه أخوه علي بن قرظة الأنصاري، وكان مع جيش عمر بن سعد، باللوم على الإمام الحسين عليه السلام قائلا:

"يا حسين يا كذاب غررت أخي حتى قتلته.

فقال عليه السلام: « **إني لم أغر أخاك، ولكن الله هداه وأضلّك** ».

فقال: قتلني الله إن لم أقتلك"[(١)]، فهذا الرجل يتحدث بكل جرأة ووقاحة وعدم تأدب مع الإمام الحسين عليه السلام، متهما إياه بالكذب، وبأنه غرّ أخاه عمرو بن قرظة الأنصاري حتى قتل معه ودفاعا عنه، فقد كانت قتلته تدلّ على شجاعته النادرة وتفانيه في الدفاع عن الإمام الحسين عليه السلام حتى جعل جسمه درعا واقيا له، إذ وقف عمرو بن قرظة "أمام الحسين عليه السلام يقيه من العدو، ويتلقى السهام بصدره وجبهته، فلم يصل إلى الحسين عليه السلام سوء، ولما كثر فيه الجراح التفت إلى أبي عبد الله وقال:

(١) مقتل الحسين، ٢٥٨.

أَوَفيت يا بن رسول الله؟

قال: « **نعم أنت أمامي في الجنة، فأقرئ رسول الله مني السلام، وأعلمه أني في الأثر** »، وخرّ ميتا"[١]. إن هذا الموت الشجاع والشهادة في سبيل الله، ودفاعا عن الإمام الحسين عليه السلام، وهذا الإخلاص النادر، جعل علي بن قرظة، الذي اختار أن يكون مع الباطل ضد الحق، جعله يستشيط غيظا وحقدا على الإمام الحسين عليه السلام، ويتوعّده بالقتل قائلا: (قتلني الله إن لم أقتلك)، داعيا على نفسه بأن يقتله الله، موظّفا الفعل الماضي (قتلني)، إن لم يقتل الحسين عليه السلام، ويشير قوله هذا إلى لؤمه وحقده على الإمام الحسين عليه السلام، وإلى إصراره على قتله؛ انتقاما لأخيه، ونصرة للظالمين.

إذا عقدنا مقارنة بين قول أبي ثمامة الصائدي: (لا والله لا تُقتل حتى أقتل دونك، وأحبّ أن ألقى الله وقد صلّيت هذه الصلاة التي دنا وقتها)، الذي سبق المرور عليه، وبين قول علي بن قرظة الأنصاري: (قتلني الله إن لم أقتلك)، فإننا نجد الفرق الجلي بين النهجين، نهج أصحاب الحسين عليه السلام الذين تفانوا في الدفاع عن الدين والعقيدة وعن إمامهم السبط، وبين نهج أتباع عمر بن سعد وعبيد الله بن زياد الذين امتلأوا بغضا للإمام الحسين عليه السلام وحقدا عليه، وسعوا بكل ما يملكون من قوة لقتله، ونجد الفرق الكبير بين التربية الحسينية التي ربى بها الإمام الحسين عليه السلام أهل بيته وأصحابه، حتى وصلوا إلى هذه الدرجة العالية من الإيمان والإخلاص والشجاعة واليقين، التي جعلتهم يُقبلون على الموت والشهادة بنفس مطمئنّة، وروح وثّابة، ويقين راسخ، وقناعة كبيرة، حتى وصلوا إلى درجة تمنّي القتل والموت من أجل الدين والعقيدة، وحماية لإمامهم المفدى، فلم يكتفوا بعدم الخوف من الموت، بل كانوا يتمنون

---

(١) مقتل الحسين، ٢٥٨.

الموت ويسعون إليه بكل طريقة؛ لينالوا شرف الشهادة مع الإمام الحسين عليه السلام، وبين تربية عمر بن سعد وعبيد الله بن زياد ويزيد بن معاوية لأتباعهم الذين تربوا على اللؤم والحقد ورذائل الأخلاق والطباع، حتى وصلوا إلى هذه الدرجة العالية من الحقد والخسّة والفساد والكفر والابتعاد عن الله تعالى، التي مسختهم وحوشا ضارية تسعى بكل قوة وإصرار إلى قتل الإمام المعصوم وسبط النبي الأعظم صلى الله عليه وآله بعدائية ووحشية قلّ نظيرها في التاريخ الإنساني؛ نصرة للظالمين، وطمعا في جوائزهم الدنيوية. إن هذه المقارنة بين القولين والتأمل السيميائي فيهما يعطينا إشارات واضحة لا مراء فيها إلى الفرق الكبير بين النهجين، نهج الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه الذي يمثل الإيمان والحق، ونهج عمر بن سعد وعبيد الله بن زياد ويزيد بن معاوية الذي يمثل الكفر والباطل.

يا قوم لا تقتلوا حسينا فيسحتكم الله بعذاب

نزل حنظلة بن أسعد الشبامي إلى أرض المعركة مناديا بجيش عمر بن سعد:

"يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، وما الله يريد ظلما للعباد، يا قوم إني أخاف عليكم يوم التنادي تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم، ومن يضلل الله فما له من هاد، يا قوم لا تقتلوا حسينا، فيسحتكم الله بعذاب وقد خاب من افترى"(١). إن الناظر في هذا النص الذي قاله أحد أصحاب الحسين عليه السلام يجد الإشارية الواضحة إلى آيات القرآن الكريم، والتناص الجلي بين قول حنظلة وآيات القرآن، مما يظهر أثر التربية الحسينية في هذا الرجل وغيره، ومما

(١) مقتل الحسين، ٢٦١.

يبيّن عمق الأثر القرآني في عقل هذا الرجل وروحه، بحيث جاء كلامه مشحونا بالتناص القرآني، ومؤشرا إلى عمق إيمانه، وقد أراد من كلامه وندائه إلى معسكر عمر بن سعد أن يبيّن لهم سوء عاقبة الأقوام الظالمين الذين ظلموا أنبياءهم ورسلهم، ومارسوا معهم أبشع الأساليب؛ من أجل ردعهم ومنعهم عن نشر دين الله وإقامة الحق وإبطال الباطل كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأقوام الضالين، ثم حذّرهم وأظهر خوفه عليهم من عاقبتهم السيئة يوم القيامة إذا بقوا على موقفهم من الحسين عليه السلام، ثم نهاهم ب (لا) الناهية، والفعل المضارع (تقتلوا) عن فعل خطير يريدون القيام به، هو قتل الإمام الحسين؛ لأن نتيجة قتله ستكون شديدة عليهم بأن يسحتهم الله بعذاب شديد في الدنيا والآخرة، كما عذّب وأخزى الأقوام الذين سبقوهم في الدنيا، وأوعدهم بعذاب شديد في الآخرة، ولكن هذا التحذير لهم، وهذا الخوف عليهم، وهذا الحوار الحضاري معهم لم يُجْدِ نفعا، ولم يأت بنتيجة؛ لأنهم لا يفهمون هذا الحوار، ولا يفقهون هذا الكلام النابع من عقل وقلب مؤمن بالله تعالى؛ ولأنهم قد استوجبوا العذاب، بحسب ما جاء في كلام الحسين عليه السلام حينما جزى حنظلة خيرا على موقفه وكلامه مع القوم قائلا:

"« **رحمك الله. إنهم قد استوجبوا العذاب حين ردّوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق، ونهضوا إليك؛ ليستبيحوك وأصحابك، فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين؟** »"[١]، وهنا يبينّ الإمام عاقبتهم السيئة؛ بسبب ما فعلوه من أفعال إجرامية لئيمة، ومنها قتلهم أصحاب الحسين عليه السلام الذين وصفهم بقوله: (إخوانك الصالحين)، مشيرا إلى إيمانهم وصلاحهم ودرجاتهم العالية التي حصلوا عليها بموقفهم مع إمامهم، وتضحيتهم بأرواحهم.

(١) مقتل الحسين، ٢٦٢.

موقف شوذب

وفي أرض المعركة أقبل عابس بن شبيب الشاكري على شوذب، وقال له:

"يا شوذب ما في نفسك أن تصنع؟

قال: ما أصنع؟ أقاتل معك دون ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله؛ حتى أقتل.

قال: ذلك الظن بك، فتقدمْ بين يدي أبي عبد الله عليه السلام؛ حتى يحتسبك كما احتسب غيرك من أصحابه؛ وحتى أحتسبك أنا، فإنه لو كان معي الساعة أحد وأنا أولى به مني بك لسرّني أن يتقدم بين يدي؛ حتى أحتسبه، فإن هذا يوم ينبغي لنا أن نطلب الأجر فيه بكل ما قدرنا عليه، فإنه لا عمل بعد اليوم، وإنما هو الحساب"[١]. إن هذه الحوارية المشحونة بالإيمان بالله تعالى، وحبّ الحسين عليه السلام، والسعي إلى القتل والشهادة دونه تنبئ عن نفوس كبيرة ومؤمنة، ورجال وطّنوا أنفسهم على القتل والشهادة في سبيل الله ودفاعا عن الحسين عليه السلام، ومن هؤلاء الرجال عابس بن شبيب الشاكري ومولاه شوذب، ففي سؤال عابس لشوذب دلالة نفسية واضحة، حينما قال له: (يا شوذب ما في نفسك أن تصنع؟)، مستفهما بوساطة (ما) الاستفهامية ومستكنها ما في نفس هذا الرجل، وما يريد فعله يوم عاشوراء، مع تصاعد الأحداث واشتداد المعركة، فجاءه الجواب مبيّنا ما في نفس شوذب، ومظهرا بإشارات لغوية واضحة ما يريد فعله، فقال: (ما أصنع؟ أقاتل معك دون ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله؛ حتى أقتل)، إذ يبدأ جوابه باستفهام بوساطة (ما) الاستفهامية؛ ليشير إلى ما في نفسه، وكأنه يقول

(١) نفس المهموم، ٢٨١.

لعابس: ماذا تريدني أن أصنع في هذا الموقف، وهذا الوضع الخطير سوى القتال معك دون الحسين عليه السلام؟، ثم وظّف الفعل المضارع (أقاتل) الذي يشير إلى استمراره بالقتال حتى آخر قطرة من دمه مع عابس ودون الإمام الحسين عليه السلام ودفاعا عنه؛ حتى تتحقّق غايته التي يرجوها ويسعى إليها، التي أشارت إليها (حتى) الغائية، وهي القتل والشهادة، فهذه الغاية هي المطلوبة، وبعد أن سمع عابس هذا الجواب المفعم بالشجاعة والبطولة والإقدام على القتل والموت من دون وجل أو إحجام قال له: (ذلك الظن بك)، مشجّعا ومعطيا له من الدافعية للتقدّم والقتال بين يدي الحسين عليه السلام حتى الموت، ثم ختم حواره بقوله: (فإن هذا يوم ينبغي لنا أن نطلب الأجر فيه بكل ما قدرنا عليه، فإنه لا عمل بعد اليوم، وإنما هو الحساب)، مؤكدا بوساطة (إن) أن يوم عاشوراء هو يوم طلب الأجر من الله تعالى بكل ما يقدرون عليه؛ لأنه يوم لا يعوّض ولا يتكرر، ومؤكدا في قوله: (فإنه لا عمل بعد اليوم، وإنما هو الحساب) أنه لا عمل بعد يوم عاشوراء، نافيا بوساطة (لا) النافية للجنس وجود أي عمل بعد هذا اليوم؛ لأنهم سيموتون، فهذه الجملة ترمز إلى موتهم القريب، وإلى سعيهم الصادق وراءه؛ ليمسكوا به، ويحصلوا على الشهادة مع الإمام الحسين عليه السلام، ويكونوا مطمئنين يوم الحساب الذي أشار إليه قوله: (وإنما هو الحساب)، حاصرا ومؤكدا على هذا المعنى دون غيره بوساطة (إنما)، ومشيرا إلى أن أيام الدنيا قد انتهت بالنسبة إليهم، وبدأت منازل الآخرة وأيامها، وفي قوله هذا إشارات واضحة إلى الإيمان واليقين الكبير الذي وصل إليه أصحاب الحسين عليه السلام.

أما إنكم لا تقتلون رجلا بعدي فتهابون قتله

بعـد أن بقي الإمام الحسين عليه السلام وحيـدا في أرض المعركة، وقاتل قتالا شديدا، "رماه أبو الحتوف الجعفي بسهم في جبهته، فنزعه وسالت الدماء على وجهه، فقال:

« **اللهم إنك ترى ما أنا فيه من عبادك هؤلاء العصاة، اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تذر على وجه الأرض منهم أحدا، ولا تغفر لهم أبدا** »، وصاح بصوت عالٍ:

« **يا أمة السوء بئسما خلفتم محمدا في عترته، أما إنكم لا تقتلون رجلا بعدي فتهابون قتله، بل يهون عليكم ذلك عند قتلكم إياي** »"[(١)]. تكرر ذكر القتل في هذا النص أربع مرات، إذ ورد أولا بوساطة فعل الأمر (اقتل) الذي خرج إلى معنى الدعاء، فالحسين عليه السلام يدعو على أعدائه بأكثر من دعاء، ومنها قوله: (« **اقتلهم بددا** »)، أي: اللهم اقتلهم متفرقين متبددين، فمثلما قتلوا أهل بيته وأصحابه، ويسعون الآن إلى قتله بكل إصرار وإجرام، فإنه يسأل الله تعالى أن ينتقم منهم، ويقتلهم قتلة يستحقونها؛ جزاءً على جرائمهم التي اقترفوها وحقدهم الأعمى، ثم يشير بعد ذلك في قوله: (« **أما إنكم لا تقتلون رجلا بعدي فتهابون قتله، بل يهون عليكم ذلك عند قتلكم إياي** ») إلى مرض نفسي خطير سيصيبهم بعد جرأتهم على قتله، وهو أنهم سيستسهلون عملية قتل الناس والأبرياء ولا يهابونها، ويصبحون مجرمين عتاة ذوي قلوب متحجرة قاسية وسفّاكين للدماء، ولا يتورّعون عن قتل أي إنسان مهما كانت منزلته، ومهما كان انتماؤه، وهذه حالة نفسية خطيرة تصيب الإنسان وتجعله كائنا خطيرا جدا على المجتمعات، وتمسخه وحشا كاسرا، فحاجز التهيّب والتردد في القتل والإجرام الذي يكون عادةً عند الإنسان

(١) مقتل الحسين، ٢٩٢.

الطبيعي والسوي سيتجاوزونه بعد قتلهم أعظم شخصية في زمانهم، وهي شخصية الإمام الحسين عليه السلام، وعند تجاوزهم هذا الحاجز، وهذا الخط الأحمر، سيهون عليهم تجاوز بقية الحواجز والخطوط الحمراء، وسيصبحون قتلة محترفين لامعنى للإنسانية في قلوبهم، وهذا ما يريده الطغاة من أتباعهم.

إن الطغاة الظالمين المتجبرين يحبون هذا النوع من الناس المجرمين السفّاكين للدماء الذين لا تتحكّم بهم عقولهم، بل يتحكّم بهم قادتهم المجرمون، وأنفسهم الأمارة بالسوء، ونزواتهم وأطماعهم؛ لأنهم يحققون لقادتهم أهدافهم التي يريدون، ويقتلون كل إنسان يقف في طريق تحقيق أهدافهم وأطماعهم، وقد أراد الإمام عليه السلام أن ينبههم إلى هذه العاقبة السيئة التي سيصلون إليها؛ بسبب جرأتهم على قتله، لذلك يقسم بعد قوله الذي سبق ذكره قائلا:

"« **وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بالشهادة، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون** ».

فقال الحصين: وبماذا ينتقم لك منا يا ابن فاطمة؟

قال: « **يلقي بأسكم بينكم، ويسفك دماءكم، ثم يصبّ عليكم العذاب صبا** »"(١)، فالحسين عليه السلام يؤكد بوساطة ثلاثة توكيدات هي القسم، و(إنّ)، واللام، وبكل يقين واطمئنان نفسي أن الله عزّ ذكره سيكرمه بالشهادة، في حين أنه تعالى سينتقم له من أعدائه الذين قتلوه، ويبدو أن هذا التأكيد والتوقّع والاستشراف الحسيني للمستقبل لم يرُقْ لأحد عتاة أعدائه، وهو الحصين؛ لذلك أجابه مستفهما بوساطة (ماذا)، ومتهكما عن كيفية انتقام الله له منهم، فيجيبه الإمام بأن انتقام الله منهم سيكون بثلاث طرائق:

(١) مقتل الحسين، ٢٩٢.

أولها أن يلقي بأسهم بينهم.

وثانيها أن يسفك دماءهم، كما سفكوا دمه الطاهر ودماء أهل بيته وأصحابه.

وثالثها أن الله تعالى سيصبّ عليهم العذاب الشديد صبا.

وقد وظّف في جوابه للحصين الأفعال المضارعة (يلقي) و (يسفك) و (يصبّ)؛ مستشرفا المستقبل، ومتوقّعا عاقبتهم السيئة، ومبيّنا ما سيصيبهم جراء عملهم الإجرامي اللئيم، كما أنه بيّن عاقبتهم في الدنيا في قوله: (« **يلقي بأسكم بينكم، ويسفك دماءكم** »)، وبيّن سوء عاقبتهم الأخروية في قوله: (« **ثم يصبّ عليكم العذاب صبا** »)، موظّفا حرف العطف (ثم) الذي يفيد الترتيب والتراخي؛ لأنه يشير إلى عذاب الآخرة بعد عذاب الدنيا، ومؤكدا بوساطة المصدر (صبّا)، الذي وقع مفعولا مطلقا، صبّ العذاب الشديد عليهم في الآخرة، وقد ورد الانزياح الأسلوبي بوساطة تقديم الجار والمجرور (عليكم) على المفعول به (العذاب) والمفعول المطلق (صبّا)، مشيرا إلى معنى الاختصاص، ومبيّنا خصّهم بهذا النوع من العذاب الشديد والمهين؛ بسبب ما اقترفوه من جرم كبير، ولكن هل من متعظ وحذِر من هذه التنبيهات والنصائح؟!.

إلهي إنك تعلم أنهم يقتلون رجلا ليس على وجه الأرض ابن بنت نبي غيري

بعد أن تعب الحسين عليه السلام؛ بسبب القتال الشديد والعطش "وقف يستريح، فرماه رجل بحجر على جبهته، فسال الدم على وجهه، فأخذ الثوب؛ ليمسح الدم عن عينيه، فرماه آخر بسهم محدد له ثلاث شعب وقع على قلبه، فقال:

« **بسم الله وبالله وعلى ملّة رسول الله** »، ورفع رأسه إلى السماء وقال:

« إلهي إنك تعلم أنهم يقتلون رجلا ليس على وجه الأرض ابن بنت نبي غيري »"[١]، فبعد أن حصل له ما حصل توجّه بالشكوى إلى الله عز ذكره على ما يفعله هؤلاء الكفرة الفجرة القساة من جرم كبير سيفجع الإنسانية إلى يوم القيامة، إذ يشكو إلى ربه سعي الأعداء إلى قتله، بعدما قتلوا أهل بيته وأصحابه، ولم يسْلم من إجرامهم وبطشهم حتى الأطفال، وهو بشكواه هذه يعلن عن كفرهم ولؤمهم وقبحهم؛ لأنهم يتجرؤون على قتل شخصية لا نظير لها وإنسان لا مثيل له، وليس على وجه الأرض شبيه له، فهو ابن بنت نبيهم، وخامس أصحاب الكساء، وأفضل رجل في ذلك الزمان، ومن ثم فإن فعل الحسين عليه السلام هذا يمثل إشهارا وفضحا لهؤلاء القتلة المجرمين، ولفعلهم الإجرامي اللئيم، ولقلوبهم الحاقدة التي استحالت أحجارا صمّاء؛ بسبب حب الدنيا والركون إليها عن طريق الوقوف مع الباطل ضد الحق، ومساندة الظالمين الكافرين ضد القادة المؤمنين والمصلحين الرساليين الذين يسعون إلى الإصلاح.

اللهم احكم بيننا وبين قومنا

يستمر الإمام الحسين عليه السلام في الدعاء على أعدائه وفضحهم والتشهير بجرائمهم النكراء التي فعلوها، فبعدما سقط عن فرسه على أرض المعركة مضرجا بدمه، وبعد سلسلة أحداث مؤلمة، توجّه بالدعاء إلى الله تعالى، وكان من دعائه:

"**« اللهم احكم بيننا وبين قومنا فإنهم**

غـــــــرّونا،

وخذلـــــونا،

(١) مقتل الحسين، ٢٩٢.

وغـــدروا بنا،

وقتلـــــــونا،

ونحن عترة نبيّك وولد حبيبك محمد صلى الله عليه وآله الذي اصطفيته بالرسالة وائتمنته على الوحي، فاجعل لنا من أمرنا فرجا ومخرجا يا أرحم الراحمين »"[١]، إذ بدأ هذه الجملة الإنشائية بالتوجه إلى الله تعالى وندائه بصيغة النداء (اللهم)، ثم وظّف فعل الأمر (احكم) الذي خرج إلى الدعاء والطلب من الله تعالى؛ ليحكم بينه وبين هؤلاء القوم الظالمين الذين نسبهم إليه في قوله: (قومنا)؛ لأنهم فعلا كانوا قومه ومناصريه في بداية الأمر، لكنهم انقلبوا عليه بعد تطوّر الأحداث، وقدوم ابن زياد إلى الكوفة، ثم بيّن أسباب دعائه عليهم، إذ بدأها بقوله: (غرّونا)،وأنهاها بقوله: (قتلونا)، وهي كما يأتي:

١ . أنهم كذّبوا على الإمام، وغرّوه بالقدوم إلى الكوفة، وأخبروه بوساطة آلاف الكتب التي أرسلوها له عن استعدادهم للقتال معه والتضحية بكل شيء؛ من أجل الخلاص من حكم بني أمية وظلمهم وبطشهم، وتحقيق أهداف نهضته المباركة التي نادى بها، وسعى إلى تحقيقها، وقد ذكّرهم الحسين عليه السلام بمواقفهم تلك، وبكتبهم التي أرسلوها في خطبته الأولى يوم عاشوراء حينما قال:

"« **يا شبث بن ربعي، و يا حجار بن أبجر، و يا قيس بن الأشعث، و يا زيد بن الحارث ألم تكتبوا إلي أن أقدم قد أينعت الثمار، واخضرّ الجناب، وإنما تقـــدم على جـند لك مجنّدة** »"[٢]، عسى أن يتراجعوا عن موقفهم، لكنهم أنكروا أنهم كتبوا إليه، وأصروا على قتاله وقتله.

---

(١) مقتل الحسين، ٢٩٦.

(٢) مقتل الحسين، ٢٣٨.

٢. خذلانهم للحسين عليه السلام، وعدم مساندته ومناصرته والقتال معه، بعد أن وعدوه بذلك، وهو يشير إلى هذا الخذلان في خطبته الثانية يوم عاشوراء إذ قال:

"« **تبا لكم أيتها الجماعة وترحا، أحين استصرختمونا والهِين، فأصرخناكم موجفين سللتم علينا سيفا لنا في أيمانكم، وحششتم علينا نارا اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلبا لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم** »"[(١)]، إذ يشير في هذا الجزء من الخطبة إلى خذلانهم له، فبعد أن استصرخوه وطلبوا عونه، وهم في حالة وَلَهٍ وحزن شديد وخوف كبير مما يفعله بهم عتاة بني أمية، وبعد ان أجاب صرختهم واستغاثتهم بشكل سريع؛ حفاظا عليهم وإنقاذا لهم من ظلم الأمويين، فإذا بهم يفاجئونه بخذلانهم وعدم وقوفهم معه وقتالهم في صفّه، بل فعلوا ما لم يكن متوقعا أبدا بأن سلّوا سيوفهم التي تحسب له عليه، وأوقدوا نارا كان قد أوقدها معهم على أعدائهم ضدّه، فأصبحوا بهذا الفعل المشين، وهذا الخذلان الغادر، مجتمعين مع أعدائهم ضده، بغير عدل أفشوه فيهم، ولا أمل لهم في هؤلاء الأعداء، وهذه هي المفارقة الكبيرة والمفاجأة غير المتوقعة من هؤلاء الناس الغادرين. إن كلام الإمام الحسين عليه السلام هذا يظهر "أن حركته نحو الكوفة كانت استجابة لنداء الناس المظلومين، ولكي يشعل بالقوى التي أعدّها ممثلهُ مسلم بن عقيل نارا تحرق جذور الاستبداد، وتهدم قصر الظلم على أهله؛ ليقيم على أنقاضه حكومة إسلامية عادلة مائة بالمائة، كما يتضح من كلمات الحسين بن علي عليه السلام النارية تلك، أن الظروف كانت مساعدة لانتصار الإمام على العدو، وأن هدف حركته كان إسقاط حكومة الظلم، وإقامة برنامجه

---

(١) مقتل الحسين، ٢٤٣.

الإصلاحي الواسع"[١]، إلا أن خذلانهم له، وغدرهم به حال دون ذلك.

٣. غدرهم بالإمام وعدم وفائهم بالعهود التي قطعوها له، وقد أشار إلى هذا الأمر في خطبته الثانية يوم عاشوراء، إذ قال لهم:

"« **تركتمونا والسيف مشيم، والجأش طامن، والرأي لما يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدّبا، وتداعيتم عليها كتهافت الفراش، ثم نقضتموها، فسحقا لكم يا عبيد الأمة، وشذّاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرّفي الكلم، وعصبة الإثم، ونفثة الشيطان، ومطفئي السنن. وَيْحَكُم أهؤلاء تعضدون، وعنا تتخاذلون؟! أجل والله غدر فيكم قديم، وشجت عليه أصولكم، وتأزرت فروعكم، فكنتم أخبث ثمرة، شجى للناظر وأكلة للغاصب** »"[٢]، فهو يخبر عن غدرهم به وتركهم له، ونقضهم لعهودهم التي قطعوها له، ثم يدعو عليهم، ويفضحهم، ويشهّر بهم عن طريق ذكر صفاتهم السلبية التي اتصفوا بها، فهم عبيد الأمة

وشذّاذ الأحزاب

وتاركو القرآن الكريم ونابذوه

ومحرّفو الكلام الصحيح ومغيّروه؛ من أجل مصالحهم الدنيوية

وعصبة الإثم الذين اجتمعوا على قتله عليه السلام

ونفثة الشيطان التي نفثها؛ لسفك دماء ذرية النبي الخاتم صلى الله عليه وآله، وهم من

---

(١) الشهيد الخالد الحسين بن علي، الشيخ نعمة الله صالحي نجف آبادي،، ترجمة: د. سعد رستم، دار الانتشار العربي، بيروت، ط ١، ٢٠١٣، ٨٨.

(٢) مقتل الحسين، ٢٤٣ – ٢٤٤.

يسعى إلى إطفاء سننه وسنن الأنبياء السابقين له، ثم يوظّف همزة الاستفهام التي جاءت بثلاثة معانٍ هي الإنكار والتوبيخ والتعجّب من فعلهم الغادر هذا في قوله: (« **وَيْحَكُم أهؤلاء تعضدون، وعنا تتخاذلون؟!** »)، ثم يجيب عن الاستفهام، ويقسم بلفظ الجلالة أن ما فعلوه من فعل غادر ولئيم كان بسبب الغدر القديم الذي تربوا عليه، ووشجت وغلبت عليه أصولهم، وقويت فروعهم الخبيثة، فكانت النتيجة أن أصبحوا أخبث ثمرة، وأسوأ رجال يريدون قتل الحسين عليه السلام بكل غدر وخبث وإصرار. إن كلام الإمام هذا، ووصفه الدقيق لهم يبعث من الإشارات السيميائية التي تصف النفسيات الخبيثة والحاقدة لهؤلاء الناس التي أسهم في خرابها الكبير حبُّ الدنيا، والسعي لخدمة الظالمين؛ من أجل أطماع دنيوية زائلة لا قيمة لها.

٤. سعيهم المحموم لقتل الحسين عليه السلام؛ طاعة لعبيد الله ابن زياد، كما ورد على ألسنتهم حينما سألهم الإمام "عما أقدمهم على قتله، قالوا:

طاعة للأمير عبيد الله بن زياد"[١]، فقد أرادوا قتله بكل طريقة متاحة، فحاصروه في أرض كربلاء، وقطعوا عنه الماء والطعام، وقتلوا من دافع عنه، ورموه بالسهام والنبال، وطعنوه بسيوف الغدر والحقد، ورموه بالحجارة، وداسوه بحوافر الخيل، كل ذلك طاعة لابن زياد وسيّده يزيد بن معاوية، مع علمهم بأنهم يقتلون سبط النبي محمد صلى الله عليه وآله الذي اصطفاه الله بالرسالة، وائتمنه على الوحي، ثم يختم دعاءه عليه السلام بقوله: (« **فاجعل لنا من أمرنا فرجا ومخرجا يا أرحم الراحمين** »)، طالبا الفرج والمخرج من الله أرحم الراحمين.

(١) مقتل الحسين، ٢٤٣.

أيُقتل أبو عبد الله، وأنت تنظر إليه؟!

بقي الحسين عليه السلام قبل مقتله مطروحا على الأرض، مضرّجا بدمه، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وحينما رأت أخته العقيلة زينب عليها السلام هذا المنظر المؤلم، وهذا الوضع المأساوي نادت قائلة:

"« **ليت السماء أطبقت على الأرض، وليت الجبال تدكدكت على السهل** »، وانتهت نحو الحسين عليه السلام وقد دنا منه عمر بن سعد في جماعة من أصحابه، والحسين عليه السلام يجود بنفسه، فصاحت:

« **أي عمر أيقتل أبو عبد الله، وأنت تنظر إليه؟!** » فصرف بوجهه عنها"[(١)]. إن كلام السيدة زينب عليها السلام يشير إلى المصيبة العظمى والنازلة الكبرى التي تجسدت بقتل الإمام الحسين عليه السلام، وما فعله أتباع الظالمين به وبأهل بيته وأصحابه. إنها تنزل إلى أرض المعركة؛ لترى أخاها الحسين عليه السلام وما جرى له، فتتفاجأ بمشاهدة أخيها وهو على هذه الحال المفجعة يجود بنفسه، وينزف الدماء؛ بسبب مئات الجراح والطعنات بسيوف الأعداء ورماحهم ونبالهم وحجارتهم، وتتفاجأ بعمر بن سعد مع جلاوزته ينظرون إليه من دون اكتراث، فتصرخ مناديةً عمر بن سعد بوساطة أداة النداء (أي) التي تستعمل لنداء القريب، ثم توظف همزة الاستفهام التي خرجت إلى معاني الإنكار والتوبيخ والتعجب من فعل عمر بن سعد الإجرامي المشين فتقول: (« **أيُقتل أبو عبد الله، وأنت تنظر إليه؟!** »)، فيحار في جوابها في قبال هذا الحادث الجلل، وبدل أن يجيبها عن سؤالها، فإنه يصرف بوجهه عنها؛ لأنه لا يملك جوابا لتبرير هذه الجريمة النكراء،

---

(١) مقتل الحسين، ٢٩٨.

وأي جواب، وأي كلام، وأي حجج يمكن أن تبرر هذه الجريمة الكبرى، لذلك اختار السكوت بدل الكلام مع السيدة زينب عليها السلام. إن سكوته وصمته يرمز سيميائيا إلى عدم شجاعته أولا، وإلى عدم امتلاكه أسبابا مقنعة لتبرير هذه الجريمة المأساوية التي ندر مثيلها في تاريخ الإنسانية ثانيا، كما يشير إلى حالته النفسية التي كان عليها في أثناء كلام السيدة زينب معه، والتي جعلته لا يملك جوابا شافيا لهذه السيدة المفجوعة بأخيها، بعد سلسلة الفجائع السابقة لمقتله، فاختار الصمت بديلا عن الكلام ثالثا، كما أن حركة صرف وجهه عنها تشير إلى موقفه المحرج منها، فهو لا يستطيع النظر إليها، ولا يملك الشجاعة ليضع عينيه في عينيها بعد ما قام به من جرائم كبيرة، ولو كان متمكّنا من جوابها والنظر إليها لفعل؛ لأنه يملك من الوقاحة والإجرام واللؤم الكثير الكثير، وبهذا نجد أن الصمت وحركة وجهه حَمَلا أكثر من إشارة سيميائية رمزت وجسّدت هذا المشهد العاشورائي بشكل واضح وجلي، فلو تكلم لما حمل كلامه هذه المعاني وغيرها مما يمكن استكناهه من هذا المشهد المؤلم.

محاولة قتل الإمام السجاد

قُتل الحسين عليه السلام، وسُلب، وداست الخيل صدره الشريف، وسلب ثقله ومتاعه وعائلته، "وانتهى القوم إلى علي بن الحسين عليه السلام، وهو مريض على فراشه لا يستطيع النهوض، فقائل يقول:

لا تدعوا منهم صغيرا ولا كبيرا

وآخر يقول: لا تعجلوا؛ حتى نستشير الأمير عمر بن سعد

وجرّد الشمر سيفه يريد قتله، فقال له حميد بن مسلم:

يا سبحان الله أتقتل الصبيان؟! إنما هو صبي مريض

فقال: إن ابن زياد أمر بقتل أولاد الحسين، وبالغ ابن سعد في منعه، خصوصا لما سمع العقيلة زينب ابنة أمير المؤمنين تقول:

« **لا يقتل حتى أقتل دونه** »، فكفّوا عنه"[١]. إن التأمل في هذا الحدث يؤشر إلى وحشية هؤلاء الطغاة، وقسوتهم، وإجرامهم، وساديّتهم، وتلذذهم بأذية الكبار والصغار وقتلهم، بحيث لم يسلم من إجرامهم حتى الإمام السجاد عليه السلام، مع ما به من مرض طرحه الفراش، وأقعده عن الحركة، ويكاد يقتله، فقد امتلأت قلوبهم حقدا على أهل البيت عليهم السلام؛ لذلك قال أحدهم كاشفا عن هذا الحقد: (لا تدعوا منهم صغيرا ولا كبيرا)، مبيّنا فلسفتهم في تعاملهم مع أهل البيت في عدم إبقاء الصغير والكبير منهم على قيد الحياة والسعي إلى قتلهم في الظروف كلها، وحتى لو كانوا صغارا، كما قتلوا عبد الله الرضيع، والقاسم بن الحسن، ومحمد بن أبي سعيد بن عقيل بن أبي طالب، وعبد الله بن الإمام الحسن، وغيرهم، كما يحكي هذا الحدث الفوضى العارمة وعدم التنظيم في جيش عمر بن سعد، مما أدى بهم إلى فعل أفعال طائشة لا يرضاها الدين والعقل والعرف، ومنها هذا الفعل اللاإنساني مع الإمام السجاد عليه السلام، فمع حالته الصحية المتأخرة، ومع مصابه الكبير، ومع كونه يعدّ أسيرا في الأعراف العسكرية، وأن الأسير لا يجوز قتله أو الاعتداء عليه، نجد الشمر بن ذي الجوشن يسعى عامدا إلى قتله، ومصرا على فعله الإجرامي بأن جرّد سيفه من غمده قاصدا قتل الإمام السجاد لولا اللطف الإلهي، وتدخّل السيدة زينب عليها السلام، وعمر بن سعد، وحميد بن مسلم الذي قال للشمر معترضا على سعيه لقتل السجاد: (يا سبحان الله أتقتل الصبيان؟! إنما

---

(١) مقتل الحسين، ٣١٥ – ٣١٦، وينظر: نفس المهموم، ٣٧٩.

هو صبي مريض)، فهذا الرجل يعترض وينكر ويتعجّب من فعل الشمر، وقد أظهر اعتراضه وإنكاره وتعجبه عن طريق قوله: (يا سبحان الله)، وعن طريق توظيف همزة الاستفهام التي خرجت إلى هذه المعاني، ثم يوظف أداة القصر (إنما)؛ ليحصر كون الإمام السجاد صبيا مريضا لا يجوز أذيّته وقتله، فما كان من الشمر، وفي قبال هذا الاعتراض والإنكار والتعجب من فعله القبيح هذا، إلا أن يقول: (إن ابن زياد أمر بقتل أولاد الحسين) كاشفا في قوله المقتضب والمؤكد ب (إن) أكثر من أمر:

١. إن الشمر قد مُسخ وحشا ضاريا لا يراعي أي معنى من معاني الإنسانية والرحمة، فهمّه الأول سفك الدماء والذبح والقتل؛ إرضاءً لأسياده الظالمين.

٢. أصبح الشمر وأمثاله إمّعة وأداة طيّعة بيد المجرمين الطغاة؛ لتنفيذ مآربهم وجرائمهم، وتحقيق أطماعهم على حساب الناس الأبرياء والمجتمع الإسلامي.

٣. حقد عبيد الله بن زياد على الإمام الحسين عليه السلام وأولاده بشكل خاص، وعلى أهل البيت وأتباعهم بشكل عام أدى به إلى إصدار هذا الأمر الخطير الذي أكّده الشمر في كلامه المتقدم.

من جانب آخر، يكشف هذا الحدث عن تفاني السيدة زينب عليها السلام في الحفاظ على الإمام السجاد من القتل، وهي بفعلها هذا تحافظ على خط الإمامة من الانقطاع، وتكشف عن شجاعة نادرة ورثتها عن أبيها علي بن أبي طالب عليه السلام وعن أمها السيدة الزهراء عليها السلام، فقد حافظت على الإمام السجاد من القتل في أكثر من حدث، ابتداءً من هذا الحدث حتى رجوعهم إلى المدينة المنورة، مرورا بالكوفة وما حصل فيها، والشام وما حدث فيه، رجوعا إلى العراق فالمدينة. ففي هذا الحدث العاشورائي

نرى عمر بن سعد يبالغ في منع الشمر من قتل الإمام السجاد، ولا سيما حينما سمع كلام السيدة زينب وهي تقول مدافعة عن الإمام السجاد: (« **لا يقتل حتى أقتل دونه** »)، فهي تمنع قتل الإمام السجاد، وتفديه بنفسها، وتريد أن تُقتل دونه؛ حفاظا عليه وعلى خط الإمامة. إن كلامها هذا الذي يشير إلى موقفها المبدئي النبيل وشجاعتها النادرة، وهي تقف بوجه أعتى الطغاة وأشدّهم ظلما يحيلنا ويذكّرنا بكلام أبي ثمامة الصائدي الذي تقدم ذكره، والذي قال للإمام الحسين عليه السلام: (« **لا والله لا تقتل حتى أقتل دونك** »)، وبالمقارنة بين كلام السيدة زينب وكلام أبي ثمامة الصائدي نجد التفاني في الحفاظ على الإمام، والسعي الصادق للدفاع عنه، حتى لو أدى هذا الدفاع إلى التضحية بالنفس والقتل دون الإمام، فكيف بنا إذا كان هذا الموقف الشجاع، وهذا التفاني النادر يصدر من امرأة ثكلى أظنتها المصائب الكبيرة، وأتعبتها الرزايا التي لا تتحملها الجبال الرواسي.

أنا ابن من قُتل صبرا

بعد انتهاء المعركة توجّه عمر بن سعد إلى الكوفة، وأخذ من بقي في معسكر الإمام الحسين عليه السلام سبايا، وعند دخول موكب السبايا إلى الكوفة خطب الإمام السجاد خطبة قال فيها: "« **أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أنا ابن من انتهكت حرمته، وسلبت نعمته، وانتهب ماله، وسبي عياله، أنا ابن المذبوح بشط الفرات من غير ذحل ولا ترات، أنا ابن من قُتل صبرا وكفى بذلك فخرا** »"[(١)]، فالإمام

(١) مقتل الحسين، ٣٣٣. وينظر: نفس المهموم: ٣٩٥.

السجاد عليه السلام يعرّف بنفسه، ويذكر أنه ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، ثم يذكر عدة صفات لأبيه الحسين عليه السلام الشهيد يفضح بوساطتها ما فعله المجرمون الغادرون بأبيه من جرائم فظيعة، ومنها أنهم انتهكوا حرمته، وسلبوا نعمته، وانتهبوا ماله، وسبوا عياله، وذبحوه وقطعوا رأسه ورفعوه على القناة، ثم قال: (« **أنا ابن من قُتل صبرا وكفى بذلك فخرا** »)، وهنا أسأل:

لماذا قال: (قُتل صبرا)، ولم يقل (قُتل) فقط؟

وما الإشارات السيميائية التي يبعثها قوله: (قُتل صبرا)؟

إن الإمام السجاد عليه السلام أراد أن يبيّن أنّ أباه الحسين عليه السلام قد غُدِر به ولم يقتل قتلة عادية، بل قُتِل صبرا، وهو بذلك يشير إلى خسّة قتلته وحقدهم ودناءتهم وغدرهم، فقد جاء في معنى القتل صبرا: "وصبرُ الإنسان وغيره على القتل: أن يُحبس ويُرمى حتى يموت. وقد قتله صبرا"[(١)]، فهو يخبر عما فعله المجرمون بأبيه الحسين عليه السلام، فقد جعجعوا به وحاصروه في أرض كربلاء، وحبسوه في هذه القطعة من الأرض، ومنعوه من الذهاب إلى أي مكان آخر، ومنعوا عنه الماء والطعام، وبعد قتل أصحابه وأهل بيته، حاصروه وحيدا من كل جهة، ورموه بالنبال والسهام والحجارة، ومزّقوا جسده الطاهر بسيوف غدرهم ولؤمهم، ثم قتلوه أبشع قتلة بقطع رأسه ورفعه على رأس رمح طويل، ثم داسوا جسده الطاهر بحوافر خيولهم، أفلا يعد هذا القتل صبرا وليس قتلا عاديا؟، ويبدو أن الإمام السجاد أراد الإشارة إلى هذه المعاني وغيرها حينما قال: (« **قُتل صبرا** »)، ثم أردف قوله هذا بقوله: (« **وكفى بذلك فخرا** »)، فهو يفتخر بهذه القتلة التي أصابت أباه عليه السلام، ويبيّن أنها كفى بها فخرا يفتخر به الإمام

---

(١) مختار القاموس، ٣٤٨، مادة صبر.

السجاد وأهل البيت عليهم السلام وأتباعهم؛ وذلك لأنها:

١. كشفت عن صبر أبيه الحسين عليه السلام غير المحدود الذي فاق صبر الصابرين، وأثارت إعجاب البشرية بأجمعها، ولفتت أنظارها، وبيّنت تسليمه المطلق لإرادة الله تعالى، كيف لا وهو القائل حينما سقط عن فرسه:

"« **صبرا على قضائك يا رب، لا إله سواك يا غياث المستغيثين، ما لي ربٌّ سواك ولا معبود غيرك، صبرا على حكمك يا غياث من لا غياث له** »"(١).

٢. بيّنت بشكل واضح لا مراء فيه الوجه القبيح لأعدائه، وقسوتهم، وحقدهم الأسود، وعمى بصيرتهم، وأنهم على باطل وأن الحسين عليه السلام على حق، وأظهرت وقوفهم مع الباطل ضد الحق، وكفى بذلك فضيحة لهم على رؤوس الأشهاد، وكفى بذلك فخرا للإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأتباعه.

٣. أظهرت غدر أعداء الحسين عليه السلام به، وعدم التزامهم بعهودهم ومواثيقهم له، فبعد أن وعدوه بنصرته والقتال في صفّه ضد الأعداء، فإذا بهم ينقلبون عليه شرّ انقلاب، ويقتلونه صبرا قتلة غادرة جبانة تبين حقيقة معادنهم، وانعدام ضمائرهم، وانحطاطهم وخسّة نفسياتهم وحقارتها التي طوّعت لهم قتل الحسين عليه السلام هذه القتلة البشعة، فيما أظهرت من جانب آخر صدق الحسين عليه السلام، وعظمة شخصيته، وشجاعته، وإخلاصه لهم، فقد جاء مسرعا لنجدتهم حينما طلبوا منه ذلك، مع خطورة الأوضاع، وصعوبة الظروف، فدفع حياته الشريفة ثمنا لذلك، وقتل صبرا، وكفى بذلك فخرا له ولأهل بيته وأتباعه.

(١) مقتل الحسين، ٢٩٧.

الدفن

دفن الإمامُ السجاد أباه الإمام الحسين عليه السلام ومن استشهد معه، وحينما فرغ من دفن أبيه كتب على قبره الشريف: "« **هذا قبر الحسين بن علي بن أبي طالب الذي قتلوه عطشانا غريبا** »"(١)، ومما يلفت النظر جملة: (« **الذي قتلوه عطشانا غريبا** »)، فمن عادة الناس، ومن المتعارف عليه أن يُكتب اسم الميت على قبره؛ ليعلم الناس مَن صاحب هذا القبر، ولكن من غير المتعارف أن يُكتب على القبر أن صاحبه مات مقتولا أو مذبوحا أو غير ذلك، وأن توصف حاله عند قتله، كما وصف الإمام السجاد حال أبيه الحسين عليه السلام عند قتله بصفتي (عطشانا) و (غريبا)، فما سبب كتابة هذه الجملة الخبرية على قبر الحسين عليه السلام؟ إن التحليل السيميائي لهذه الجملة يظهر أنها بدأت بالاسم الموصول (الذي)، الذي وقع صفةً للحسين، ثم وردت جملة (قتلوه) المكوّنة من الفعل الماضي المبني على الضم؛ لاتصاله بواو الجماعة، الذي يشير إلى وقوع فعل القتل وتحقّقه، والفاعل (الواو)، والمفعول به الضمير (الهاء)، ووردت كلمتا (عطشانا) و(غريبا) حالين منصوبين تحكيان حال الإمام الحسين عليه السلام عند قتله، فقد أراد السجاد عليه السلام بهذه الجملة التي كتبها على القبر وصف حال أبيه عند شهادته، والإشارة إلى وحشية أعدائه، وساديّتهم، وحقدهم، وفظاظتهم، وقسوة قلوبهم ونفوسهم التي سوّلت لهم هذا العمل الإجرامي البغيض بقتله عطشانا محروما من الماء بعد أن استسقاهم أكثر من مرة فمنعوه، وغريبا بعيدا عن وطنه وأهله، وأراد فضحهم أمام كل زائر سيقصد قبر الحسين عليه السلام لزيارته، فضلا عن أنه أراد إظهار مظلومية أبيه أمام القاصي والداني، وبيان القدر الكبير من الحيف والظلم الذي وقع عليه من لدن بني أمية وأتباعهم.

---

(١) مقتل الحسين، ٣٣٧.

حوار السيدة زينب مع ابن زياد

في قصر الإمارة بالكوفة أدخلت السبايا على عبيد الله بن زياد، وقد وضع رأس الحسين عليه السلام بين يديه، فالتفت إلى السيدة زينب عليها السلام، وأراد أن يشمت بها، ويحرق قلبها، فقال:

"الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم.

فقالت عليها السلام: «**الحمد لله الذي أكرمنا بنبيّه محمد، وطهّرنا من الرجس تطهيرا، إنما يُفتضح الفاسق، ويكذب الفاجر، وهو غيرنا**».

قال ابن زياد: كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟

قالت عليها السلام: «**ما رأيت إلا جميلا. هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم، فانظر لمن الفلج يومئذ**»"(١). إن تحليل هذا الحوار على وفق المسار السيكو نصي في التحليل السيميائي يبيّن مقدار اللؤم والساديّة التي ملأت قلب ابن زياد، ويكشف عن هذه النفس الحقودة الشامتة، بحيث أنه يتكلم مع امرأة ثكلى فقدت إخوتها، وأبناءها، وأهل بيتها بهذه الطريقة الوحشية، وبهذا الأسلوب الفظ والقاسي، حامدا الله على أنه فضحهم وقتلهم وأكذب أحدوثتهم، على حد تعبيره، كما أنه يكشف عن نفس السيدة زينب الكبيرة وعن صبرها، وقوة تحمّلها، ويقينها في قبال هذا الإنسان الحاقد المريض، فأجابته بحمد الله تعالى الذي أكرمهم بالنبي محمد صلى الله عليه وآله، وطهرهم من الرجس تطهيرا، ثم قالت بكل شجاعة وإباء: («**إنما يُفتضح الفاسق، ويكذب الفاجر، وهو غيرنا**»)، موظفة أداة

(١) مقتل الحسين، ٣٤١ – ٣٤٢.

الحصر (إنما)؛ لتخبر أن الذي يفتضح هو الفاسق، والذي يكذب هو الفاجر، وهو قطعا غيرهم، وهي هنا تعرّض بابن زياد وتفضحه في قصره وأمام الحضور، وتفسد عليه نشوة النصر، وإذا قرأنا النسق الضامر لكلامها، فإنها تريد أن تقول: إن الفاسق الذي يفتضح، والفاجر الذي يكذب هو غيرنا، وهو عبيد الله بن زياد وأمثاله الذين ينتهكون محارم الله، ويقتلون أولياء الله وعباده، ويكذبون على الناس ويخبرونهم بأن هؤلاء خوارج خرجوا على أمر السلطان؛ من أجل التعمية على جرائمهم البشعة، فما كان من ابن زياد إلا أن يسألها سؤالا ثانيا عسى أن يحرق قلبها ويؤذي نفسيتها ويسكتها؛ لكي لا يفتضح أمره أمام الحاضرين، فقال: (كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟)، فأجابته بيقين راسخ وعزة وإباء وصبر عجيب قائلة: (« **ما رأيت إلا جميلا** »)، موظفة النفي والاستثناء؛ لكي تحصر ما رأته من فعل الله بأهل بيتها بالجميل فقط وليس غيره، وهي هنا تبيّن رضاها المطلق بما كتبه الله تعالى عليهم مع ما أصابها من مصائب كبيرة تهدّ الجبال وتحرج ابن زياد وتخزيه أمام الحضور، وتقابل تشفّيه وشماتته بها بهذا الموقف البطولي الذي يعجز الرجال عن مثيله، ثم تقول: (« **هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم، فانظر لمن الفلج يومئذ** »)، مبيّنة أن الحسين عليه السلام ومن استشهد معه كتب الله عليهم أن يقتلوا شهداء في سبيله، فما كان منهم إلا أن يرضوا بما كتبه الله لهم، ويُقبلوا على قتلهم وشهادتهم في سبيله بيقين وقوة وصبر على ملاقاة الموت، ثم تستشرف المستقبل وتخبره بأن الله تعالى سيجمع بينه وبين من قتلهم، فيحاج ويخاصم، وتثبت الحجة على إجرامه، ثم توظّف فعل الأمر (انظر)؛ لتوجه نظره إلى الذي سينتصر يوم القيامة، فهل الحسين عليه السلام الشهيد المظلوم سينتصر أو ابن زياد الفاجر الظالم سينتصر؟، فما كان من ابن زياد، وفي قبال هذا الكلام الذي صدمه

بالحقيقة وأحرجه وأخزاه إلا أن يستشيط غيظا، ويقدم بغضب هستيري على ضرب السيدة زينب لولا لوم الحاضرين له، مما أدى إلى إحجامه عما يريد.

القتل لنا عادة

في المجلس نفسه، وفي قصر الإمارة، التفت ابن زياد إلى الإمام علي بن الحسين السجاد عليهما السلام قائلا بعنجهية وغرور:

"ما اسمك؟

قال: « **أنا علي بن الحسين** ».

فقال له: أولم يقتل الله عليا؟

فقال السجاد عليه السلام: « **كان لي أخ أكبر مني يسمى عليا قتله الناس** ».

فردّ عليه ابن زياد بأن الله قتله.

قال السجاد عليه السلام: « **الله يتوفى الأنفس حين موتها وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله** ».

فكبر على ابن زياد أن يردّ عليه، فأمر أن تضرب عنقه، لكن عمته العقيلة زينب اعتنقته وقالت: « **حسبك يا ابن زياد من دمائنا ما سفكت، وهل أبقيتَ أحدا غير هذا؟ فإن أردتَ قتله فاقتلني معه** ».

فقال السجاد عليه السلام: « **أما علمت أن القتل لنا عادة، وكرامتنا من الله الشهادة؟** »

فنظر ابن زياد إليهما وقال: دعوه لها. عجبا للرحم! ودّت أنها تُقتل معه"[(١)].

---

(١) مقتل الحسين، ٣٤٢ – ٣٤٣.

يكشف هذا الحوار عن صَلَف ابن زياد وغروره وعنجهيته وولعه بسفك دماء الأبرياء وقتلهم، فهو يسأل الإمام السجاد بتعالٍ عن اسمه، فيخبره باسمه، فيقول له بتشفٍ وشماتة: (أولم يقتل الله عليا؟)، ناسبا قتل علي الأكبر إلى الله تعالى، وليس إلى جلاوزته، ومقررا هذا المعنى بوساطة البنية الأسلوبية (أولم) المكونة من همزة الاستفهام، وأداة الجزم والنفي والقلب (لم)، ومشيرا بذلك بحسب اعتقاده إلى أن الله تعالى هو من انتقم من علي الأكبر وقتله؛ بسبب وقوفه مع أبيه الحسين عليه السلام وقتاله لجيش الخليفة، إلا أن السجاد عليه السلام يردّ قوله، مصحّحا معلومته الخاطئة، بأن من قتل أخاه الأكبر الناس وليس الله سبحانه، مما أدى إلى غضب ابن زياد والرد عليه بأن الله قتل عليا الأكبر، فأجابه الإمام السجاد بآيتين قرآنيتين هما قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾[2]، وهو بجوابه هذا يقتبس نصين قرآنيين، ويفحم ابن زياد ويحرجه حرجا شديدا، فلم يجبه ابن زياد بكلام ليرد كلامه؛ لأنه لا يستطيع الرد على آيات القرآن الكريم أمام الملأ، بل أجابه بأن أمَرَ بضرب عنقه وقتله، وهذا هو ديدن المجرمين الطغاة عندما لا يستطيعون ردّ الحوار بالحوار، والرأي بالرأي المقابل.

وهنا، وفي هذا الموقف الحرج والشديد تدخّلت السيدة زينب عليها السلام؛ لتمنع ابن زياد عما يريد فعله قائلة: («**حسبك يا ابن زياد من دمائنا ما سفكت، وهل أبقيتَ أحدا غير هذا؟**»)، ناهية ابن زياد عن سفك المزيد من دماء أهل البيت، وموظّفة (هل) الاستفهامية التي خرجت إلى معنى النفي؛ لتنفي بقاء أحد من رجالهم على قيد الحياة إلا

---

(١) الزمر: آية ٤٢.

(٢) آل عمران: آية ١٤٥.

السجاد عليه السلام، ولتظهر إجرامه أمام الناس، وتبيّن مظلومية أهل البيت عليهم السلام وما فعله هذا المجرم وأعوانه بهم، إذ لم يُبْقِ رجلا منهم إلا قتله، باستثناء الإمام السجاد، ثم قالت: (« **فإن أردتَ قتله فاقتلني معه** »)، موظّفة أداة الشرط الجازمة (إن) وجملة الشرط (أردت قتله)، والفاء الرابطة لجواب الشرط، وجواب الشرط (اقتلني معه)؛ لتشرط على ابن زياد شرطا مفاده أنه لا يقتل علي بن الحسين عليه السلام إلا ويقتلها معه، وإزاء هذا الموقف الخطير قال الإمام السجاد لابن زياد: (« **أما علمت أن القتل لنا عادة، وكرامتنا من الله الشهادة؟** »)، مبيّنا دون وجل أو تردد، ومؤكدا بوساطة (أنّ) المفتوحة الهمزة أن القتل لأهل البيت عادة، وكرامتهم التي أكرمهم الله بها هي الشهادة، كما بيّن الانزياح الأسلوبي بوساطة تقديم الجار والمجرور (لنا) على خبر (أنّ) (عادة) الذي كان سببه الاختصاص معنى اختصاص أهل البيت بكون القتل لهم عادة دون غيرهم، وبيّن الانزياح الأسلوبي الثاني المتمظهر بوساطة تقديم الجار والمجرور (من الله) على خبر (أنّ) التي حذفت اختصارا، وهو قوله: (الشهادة)، الذي كان سبباه الاختصاص والتعظيم، معنى خصِّ أهل البيت بهذه الكرامة من الله العظيم.

إن هذه الجملة تؤشر بشكل واضح إلى فلسفة أهل البيت تجاه القتل والشهادة في سبيل الله تعالى، ففي حين تكون عادات الناس متنوّعة وكثيرة، كحب الدنيا، وحب المال والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وحب الجاه، وحب النساء والأولاد وغير ذلك، فإن أهل البيت عليهم السلام غدت عادتهم القتل في سبيل الله؛ دفاعا عن دين الله وعن الحق وأهله، وكرامتهم التي أكرمهم الله وخصَّهم بها هي الشهادة، وهم راضون الرضا كله بهذه العادة، ومستبشرون وفرحون بهذه الكرامة التي أكرمهم الله بها، وهي الشهادة، فقد جاءت آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة مخبرةً عن كرامة الشهيد وأجره

الكبير والعظيم من رب العزة سبحانه. وفي قبال هذين الموقفين الصلبين والشجاعين من الإمام السجاد والسيدة زينب عليهما السلام، لم يملك ابن زياد إلا التنازل عن جريمته التي أراد اقترافها بحق علي بن الحسين عليه السلام، فقال لجلاوزته: (دعوه لها. عجبا للرحم! ودّت أنها تقتل معه) آمرا إياهم بوساطة فعل الأمر (دعوه) ترك الإمام السجاد لعمّته، ومتعجبا من صلة الرحم القوية بين أهل البيت وعند السيدة زينب، هذه الصلة التي جعلتها تودّ القتل مع ابن أخيها. ومن الطبيعي أن يتعجّب هذا الرجل المطعون في نسبه وأصله وعائلته، من صلة الرحم هذه، ومن حب السيدة زينب لابن أخيها وحنانها عليه ودفاعها عنه؛ لأنه لا يملك هذه المشاعر وهذا النوع من صلة الرحم، فهو محروم من هذه الصلة وهذه الأحاسيس الصادقة والحنان الكبير بحكم نشأته الأسرية، ونسبه المطعون به، ودناءة انتمائه.

لِمَ قتلتَ أبي ظلما؟

خطب الإمام السجاد عليه السلام في الشام في مجلس يزيد بن معاوية، وبعد أن أحرجه، وأسقط ما في يديه، وفضح جرائمه بحق أبيه الحسين عليه السلام، طلب يزيد من المؤذن أن يؤذن؛ لكي يسكت علي بن الحسين عليه السلام، ولا يفتضح أكثر من هذه الفضيحة، فلما قال المؤذن:

"أشهد أن محمدا رسول الله، أخذ عليه السلام عمامته من رأسه، وقال للمؤذن:

« **أسألك بحق محمد هذا أن تسكت ساعة** »، ثم أقبل على يزيد وقال:

« **يا يزيد هذا الرسول العزيز الكريم جدّي أم جدّك؟ فإن قلتَ: إنه جدّك، يعلم العالمون أنك كاذب، وإن قلتَ: إنه جدّي، فلِمَ قتلت أبي ظلما، وانتهبت ماله، وسبيت**

نساءه» (...)، ثم بكى وقال:

«والله لو كان في الدنيا مَنْ جدّه رسول الله فليس غيري، فَلِمَ قتل هذا الرجل أبي ظلما، وسبانا كما تسبى الروم؟»

ثم قال:

«يا يزيد فعلت هذا، ثم تقول: محمد رسول الله، وتستقبل القبلة؟! فويل لك من يوم القيامة حيث كان خصمك جدي وأبي».

فصاح يزيد بالمؤذن أن يقيم للصلاة، فوقع بين الناس دمدمة وزمزمة عظيمة، فبعض صلى، وبعضهم لم يصلِّ، حتى تفرقوا"[١].

إن استقراء هذا الحدث الكبير، وهذا الكلام المؤثر للإمام السجاد عليه السلام يظهر مقدار الحزن الكبير والألم الموجع الذي ملأ قلب الإمام وآلمه كثيرا، فهو يسأل يزيد بن معاوية، محاكما إيّاه أمام الناس، ومقيما عليه الحجة، حينما سمع اسم جدّه محمد صلى الله عليه وآله في الأذان قائلا: (**«يا يزيد هذا الرسول العزيز الكريم جدّي أم جدّك؟»**)، ثم يجيب عن سؤاله، واضعا يزيد في حرج شديد جعله لا ينبس ببنت شفة: (**«فإن قلتَ: إنه جدّك، يعلم العالمون أنك كاذب، وإن قلتَ: إنه جدّي، فلِمَ قتلت أبي ظلما، وانتهبت ماله، وسبيت نساءه»**)، فهو يحاججه بجوابين محتملين، فإن قال: إن محمدا جدّه كذب وأثم، وإن قال: إنه جدّ الإمام السجاد، فإن السجاد يفاجئه ويباغته بسؤال لم يتوقعه قائلا: (**«فلِمَ قتلت أبي ظلما، وانتهبت ماله، وسبيت نساءه؟»**)، موظفا الاستفهام؛ ليسأله عن سبب قتله لأبيه الحسين عليه السلام ظلما وعدوانا، وانتهاب ماله، وسبي

---

(١) نفس المهموم، ٤٥١.

نسائه، فحار يزيد في جواب الإمام؛ لأنه لا يملك جوابا مقنعا، ثم شفع الإمام كلامه بقوله: (« **والله لو كان في الدنيا مَنْ جدّه رسول الله فليس غيري** »)، موظّفا القسم بلفظ الجلالة، ومؤكدا انتماءه وقرابته من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله التي لا يدعيها غيره، ثم قال: (« **فَلِمَ قتل هذا الرجل أبي ظلما، وسبانا كما تسبى الروم** »)، مستفهما مرة ثانية عن سبب قتل يزيد لأبيه الحسين عليه السلام ظلما، وسبيهم كم تسبى الروم، ثم حذّره من عاقبته السيئة يوم القيامة؛ نتيجة ما قام به من جرم كبير جدا، فما كان من يزيد، والحال الحرجة هذه، إلا أن يصيح بالمؤذن أن يقيم الصلاة؛ لأن الوضع وصل إلى حد خطير، وينبئ عن نتائج غير محمودة وغير متوقّعة من لدن يزيد، وخطورة الوضع هذا أشارت إليه كلمات الرواية الأخيرة التي تبيّن وقوع الدمدمة، التي تعني الغضب(١)، والزمزمة، التي تعني الصوت الشديد الذي له دوي(٢)، فتخلّص يزيد من هذا الحدث الخطير، وهذا الوضع الحرج بإقامة الصلاة.

أمسينا معشر أهل بيته مقتولين مشرّدين

لا يخفى على أحد الدور الكبير والمؤثر الذي قام به الإمام السجاد والسيدة زينب عليهما السلام بعد معركة الطف، فقد سَعَيا إلى إكمال الشوط المتمّم للنهضة الحسينية، وقاما بفضح الأمويين، وإظهار كذبهم وتزييفهم للحقائق، وبيان جرائمهم للناس وللرأي العام، وسَعَيا إلى إظهار مظلومية الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه في الكوفة، وفي مجلس ابن زياد، وفي منازل طريق السبي، وفي الشام، وفي قصر يزيد، ولم يدّخر السجاد عليه السلام وسعا في الحديث عن قتل أبيه الحسين عليه السلام ومظلوميّته

(١) ينظر: مختار القاموس،٢١٧، مادة دمدم.

(٢) ينظر: مختار القاموس، ٢٧٨ – ٢٧٩، مادة زمزم.

الكبرى في كـل مكان، وفي كل فرصة سانحة، فحينما أمر يزيد بركب السبايا أن يسكنوا في خربة الشام إلى أن ينظر في أمرهم، نجد علي بن الحسين عليه السلام يخرج منها، فيلقاه المنهال بن عمرو، ويقول له:

"كيف أمسيت يا ابن رسول الله؟

قال عليه السلام: « **أمسينا كمثل بني إسرائيل في آل فرعون يذبّحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم.**

أمست العرب تفتخر على العجم بأن محمدا منها

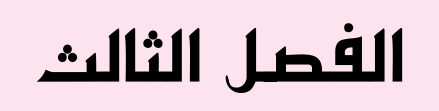
وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأن محمدا منها

وأمسينا معشر أهل بيته مقتولين مشرّدين، فإنا لله وإنا إليه راجعون »"[١]، و يا لها من مفارقة كبرى يشير إليها الإمام، و يا له من غدر من الزمان وأهله، فالجميع يفتخر بأن محمدا صلى الله عليه وآله منهم، إلا أن أهل بيته وذريّته المنحدرين منه والمنتسبين إليه أمسوا بحسب قول الإمام مقتولين مشرّدين في أقطار الأرض، قد قتل الأشرار أباه وأهل بيته وأصحابه، وشرّدوه وعقيلات البيت الهاشمي، وسبَوْهم، وتنقّـلوا بهم من بلد إلى بلد، فبدل أن يكرمهم الناس، ويعرفوا منزلتهم، ويعظّموا شأنهم؛ كرامة لجدّهم النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، فإذا بهم يقتلونهم شرّ قتلة، ويشرّدونهم من بلد إلى بلد.

---

(١) مقتل الحسين، ٣٨٠.





الوحدات السيميائية

الدالّة على الموت



الوحدات السيميائية الدالّة على الموت

ورد ذكر الموت في الكثير من نصوص النهضة الحسينية، فقد كان ذكر مفردة الموت واشتقاقاتها يرد على لسان الإمام الحسين عليه السلام، وعلى ألسنة أهل بيته وأتباعه، وعلى ألسنة أعدائه، وقد بيّنت نصوص الإمام فلسفته تجاه الموت، ونظرته له، وعدم خوفه منه، أو تردّده في الإقبال عليه؛ لأن هدفه إصلاح وضع الأمة الإسلامية المتردّي؛ بسبب سياسات معاوية وابنه يزيد، وكان مستعدا لتحقيق هذا الهدف حتى لو ضحّى بحياته، ومات شهيدا من أجل تحقيق ما يصبو إليه من أهداف إصلاحية تصلح وضع المسلمين الذي وصل إلى حال سيئة رديئة لا يمكن السكوت عنها. وبيّنت نصوص أهل البيت وأصحاب الإمام الحسين عليه السلام التي ورد فيها ذكر الموت تأثّرهم بالحسين عليه السلام وبالفلسفة الحسينية تجاه الموت، فأضحوا لا يخافون الموت ولا يرهبونه أبدا، بل أصبحوا يتمنون الموت تمنيا حقيقيا دون الإمام؛ ليحققوا أهداف نهضته المباركة، وليحموه من الموت ومن كيد الأعداء، وليحصلوا على ثواب الشهداء في جنات النعيم. وبيّنت نصوص أعداء الإمام الحسين عليه السلام حقدهم ولؤمهم وشراستهم وساديّتهم وسعيهم بكل طريقة لموت الإمام وقتله؛ من أجل جوائز دنيوية لا قيمة لها.

وما من الموت والله بدّ

نصحت السيدة أم سلمة الإمامَ الحسين عليه السلام بعدم الخروج إلى العراق، ودار حوار بينهما أظهر حبّ هذه السيدة وحرصها وخوفها على الإمام الحسين عليه السلام، وكان مما قاله لها جوابا على نصيحتها:

"« **يا أماه إن لم أذهب اليوم ذهبت غدا، وإن لم أذهب في غد ذهبت بعد غد، وما من الموت والله بدّ** »"(١)، وهنا يريد الإمام الحسين عليه السلام تخفيف وطأة خروجه على السيدة أم سلمة؛ لأنه يعلم أن خروجه سيؤثر فيها كثيرا، وسيصيبها بالحزن والألم عليه، كما يريد أن يهوّن عليها خبر موته إن حصل في قابل أحداث نهضته المباركة؛ لذلك يقول لها: (« **وما من الموت والله بدّ** »)، والبدّ في اللغة "فعل من التبديد، وهو التفريق، فلابدّ أي: لا فراق"(٢)، و "لا بدّ من كذا، أي لا محيد عنه، ولا يعرف استعماله إلا مقرونا بالنفي"(٣)، و "لا بدّ: لا فراق ولا محالة"(٤)، فالحسين عليه السلام يوظّف النفي ب(ما)، والقسم بلفظ الجلالة؛ ليبيّن ويؤكد للسيدة أم سلمة أن الموت لا محيد عنه ولا محالة، ولا مهرب منه، ولا فراق بينه وبين الإنسان؛ لأن الإنسان لا بدّ له من الموت اليوم أو غدا أو بعد غد، فلِمَ الخوف من الموت الذي لا محيد عنه ولا مهرب منه؟ إن هذه النظرة الحسينية الدقيقة للموت تعطي للإنسان ثقة بنفسه، وزخما دافعا له يجعله لا يخاف الموت؛ لأنه واقع لا محالة، فمهما حاول الإنسان الهرب منه فإنه لا بدّ له أن يذوقه في يوم من الأيام،

---

(١) مقتل الحسين، ١٣٥.

(٢) الكليات، أبو البقاء الكفوي، قابله ووضع فهارسه: د. عدنان درويش و محمد المصري،مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، ط٣، ١٤١٩ هـ-١٩٩٨ م، ٩٧١.

(٣) المصباح المنير، ٢٨، مادة بدد.

(٤) مختار القاموس، ٤٢، مادة بدد.

ولا بدّ أن يقع عليه، وبهذه النظرة إلى الموت، وبهذا الفهم له فإن الإنسان سيبعد شبح الموت الذي يخيفه دائما، وينغّص عليه حياته، وسيعيش عيشة طبيعية خالية من الخوف المستمر من الموت الذي لا بدّ منه.

من لم يُقتلْ يَمُت

خرج الإمام الحسين عليه السلام من المدينة إلى مكة المكرمة، وعند استقراره فيها كتب "نسخة واحدة إلى رؤساء الأخماس بالبصرة، وهم مالك بن مسمع البكري، والأحنف بن قيس، والمنذر بن الجارود، ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، وعمرو بن عبيد بن معمر"[(١)]، ودعاهم إلى كتاب الله وسنّة نبيه، وإلى نصرته، فجمع مسعود بن عمرو بني تميم، وبني حنظلة، وبني سعد، وطلب منهم نصرة الحسين عليه السلام[(٢)]، ومما قاله مشجّعا لهم على نصرته والقتال معه:

"والله لا يقصّر أحدكم عن نصرته إلا أورثه الله تعالى الذلّ في ولده والقلّة من عشيرته، وها أنا ذا قد لبست للحرب لامتها، وادرعت لها بدرعها. من لم يُقتَلْ يَمُت، ومن يهرب لم يفت"[(٣)]، فهو بصدد شحذ هممهم وتحفيزهم للقتال مع الإمام ونصرته وعدم التقصير معه، ثم شجّعهم أكثر حينما قال لهم: إنه قد ارتدى لامة الحرب، وتدرّع بدرعها، واستعدّ لخوض غمارها مهما كانت النتائج، ثم قال: (من لم يُقتَلْ يَمُت)، مشيرا لهم في هذه الجملة الشرطية المكونة من أداة الشرط الجازمة (من)، وجملة الشرط المصدّرة بالنفي (لم يُقتَل)، وجملة جواب الشرط (يَمُت) إلى معنى مهم هو أن الموت لا بدّ أن

---

(١) مقتل الحسين، ١٤١.

(٢) ينظر: مقتل الحسين، ١٤٢ – ١٤٣،

(٣) مقتل الحسين، ١٤٣.

يصيب الإنسان في يوم من الأيام، سواء أكان موتا عاديا على الفراش أو قتلا في سبيل الله في أرض المعركة، ودفاعا عن دين الله وابن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو شرف ما بعده شرف يحصل بوساطته الإنسان على درجة الشهادة مع سبط النبي الأكرم، فمن لم يُقتل ويحصل على هذا الشرف السامق فلا بدّ له أن يموت يوما ما، فالموت متحقّق لا محالة، لكن أيهما أفضل، الموت مقتولا شهيدا أو الموت على الفراش؟ أكيد الموت الأول هو الأقرب إلى الله تعالى، وهو الطريق المهيَع للحصول على الذكر الخالد في الحياة الدنيا والنعيم العظيم في الآخرة، وهذه رسالة مشفّرة تحمل شيفرات مهمة أراد مسعود بن عمرو إيصالها إلى مستمعيه؛ ليحاولوا فك شيفراتها وفهمها، ومن ثم استرخاص الحياة في قبال القتل والموت والشهادة في سبيل الله، ودفاعا عن الإمام الحسين عليه السلام مع زعيمهم مسعود بن عمرو، وفعلا فهم الناس رسالته التي أراد إيصالها لهم، فقال بنو حنظلة ردا على طلبه:

"يا أبا خالد نحن نبل كنانتك، وفرسان عشيرتك، إن رميتَ بنا أصبت، وإن غزوت بنا فتحت (...)، وتكلّمت بنو عامر بن تميم فقالوا:

يا أبا خالد نحن بنو أبيك وحلفاؤك، لا نرضى إن غضبت، ولا نبقى إن ظعنت، والأمر إليك فادعنا إذا شئت"[١].

خُطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة

لما علم الحسين عليه السلام أن يزيد بن معاوية أرسل عمرو بن سعيد بن العاص إلى مكة "في عسكر، وأمّره على الحاج، وولاه أمر الموسم، وأوصاه بالفتك بالحسين عليه السلام أينما وجد، عزم على الخروج من مكة قبل إتمام الحج، واقتصر على العمرة؛ كراهيّة

(١) مقتل الحسين، ١٤٣.

أن تستباح به حرمة البيت"[١]، وقبل خروجه من مكة متوجّها إلى العراق قام خطيبا فقال: "« **الحمد لله، ما شاء الله ولا قوة إلا بالله وصلى الله على رسوله.**

خُطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراشا جوفا وأجربة سغبا، لا محيص عن يوم خط بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفّينا أجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله لحمته، وهي مجموعة له في حضيرة القدس تقرّ بهم عينه، وينجز بهم وعده، من كان باذلا فينا مهجته، وموطنا على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإنني راحل مصبحا إن شاء الله »"[٢]. إن التحليل السيميائي لهذه الخطبة يحيلنا إلى أكثر من سؤال، وكما يأتي:

السؤال الأول: لماذا بدأ الإمام الحسين عليه السلام خطبته بذكر الموت؟

إن الحسين عليه السلام كان خارجا إلى العراق، وإلى حرب لا تُعلَم نتائجها مع جيش يزيد بن معاوية، وهو يعلم أساليب الأمويين في الخداع والغدر؛ لأنه شاهد من معاوية أبي يزيد الكثير من هذه الأساليب الملتوية والخادعة؛ لذلك كان لا بدّ له أن يوطّن نفسه ومن يخرج معه على الموت؛ لأنه خارج إلى بلد لا تُعلَم أحواله وظروفه مائة بالمائة، وإلى أناس غدرة فجرة يقودهم يزيد بن معاوية المتهتّك الفاجر، وهم مستعدون لعمل كل موبقة؛ لكي يحقّقوا الانتصار عليه، فالغاية عندهم تبرر الوسيلة، وبما أن غايتهم الملك والحكم، فهم مستعدّون لقتل الحسين عليه السلام مع علمهم بمنزلته وقربه من

---

(١) مقتل الحسين، ١٦٨.

(٢) نفس المهموم، ١٦٣.

رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لتحقيق غايتهم، والحسين عليه السلام كان يعرف هذه النفسيات الوسخة والدنيئة؛ لذلك نراه قد استعد للموت، وأراد أن ينقل هذا الاستعداد إلى مَن كان معه؛ لكي يتخلّصوا من عقدة الخوف من الموت، ويخرجوا معه بقناعة تامة مع صعوبة الظروف وحراجتها.

السؤال الثاني: لِمَ كانت الخطبة، فضلا عن بدايتها بالموت، مشحونة بذكر الموت بوساطة ألفاظ وجمل أشارت إليه؟

هناك أكثر من لفظ في الخطبة تحقّقت فيه القوة الإيقونية المؤشرة إلى الموت، منها: وخير لي مصرع أنا لاقيه.

كأني بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات.

لا محيص عن يوم خط بالقلم.

من كان باذلا فينا مهجته، وموطّنا على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فالحسين عليه السلام يؤشر ويرمز، باختياره لهذه الألفاظ والجمل الدالّة على الموت، إلى خطورة الوضع وصعوبة الأحداث التي سيمرّ بها في قابل أيام نهضته، فهي أحداث محفوفة بالمخاطر الكبيرة، والموتُ قتلا وغدرا وغيلة متوقعٌ فيها في كل لحظة؛ لأن الحسين عليه السلام يعرف طبيعة أعدائه التي جُبِلوا عليها من الغدر واللؤم؛ لذلك جاءت هذه الألفاظ والتعابير التي تذكر الموت متتابعةً؛ لتبيّن أن الموت محيط بالحسين عليه السلام ومعسكره من كل جانب، كما أن ختامه لخطبته بذكر ألفاظ تحيل إلى الموت في قوله: (« **من كان باذلا فينا مهجته، وموطّنا على لقاء الله نفسه فليرحل معنا** »)، فضلا عن بدايته لها بذكر الموت يؤكّد معنى إحاطة الموت بهم، ويبيّن أن الاستعداد للموت وتوطين النفس عليه يشكّل

بداية ونهاية لنهضته المحفوفة بالدم والموت.

فضلا عما تقدّم، فإن الحسين عليه السلام كان صادقا الصدق كله مع من خرج معه من أهل بيته، وأصحابه، وبعض الناس الذين تبعوه طلبا للغنيمة؛ لأنهم كانوا يتوقّعون انتصاره، إن جرت الرياح بما تشتهي السفن، و "لظنهم أنه يأتي بلدا أطاعه أهله، فكرِهَ عليه السلام أن يسيروا معه إلا على علم بما يقدمون عليه"(١)، فأراد أن يبصرّهم بحقيقة الأوضاع التي سيقدم عليها وبخطورتها، ولم يُرِد لأيّ أحد الخروج معه من غير معرفة حقائق الأمور؛ لذلك ذكر لهم أنه سيقدم على الموت؛ لأن نهضته محفوفة بالمخاطر والموت، فهو يَعِدهم بالموت؛ ليميّز الصادق في خروجه معه من الكاذب أولا، ولكي لا يقول من يتفاجأ بخطورة الأوضاع: إن الحسين عليه السلام لم يخبرني بخطورة ما أقدمَ عليه ثانيا، والحسينُ بعمله النبيل هذا يكسر أفق التوقع عند المتلقي ويحقّق المفاجأة لديه؛ لأن من عادة القادة في الحروب ألا يخبروا جنودهم بحقيقة الأوضاع وخطورتها؛ لكي لا تضعف معنوياتهم، ولا يتركوهم، ولا ينهزموا في أثناء الحرب أو قبل وقوعها، في حين أن الحسين عليه السلام أخبرهـم بالحقيـقة؛ لكي يخرج من يخرج معه عن قناعة تامة، ويتركه من يتركه عن معرفة بخطورة الأحداث.

السؤال الثالث: قد يقول البعض، ولا سيما من المتخصصين بعلم التنمية البشرية: إن الحسين عليه السلام بذكره الكثير والمتتابع للموت قد يعمل على نشر الطاقات السلبية بين أتباعه، فلِمَ ذلك؟

لم يكن الحسين عليه السلام في حياته كلها، وفي أثناء نهضته المباركة ناشرا للطاقات السلبية، بل كان متوكّلا على الله، ومتيقّنا أن ما يأتي منه سبحانه هو الخير المحض، ولكن

---

(١) مقتل الحسين، ١٨٥.

توقعه لصعوبة معركته مع الأمويين وأتباعهم، وفهمه لطبيعتهم الغادرة وطيشهم وظلمهم، فضلا عن استقرائه الدقيق للأحداث أدى به إلى توقّع الموت، ومن الطبيعي لكل إنسان يدخل حربا أن يتوقّع الموت كما يتوقّع النصر، فللحرب نتيجتان إما النصر أو عدمه، والنتيجة الثانية تكون نهايتها في الغالب الموت، لذلك فإن الحسين عليه السلام كان واقعيا في استقرائه لقابل الأحداث، وكان قاصدا بيان حقيقة الأوضاع لمن كان معه وعدم خداعهم والتدليس عليهم وإخبارهم بأنه سيقدم على النصر وسيحقّقه مائة بالمائة، وهذه مبدئية وصراحة من الإمام لم يعهدها الناس عند غيره زمانئذٍ.

السؤال الرابع: ما سبب تشبيه الإمام عليه السلام خطّ الموت على الإنسان بمخطّ القلادة على جيد الفتاة؟

إن الحسين عليه السلام بدأ خطبته بقوله: (« **خُطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة** »)، مشبّها خطّ الموت على بني آدم بمخطّ القلادة على جيد الفتاة لأكثر من قصد وسبب يمكن ذكرها في نقاط:

١. إن هذه الصورة البلاغية المتمظهرة بوساطة التشبيه البليغ بالمصدر، التي تبيّن الشبه الكبير بسبب حذف أداة التشبيه بين خطّ الموت على الإنسان، وخطّ القلادة على جيد الفتاة، تشير إلى نسق اجتماعي كان معروفا عند العرب في ذلك الزمن، هو اعتياد الفتيات على لبس القلائد، وكما يؤثر لبس القلادة المستمر في جيد الفتاة فيترك أثرا فيه، كذلك الموت مكتوب على الإنسان لامحالة ويترك أثرا فيه، وينقله من الحياة الدنيوية إلى الحياة الأخروية، فالموت والقلادة يتركان أثرا واضحا ومُشاهدا في الإنسان.

٢. وكما تحيط القلادة بجيد الفتاة ورقبتها من الجوانب كلها، كذلك يحيط الموت بالإنسان من الجوانب كلها، ولعل الحسين عليه السلام أراد أن يرمز أيضا إلى أن الموت

الذي يحيط به، وسيكون بسبب قطع رقبته وحزّ رأسه، هو كإحاطة القلادة برقبة الفتاة التي تترك أثرا فيها، فكما ستترك القلادة أثرا في رقبتها، كذلك ستترك سيوف الأعداء أثرا في رقبته عليه السلام.

٣. تشكّل القلادة في جيد الفتاة شيئا من كماليات المرأة التي تظهر جمالها، وتكمل صورتها؛ لتكون أجمل، وكذلك الموت يمثّل أمرا تكميليا للإنسان، ولا سيما إذا كان شهادةً في سبيل الله عز وجل، ومن أجل إحياء الدين والعقيدة التي أوشك الأمويون على طمسها، فموتٌ من هذا النوع يشكّل تكميلا للإنسان وتجميلا لصورته، يؤهّله للانتقال من الحياة الدنيوية إلى الحياة الأخروية، بدءا بعالم البرزخ، بأشرف طريقة وأبهى صورة وأجملها؛ لأن حياة الآخرة هي الحياة الحقيقية التي يجب أن يسعى إليها الإنسان، قياسا بالحياة الدنيا التي وصفها القرآن الكريم باللهو واللعب، وهذه الانتقالة من الحياة الدنيا التي لا قيمة لها في قبال الحياة الآخرة لا تحصل إلا بموت الإنسان في الدنيا ميتة مشرّفة ترضي الله عنه؛ لينتقل إلى الحياة الأجمل والأكمل، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في أكثر من مورد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾[2]، وبهذا المعنى القرآني، والفهم الحسيني الدقيق تظهر لنا الفلسفة الحسينية تجاه الموت بأن جعله شيئا جميلا لا يُخافُ منه، بل يكون طريقا لرضا الله تعالى ولقائه في الآخرة بوجه أبيض جميل يتطلّع إلى النعيم الكبير الذي أعدّه الله لعباده الصالحين.

---

(١) العنكبوت: الآية ٦٤.

(٢) الفجر: الآيات ٢٣ و٢٤.

فما بالموت عار على الفتى

خرج الإمام الحسين عليه السلام من مكة متوجها إلى العراق، وحينما خرج "لم يبق بمكة أحد إلا حزن لمسيره، ولما أكثروا القول عليه، أنشد أبيات أخي الأوس لما حذّره ابن عمه من الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وآله:

سأمضي فما بالموتِ عارٌ على الفتى ... إذا ما نوى حقا وجاهد مسلما

وواسى الرجال الصالحين بنفسه ... وفارق مثبورا وخالف مجرما"[1]

وأنشد هذه الأبيات مرة ثانية بزيادة بيت ثالث عليها حينما لقي الحر الرياحي في شَراف، وجرى بينهما حوار، إذ قال له الحر:

"يا حسين إني أذكرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلتَ لتقتلن.

فقال له الحسين عليه السلام:

«**أ فبالموت تخوّفني؟! وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟ وسأقول كما قال أخو الأوس لابن عمه، وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله، فخوّفه ابن عمه، وقال: أين تذهب؟ فإنك مقتول**»، فقال:

سأمضي فما بالموتِ عارٌ على الفتى ... إذا ما نوى حقا وجاهد مسلما

وواسى الرجال الصالحين بنفسه ... وفارق مثبورا وخالف مجرما

فإن عشتُ لم أندم وإن متُّ لم أُلَم ... كفى بكَ ذلا أن تعيش وترغما"[2]

---

(١) مقتل الحسين، ١٧٤.

(٢) الإرشاد، ٢١٥.

تشكّل هذه الأبيات الشعرية التي أنشدها الإمام الحسين عليه السلام في موقفين مهمّين مفعمين بذكر الموت والخوف على الحسين عليه السلام منه علامة سيميائية واضحة على موقفه من الموت، وعدم خوفه منه، وسعيه إلى المضي في نهضته مهما كانت النتائج خطيرة، وحتى إن انتهت بموته وشهادته في سبيل الله، فهو يجيب من خاف عليه من الموت مستشهدا بقول أخي الأوس: (سأمضي فما بالموتِ عارٌ على الفتى)، مبيّنا استمراره في نهضته، مع ما يحفّها من المخاطر، ومع ما يملأ طريقها من عقبات كؤود، حتى وإن انتهت بموته، فالموت في سبيل الله، وفي سبيل تحقيق أهداف نهضته المشروعة لا يشكّل عارا، بل يكسب شرفا كبيرا وذكرا خالدا، ويحقّق أهدافا كثيرة وكبيرة؛ لأنه يريد إحقاق الحق ومحاربة الباطل عن طريق الجهاد في سبيل الله تعالى، ويريد مواساة الصالحين المؤمنين المجاهدين بنفسه عن طريق بذلها من أجل حماية الإسلام والمسلمين، فإن بقي على قيد الحياة لم يندم على ما قدّمه في سبيل تحقيق أهدافه التي جاهد من أجلها، وإن مات شهيدا لم يلُمْهُ الناس؛ لأنه قدّم روحه الطاهرة من أجل المبادئ التي جاهد من أجل تحقيقها، فالموت شهيدا وبرأس مرفوع أفضل من العيش ذليلا مرغما، وهذا ما صرّح به عليه السلام في أكثر من مورد إذ قال:

"« **فإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برما** »"[1]،

وقال:"« **ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة، وهيهات منا الذلّة** »"[2].

(١) مقتل الحسين، ٢٠٠.

(٢) مقتل الحسين، ٢٤٤.

أ فبالموت تخوّفني؟!

لم يكتفِ أبو عبد الله عليه السلام في بيان موقفه من الموت وعدم تردّده من الإقبال عليه باستشهاده بهذه الأبيات، بل سبق إنشاده لها في الموقف الثاني مع الحر بقوله مجيبا على تخوّف الحر عليه من القتل: (« **أ فبالموت تخوّفني؟! وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟** »)، فهو يوظّف همزة الاستفهام التي خرجت إلى معاني الإنكار والتوبيخ والتعجّب؛ ليبيّن موقفه من تخويف الحر الرياحي له من الموت، فهو ينكر عليه تخويفه، ويتعجّب من موقفه هذا؛ لأن المتوقع منه أن يعلم مقدار شجاعة الإمام الحسين عليه السلام وصلابته وعدم خوفه من الموت، ثم يوظّف (هل) الاستفهامية التي خرجت إلى معنى النفي؛ ليقول له: إنكم لا يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؛ لتحقيق ما يريده يزيد بن معاوية، إلا أنه مع توقّعه هذا الفعل الغادر والمشين منهم بقي مصرا على موقفه الذي أظهره وقاله في اللحظات الأولى من بدء مواجهته مع يزيد وأعوانه: "« **ومثلي لا يبايع مثله** »"(١).

الأبدان للموت أُنشِئت

وصل الإمام الحسين عليه السلام إلى الشقوق، فرأى رجلا "مقبلا من الكوفة، فسأله عن أهل العراق، فأخبره أنهم مجتمعون عليه، قال عليه السلام:

« **إن الأمر لله يفعل ما يشاء، وربّنا تبارك هو كل يوم في شأن** »"(٢)، ثم أنشد أبياتا شعرية، ومن هذه الأبيات بيت يذكر فيه الموت:

---

(١) مقتل الحسين، ١٢٩.

(٢) مقتل الحسين، ١٨٤.

وإن تكن الأبـدان للموتِ أُنشِئت فقتل امرئٍ بالسيف في الله أفضل[1]

إن جواب الإمام لهذا الرجل الكوفي المؤكد ب (إنّ) يدلّ على تسليمه المطلق للإرادة الإلهية، فهو يفعل ما يمليه عليه واجبه وتكليفه الشرعي، والباقي على الله تعالى، فالله تعالى يفعل ما يشاء لا ما يشاء غيره، ثم بيّن أن الله كل يوم في شأن، مشيرا إلى أنه وحده تعالى هو الذي يغيّر المقادير، ثم أنشد أبياتا منها هذا البيت الذي يدلّ على نظرته العميقة للموت، فالإنسان لا بدّ له من الموت في يوم من الأيام، ولا بدّ لبدنه أن يذوق الموت طال عمره أو قصر، ولا مناص من انتهاء حياته الدنيوية عاجلا أو آجلا، فقطار العمر لابدّ له من التوقف في محطة أخيرة من محطات عمر الإنسان، فهو ميت لا محالة في الأحوال كلها، وتماشيا مع هذه الحقيقة فإن موت الإنسان قتلا في سبيل الله عزّ ذكره أفضل بكثير من موته على فراشه، أو موته ميتة عادية؛ لأن موته شهيدا في سبيل الله وفي سبيل إعلاء كلمة الإسلام سيجعله خالد الذكر في الدنيا، وعظيم الأجر في الآخرة، محفوفا بالفوز العظيم ورضوان الله الأكبر، وسيحقّق له ما أراده من أهداف ومقاصد.

إن نفسي لا تسمح بالموت

طلب الإمام الحسين عليه السلام نصرة عبيد الله بن الحر الجعفي حينما جمعه الطريق به في قصر بني مقاتل، ودار حوار بينهما إذ قال له الإمام الحسين عليه السلام:

"« **يـا ابـن الحـر إن أهـل مصركـم كتبوا إلي أنهـم مجتمعـون على نصرتي، وسـألوني القـدوم عليهـم، وليس الأمـر على ما زعمـوا، وإن عليـك ذنوبا كثـيرة، فهل لك من توبـة تمحو بهـا ذنوبك؟** »

(١) مقتل الحسين، ١٨٤.

قال: وما هي يا ابن رسول الله؟

فقال: « **تنصر ابن بنت نبيك، وتقاتل معه** ».

فقال ابن الحر: والله إني لأعلم أن من شايعك كان السعيد في الآخرة، ولكن ما عسى أن أغني عنك ولم أخلف لك بالكوفة ناصرا، فأنشدك الله أن تحملني على هذه الخطة فإن نفسي لا تسمح بالموت!"[١].

يعرض الإمام الحسين عليه السلام على عبيد الله بن الحر الجعفي عرضا يمحو به ذنوبه ويكون من التائبين، إذ يقول له: (« **فهل لك من توبة تمحو بها ذنوبك؟** »)، موظّفا (هل) الاستفهامية التي جاءت بمعنى العرض، وحينما سأله ابن الحر الجعفي عن ماهيّة التوبة، أجابه الإمام بأنها تتحقّق بنصره والقتال معه ضد الظالمين المنحرفين عن خط الإسلام، فأجابه ابن الحر الجعفي قائلا: (والله إني لأعلم أن من شايعك كان السعيد في الآخرة، ولكن ما عسى أن أغني عنك ولم أخلف لك بالكوفة ناصرا)، مؤكدا علمه بأن من كان في صف الإمام الحسين عليه السلام وشايعه كان سعيدا في الآخرة بثلاث مؤكدات هي القسم بلفظ الجلالة، و(إنّ)، واللام، ولكن مع هذه التأكيدات المتتابعة يستدرك هذا الرجل كلامه بوساطة (لكن) مخبرا الحسين عليه السلام بأنه لا يمكنه أن ينصره ويقاتل معه؛ مسبّبا موقفه المتخاذل هذا بأنه لم يخلف له ناصرا في الكوفة، ثم يقول للإمام: (فأنشدك الله أن تحملني على هذه الخطة فإن نفسي لا تسمح بالموت!)، ناشدا إياه الله تعالى أن لا يحمله على القتال معه؛ لأن نفسه لا تسمح بالموت، مؤكدا هذه الجملة ب(إنّ)، ونافيا بوساطة (لا) النافية سماح نفسه له بالموت، ومبيّنا حقيقة نفسه التي لا تريد نصرة أبي عبد الله ولا القتال معه؛ لأنها نفس تعاني من عقدة الفوبيا من الموت،

(١) مقتل الحسين، ١٩٤.

هذه العقدة التي تكون ملازمة لبعض الناس، فتنغّص عليهم حياتهم، وتجعلهم أناسا متردّدين في اتخاذ القرارات المهمة والمصيرية، ومتخاذلين جبناء لا يحبّون الإقدام على أي أمر يحسّون أنه يشكل خطرا على حياتهم.

إذا عقدنا مقارنة بين موقف عبيد الله بن الحر الجعفي من الإمام الحسين عليه السلام؛ بسبب عقدة الخوف المتأصّلة فيه من الموت، وبين موقف أصحاب الحسين عليه السلام من الموت وعدم خوفهم منه، وإقدامهم الشجاع والأسطوري نحوه؛ دفاعا عن الإسلام، وحفاظا على سبط النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، لوجدنا الفرق كبيرا بين الموقفين، فقد كان أصحاب الإمام لا يخافون الموت، بل يتمنونه تمنيا حقيقيا دون الحسين عليه السلام، ويتسابقون نحوه بنفوس شجاعة أبيّة، فهذا مسلم بن عوسجة يقول لأبي عبد الله:

"ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة حتى أموت معك"[١]، وهذا سعيد بن عبد الله الحنفي يقول:

"والله لا نخليك؛ حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسوله فيك، أما والله لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق حيا ثم أذرّى، يفعل بي ذلك سبعين مرة، لما فارقتك؛ حتى ألقى حمامي دونك، وكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبدا"[٢]، وهذا زهير بن القين يقول:

"والله لوددت أني قُتلت ثم نُشرت ثم قُتلت، حتى أقتل هكذا ألف مرة، وأن الله تعالى يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك"[٣]، ويقول زهير

---

(١) مقتل الحسين، ٢٢١.

(٢) مقتل الحسين، ٢٢١.

(٣) الإرشاد، ٢٢١.

مؤكّدا موقفه هذا في أرض المعركة يوم عاشوراء مخاطبا معسكر الأعداء:

"فو الله للموت معه أحبُّ إلي من الخلد معكم"[١]، وهنا يظهر الفرق جليا وشاسعا بين موقف الرجال الشجعان الأشاوس الأباة الذين قدّموا أرواحهم رخيصة في سبيل الله ودون الإمام الحسين عليه السلام، ولم يبخلوا بها أبدا، وبين موقف المتخاذلين الخائفين الذين بخلوا على الإمام بموقف مبدئي شجاع، فكان الندم حليفهم، والخزي مصيرهم.

لا نبالي أن نموت محقّين

غادر الحسين عليه السلام قصر بني مقاتل. قال عقبة بن سمعان: "سرنا معه ساعة، فخفق وهو على ظهر فرسه خفقة، ثم انتبه وهو يقول:

« **إنا لله وإنا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين** ».

ففعل ذلك مرتين أو ثلاثا، فأقبل إليه ابنه علي بن الحسين عليه السلام على فرس فقال:

مِمّ حمدتَ الله واسترجعت؟

فقال: « **يا بني إني خفقتُ خفقة فعنّ لي فارس على فرس وهو يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم، فعلمت أنها أنفسنا نُعِيت إلينا** ».

فقال له: يا أبت لا أراك الله سوءاً. ألسنا على الحق؟

قال: « **بلى والذي إليه مرجع العباد** ».

قال: فإننا إذاً لا نبالي أن نموت محقّين.

فقال له الحسين عليه السلام: « **جزاك الله من ولد خير ما جزى ولدا عن والده** »"[٢].

---

(١) مقتل الحسين ٢٤١.

(٢) الإرشاد ٢١٥ - ٢١٦.

يؤشر هذا الحوار إلى ذلك التسليم المطلق لإرادة الله تعالى من لدن الإمام الحسين عليه السلام، وإلى ذلك الأدب العالي عند علي الأكبر، وإلى تلك العلاقة الوطيدة والرائعة بين الإمام وأبنائه، فعلي الأكبر يسأل أباه الحسين عليه السلام عن سبب استرجاعه وحمده أكثر من مرّة، فيبيّن له أبوه سبب استرجاعه وحمده، مخبرا إياه بأنهم مقدمون على الموت، فما المتوقع من شاب في مقتبل عمره أن يجيب أباه على إخباره له بأنهم مقبلون على الموت؟ إن هذا الشاب الرسالي المؤمن الشجاع يجيب أباه جوابا مليئا بالإيمان واليقين، داعيا الله عز شأنه ألا يريه سوءاً، ثم يسأله قائلا: (ألسنا على الحق؟)، موظّفا همزة الاستفهام و (ليس)؛ ليقرّر حقيقة كونهم على الحق الذي يريده ربّ العزّة، فيجيبه أبوه مؤكّدا جوابه بالقسم بأنهم على الحق، فما كان منه في قبال هذا التأكيد الذي يدلّ على يقين أبيه الحسين عليه السلام بأنهم على الحق ولا يحيدون عنه قيد شعرة، إلا أن يجيبه بيقين مماثل وبأريحيّة من دون ارتباك أو تردّد أو حزن أو خوف قائلا: (فإننا إذاً لا نبالي أن نموت محقّين)، مؤكّدا بوساطة (إنّ) أنهم لا يبالون بالموت، ولا يأبهون به، ولا يتردّدون من الإقدام عليه من دون ارتباك أو وجل ما داموا على الحق، وقد عبّرت الحال (محقّين) عن حالهم هذه التي تبيّن صلابتهم ووقوفهم بوجه الطغاة والظالمين المنحرفين ما داموا متمسكين بالحق الذي يريده الله عز ذكره.

فإنّي لا أرى الموت إلا سعادة

وصل الإمام الحسين عليه السلام إلى أرض كربلاء في اليوم الثاني من المحرم سنة إحدى وستين للهجرة[1]، ولما وصل جمع أهل بيته وأصحابه وخطب خطبة قال فيها:

"« **أما بعد، فقد نزل بنا من الأمر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت وأدبر**

(١) ينظر: مقتل الحسين ١٩٨.

معروفها، ولم يبقَ منها صبابة إلا كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون إلى الحق لا يُعمل به وإلى الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله، فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما »"[(١)].

يكشف هذا النص عن غدر الناس بالإمام الحسين عليه السلام، وعن غدر الدنيا به وتنكّرها له، فهو محاصر في هذه القطعة من الأرض من لدن جيش الأعداء الذين جعجعوا به إلى هذا المكان، وبعد أن رأى ما هو عليه من وضع خطير ينذر بعواقب كارثية توجّه إلى معسكره بهذه الكلمات؛ ليخبرهم بحقيقة وضعهم الذي يرونه بعيونهم، وليبيّن لهم تغيّر الدنيا وتنكّرها وإدبار معروفها؛ ليزهّدهم فيها كما زهد هو فيها، وليخبرهم بحقيقتها، إذ وظّف النفي والاستثناء وكاف التشبيه؛ ليحصر ويشبّه ما بقي منها بصبابة الإناء التي لا تشكّل إلا قطرة أو قطرتين مما بقي في قعر الإناء، ويشبّه خسيس عيشها الباقي بالمرعى الوبيل الذي لا قيمة له بعد أن أكلت المواشي ما به من نباتات، وداسته، وتركت آثارها وفضلاتها فيه، وهذه صورة بلاغية دقيقة ومعبّرة عن حال الدنيا وحقيقتها، صوّرها الإمام بوساطة التشبيه بأداة التشبيه (الكاف) في موضعين، ثم يطلعهم على حقيقة أخرى، وهي أن الحق متروك ولا يُعمل به، وأن الباطل معمول به ولا يُتناهى عنه، حتى أن هذه الحال السيئة جعلت المؤمن يرغب في لقاء الله تعالى، ولكن كيف يحقّق هذا اللقاء بالله؟ يجيب الحسين عليه السلام عن هذا السؤال بجملة مقتضبة تحمل الكثير من المعاني قائلا: (« **فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما** »)، مؤكّدا بوساطة (إنّ) هذا المعنى، وموظفا النفي ب (لا) والاستثناء ب (إلا)؛ ليحصر رؤيته للموت بأنه

---

(١) مقتل الحسين، ٢٠٠، وينظر: تحف العقول عن آل الرسول، ابن شعبة الحراني، قدم له وعلق عليه، الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ٧، ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م، ١٧٤.

سعادة ولا شيء سواها، وليحصر الحياة مع الظالمين بالبرم والضجر والسآمة.

إن هذه الجملة المهمة والمعبّرة تكشف عن فلسفة الإمام الحسين عليه السلام تجاه الموت، وعن حقيقة الموت التي يراها، ويريد لأصحابه أن يروها، ففي حين يشكّل الموت نهاية لعـمر الإنسان، وأمرا مخيفا، وهاجسا مؤرّقا له ينغّص عليه الكثير من لحظات حياته بالنسبة لبعض الناس، فيما يسبّب عقدة الفوبيا من الموت والخوف الشديد والمَرَضي منه عند البعض الآخر، نجد هذا الموت نفسه يشكّل سعادة في رؤية الإمام الحسين عليه السلام وفلسفته، وهو يحصر ويؤكّد كونه سعادة ولا شيء غير السعادة بوساطة النفي والاستثناء، وكذلك يحصر ويؤكّد كون الحياة مع الظالمين لا تمثّـل إلا البرم والضجر والشقاء، لكن يا ترى ما سبب هذه الرؤية الحسينية للموت والحياة؟

هناك عدة أسباب لهذه الرؤية والفلسفة الحسينية:

١. بعد أن ذكر أبو عبد الله عليه السلام ما وصل إليه في مواجهته مع أعدائه قائلا: (« **فقد نزل بنا من الأمر ما قد ترون** »)، وأن هذه المواجهة وصلت إلى مرحلة خطيرة جدا تتمثل بعدم تنازل أعدائه عن خيارين لا ثالث لهما، ورَدا على لسانه، هما: السلّة أو الذلّة، وبيّن موقفه من الذلة حينما قال: (« **هيهات منا الذلة** »)، وبعد "أن رفض رجال ومأمورو حكومة يزيد إنهاء المنازعة، وأيقن الإمام أنه لو استسلم لهم فسيقتلونه قتلا مُذِلا، كما فعلوا بابن عمه مسلم بن عقيل، وبعد أن ابتدأه العدو بالقتال فعلا، نهـض الإمـام إلى الدفاع، ونال الشهادة بكل عزّة خلال دفاعه المشرف، وقول الإمام: (« **فإني لا أرى الموت إلا سعادة** ») يتعلق بهذه المرحلة"[١] الخطيرة من مراحل نهضته المباركة.

---

(١) الشهيد الخالد الحسين بن علي، ١٧٤.

٢. بيّن الإمام أن الدنيا قد تغيّرت عليه، وتنكّرت له، وذهب المعروف منها، ولم يبق منها إلا الشيء القليل الذي لا قيمة له، ولا فائدة مرجوّة منه، ومن ثم فإن دنيا هذه صفاتها، وهذا غدرها وتنكّرها لسبط النبي صلى الله عليه وآله لا قيمة لها، ولا سعادة في العيش فيها، بل السعادة في مغادرتها عن طريق الموت شهيدا في سبيل الله تعالى.

٣. إن من صفات الدنيا التي ذكرها الحسين عليه السلام أن الحق فيها متروك ومركون جانبا، ولا يُعمل به، وأن الباطل معمول به، ولا يُنتهى عنه، وبذلك أصبحت الموازين مقلوبة تماما، وأصبح الحق باطلا، والباطل حقا؛ بسبب تخبّط يزيد وحكومته وأتباعه، وبالنتيجة فإن الدنيا المتصّفة بهذه الصفة لا تستحق من الحسين عليه السلام ومن يسير على نهجه الحق أن يعيشوا فيها؛ لأن العيش فيها برم وضجر وألم، ومفارقتها بالموت والشهادة سعادة أبدية لا انقضاء لها ولا زوال.

٤. إن موت الإمام الحسين عليه السلام شهيدا في سبيل الله تعالى سيحقّق الكثير من أهداف نهضته، وسيعلم الناس عن طريقه حقيقة الحكومة الأموية الظالمة والكاذبة التي سعت إلى تدليس الحقائق وإخفائها عن الناس، وسيكسر حاجز الخوف عند الجماهير من الحكومات المستبدّة، وسينهض الكثير من الثـوّار بالكثير من الثورات، بعد أن اختطّ لهم بدمه الشريف وشهادته طريقا واضح المعالم للثورة ضد الظالمين، ومن الطبيعي أن موتا يحقق هذه الأهداف وغيرها سيكون سعادة دائمة، وأن الحياة تحت نير الظالمين ستكون برما.

إذا عقدنا مقارنة بين قول الإمام الحسين عليه السلام. (« **خُط الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة** ») الذي مررنا عليه في سابق البحث، وبين قوله: (« **فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما** »)، نجد الفلسفة الحسينية تجاه الموت متقاربة في القولين، وواضحة بشكل جلي للمتلقي، وأن هذين القولين يكمل أحدهما

الآخر في الإشارة إلى رؤية الإمام الحسين عليه السلام للموت، فقد بيّنا فيما سبق أنه عليه السلام جعل الموت شيئا تجميليا وتكميليا للإنسان المؤمن يجمّل صورته، وينقله من قباحة الدنيا إلى جمال الآخرة ونعيمها، مثلما تجمّل القلادة الفتاة، وتشكّل أمرا تكميليا وتجميليا لصورتها وهيأتها، أما القول الثاني فقد أضاف إلى كون الموت شيئا تكميليا تجميليا، كونه سعادة وفرحا وحبورا يشكّل سعادة كبيرة للإمام ولكل إنسان صالح ومصلح لا يرضى بالذلّ والهوان، ولا يقبل الظلم والاستبداد؛ ونتيجة لهذه الفلسفة الحسينية نجده أقبل على موته بيقين تام، وشجاعة نادرة، وعزيمة لا تنضب، وقلب لا يخاف الموت، وكذلك كانت حال أهل بيته وأصحابه الذين قاتلوا في صفّه واستشهدوا معه، فقد كان أثر نظرته للموت وفلسفته تجاهه ظاهرا عليهم ومؤثّرا فيهم، إذ أقدموا على موتهم وهم في حالة من الاستبشار والفرح بنصرة ابن بنت نبيّهم وإمامهم، وبالنعيم الذي أعدّه الله لهم في الآخرة، والذي كان الإمام يبشّرهم به عند شهادتهم بين يديه عليه السلام.

حتى أموت معك

حينما جمع الإمام الحسين عليه السلام أصحابه ليلة العاشر من المحرم، وخطب فيهم، وأذن لهم بالانصراف، أجابوه أجوبة تبيّن عدم خوفهم من القتل والموت دونه، وقد مررنا على قسم منها في مبحث القتل، ومن هذه الأجوبة التي تبيّن موقفهم من الحسين عليه السلام، وتظهِر عدم خوفهم من الموت، قول مسلم بن عوسجة:

"أَنَحنُ نخلي عنك؟ وبماذا نعتذر إلى الله في أداء حقك؟ أما والله لا أفارقك حتى أطعن في صدورهم برمحي، وأضرب بسيفي ما ثبت قائمه بيدي، ولو لم يكن معي سلاح

أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة حتى أموت معك"[١].

إن هذا النص يحكي إخلاص مسلم بن عوسجة وباقي الأصحاب الذين تشابهت مواقفهم المخلصة والشجاعة، إذ يبدأ كلامه بالاستفهام بوساطة الهمزة، مبيّنا عدم تركهم للإمام الحسين عليه السلام وتخليهم عنه وعن مبادئه مهما حصل، ثم يوظّف الاستفهام بوساطة (ماذا)؛ ليقول له: بأي عذر نعتذر إلى الله تعالى إن قصّرنا في أداء حقك، ولم نقاتل دونك، ثم يقسم بلفظ الجلالة؛ ليبيّن ثباته معه، ولينفي بوساطة (لا) النافية مفارقته له أبدا حتى يقاتل معه قتال الأبطال المرابطين في أرض المعركة، ويطعن صدور الأعداء برمحه، ويضربهم بسيفه مادام ثابتا بيده، ثم يفترض افتراضا قد يحصل في المعركة، هو عدم امتلاكه سلاحا يقاتل به الأعداء في قوله: (ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة حتى أموت معك) فماذا يفعل في هذه الحال؟ هل يترك الحسين عليه السلام بحجّة عدم امتلاكه للسلاح؟ أو يتّخذ سبيلا آخر للحصول على شرف القتال والشهادة مع الإمام؟ إنه لا يتخلّى عن شرف القتال مع سبط النبي الأعظم صلى الله عليه وآله والموت معه، ولا يتركه في أرض المعركة من دون الدفاع عنه وعن مبادئه التي آمن بها حتى في حال عدم امتلاكه للسلاح، ففي هذه الحال سيقذف أعداء الإمام بالحجارة؛ لكي لا يصلوا إليه وينالوا منه، كل ذلك يفعله من أجل أن يحقّق غايته التي يسعى إليها، والتي أشارت إليها (حتى) الغائية والفعل المضارع (أموت)، ولفظة (معك) التي تفيد المصاحبة والاجتماع مع الحسين عليه السلام في الموت، فهو يتمنّى تحقيق غاية الموت والشهادة المشرّفة مع الإمام، فدون هذه الغاية العليا ترخص الأرواح وتهون النفوس، ويخرج حبّ الدنيا من قلب مسلم بن عوسجة وسواه من أصحاب

---

(١) مقتل الحسين، ٢٢١.

الإمام الحسين عليه السلام الذين علّموا البشرية دروسا عملية في الإخلاص والتضحية والمفاداة للإمام المعصوم، والإقدام على الموت من دون وجل؛ تحقيقا للغاية التي تسمو على الغايات، المتمثّلة بالموت والشهادة في سبيل الله، ودفاعا عن الحق وعن إمام الزمان في ذلك الوقت، وهو الحسين عليه السلام.

ليت الموت أعدمني الحياة

يستمر ذكر الموت في ليلة عاشوراء، إذ يروى عن علي بن الحسين عليهما السلام قوله:

"« **سمعت أبي في الليلة التي قتل في صبيحتها يقول وهو يصلح سيفه:**

يا دهر أفٍ لك من خليل ... كم لك بالإشراق والأصيل

من صاحب وطالب قتيل ... والدهر لا يقنع بالبديل

وإنما الأمر إلى الجليل ... وكل حي سالك سبيل

فأعادها مرّتين أو ثلاثا، ففهمتها، وعرفت ما أراد، وخنقتني العبرة، ولزمت السكوت، وعلمت أن البلاء قد نزل.

وأما عمّتي زينب لما سمعت ذلك وثبت تجرّ ذيلها، حتى انتهت إليه وقالت:

واثكلاه. ليت الموت أعدمني الحياة. اليوم ماتت أمي فاطمة، وأبي علي، وأخي الحسن. يا خليفة الماضي وثمال الباقي، فعزّاها الحسين عليه السلام وصبّرها، وفيما قال:

يا أختاه تعزّي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون، وكل شيء هالك إلا وجهه، ولي ولكل مسلم برسول الله أسوة حسنة »"[١].

(١) مقتل الحسين ٢٢٤ – ٢٢٥.

يذكر علي بن الحسين عليهما السلام أنه سمع أباه عليه السلام في الليلة التي سيقتل في صبيحتها شهيدا في سبيل الله تعالى، ودفاعا عن الحق ضد الباطل، سمعه ينشد هذه الأبيات الشعرية، وهو يصلح سيفه، وفي هذه الأبيات، وفي فعل إصلاح السيف إشارات سيميائية واضحة إلى استعداد الحسين عليه السلام للقتال إلى آخر نفس وآخر قطرة دم، فهو يخاطب الدهر قائلا له: أفٍ لك من خليل، فكم لك في كل شروق وغروب من صاحب ومن طالب قتيل، ثم يبيّن أن الدهر لا يريد البدائل ولا يقنع بها، وحينما أعاد الإمام الحسين عليه السلام هذه الأبيات أكثر من مرة، فَهِم الإمام السجاد معناها، واستكنه إشاراتها التي تبعثها ورمزيتها الواضحة، فهي تنبئ بالقتال مع الأعداء حتى القتل والموت في ساحة المعركة، لذلك قال السجاد عليه السلام: (« **ففهمتُها، وعرفت ما أراد، وخنقتني العبرة، ولزمت السكوت، وعلمت أن البلاء قد نزل** »)، فقد فَهِم إشارات فعل أبيه وإنشاده للأبيات الشعرية، وعرف الدلالات التي تدل عليها؛ لذلك خنقته العبرة، ولزم السكوت؛ لأنه علم ما سيحدث في يوم العاشر من المحرم من بلاء كبير سينزل بهم.

وفهمت السيدة زينب عليها السلام فحوى فعل الإمام الحسين عليه السلام، ومعنى الأبيات الشعرية؛ لذلك فعلت فعلا، وحاورت أخاها حوارا ينبئ عن فهمها لدلالات فعله وقوله، إذ تقول الرواية: (وثبت تجرّ ذيلها)، ففي فعل وثوبها إشارة إلى تأثّرها الكبير والسريع بفعل الإمام الحسين عليه السلام وقوله، فضلا عن خوفها الكبير عليه من القتل، ثم أفصحت عن تأثّرها بما فعل الإمام الحسين عليه السلام وقال، وخوفها عليه من الموت، محاورة إياه حوارا يفيض بالألم والتفجّع وذكر الموت، قائلة: (« **واثكلاه. ليت الموت أعدمني الحياة. اليوم ماتت أمي فاطمة، وأبي علي، وأخي الحسن. يا خليفة**

الماضي وثمال الباقي »)، فهي تنادي بالثُّكل بوساطة حرف النداء (وا) المختص بالندبة والتفجّع والتوجّع، والثُّكل هو "الموت، والهلاك، وفقدان الحبيب أو الولد"[١]، ثم تتمنّى بوساطة الحرف المشبّه بالفعل (ليت) أن الموت جاءها وأعدمها الحياة؛ لكي لا ترى ما سيحدث لأخيها الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه من جرائم بشعة سيقدم عليها أعداؤه، ثم تبيّن أن هذا اليوم المأساوي وما ستشاهده فيه من جرائم كبيرة كيوم موت أمّها السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، ويوم موت أبيها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ويوم موت أخيها الإمام الحسن عليه السلام. إن قولها هذا يبعث إشارات إلى المتلقي أن موت الحسين عليه السلام خامس أهل الكساء وآخرهم على وجه الأرض سيمثّل موتا لأمه وأبيه وأخيه عليهم السلام، فوجوده على قيد الحياة يمثّل وجودا لهم، وموته يمثّل موتا لهم، فضلا عن أن موته يذكّر السيدة زينب بموت أمها وأبيها وأخيها، ويهيّج عليها آلام فقدانها لهم ومواجعها وأحزانها المستمرة التي لا تكاد تنتهي، ثم تناديه بخليفة الماضي وثمال الباقي، مشيرة إلى أنه خليفة لجدّها وأبيها وأمها وأخيها، وهو البقية الباقية منهم، فما كان من أبي عبد الله عليه السلام إلا أن يسعى إلى تهدئة أخته الثكلى، وتعزيتها، وتصبيرها على قابل القضاء الذي كتبه الله جل شأنه قائلا: (**« يا أختاه تعزّي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون، وكل شيء هالك إلا وجهه، ولي ولكل مسلم برسول الله أسوة حسنة »**)، مناديا إياها بهذا النداء اللطيف (يا أختاه)، طالبا منها بوساطة فعلي الأمر (تعزّي) و (اعلمي) أن تتعزّى بعزاء الله تعالى، وأن تتصبّر على قابل القضاء الإلهي، وأن تعلم أن أهل الأرض جميعا يموتون دون استثناء، فالموت لا يستثني أحدا أبدا، وكل شيء هالك وميت إلا الله

---

(١) مختار القاموس، ٨٥، مادة ثكل.

عزّ ذكره، وبموته وبموت كل مسلم على وجه الأرض ثمة أسوة برسول الله صلى الله عليه وآله، وهو في قوله هذا يتناص ويشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[(٢)]. وبكلامه هذا الذي عضّده بآيات القرآن الكريم سعى إلى التخفيف عن أخته، وتهدئة نفسها المضطرمة حزنا وخوفا وألما وتفجّعا على أخيها الحسين عليه السلام ومن معه.

فو اللّه للموت معه أحبّ إليّ من الخلد معكم

بعد خطبة الإمام الحسين عليه السلام الأولى يوم عاشوراء، خطب زهير بن القين بالقوم ناصحا إياهم بالوقوف مع الحسين عليه السلام ضد يزيد وابن زياد، فلم يعجبهم كلامه، "فرماه شمر بسهم، وقال:

اسكت. أسكتَ الله نأمتك. أبرمتنا بكثرة كلامك.

فقال له زهير رحمه الله: يا ابن البوال على عقبيه ما إياك أخاطب. إنما أنت بهيمة. والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم.

فقال له شمر: إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة.

قال: أ فبالموت تخوّفني؟ فو الله للموت معه أحبّ إلي من الخلد معكم"[(٣)].

إن النص المتقدم يشير بشكل واضح إلى أن فلسفة الإمام الحسين عليه السلام ورؤيته

(١) القصص: آية ٨٨.

(٢) الأحزاب: آية ٢١.

(٣) نفس المهموم ٢٤٣، وينظر: مقتل الحسين، ٢٤١.

للموت قد انتقلت منه إلى أصحابه، فهذا الشمر الذي يصفه زهير بن القين بالبهيمة يهدّد زهيرا بالقتل مع الحسين عليه السلام بعد وقت قليل، ظانًّا أن هذا التهديد سيفتّ من عضد زهير، أو يقلّل من اندفاعه للقتال مع الإمام الحسين عليه السلام والدفاع عنه حتى آخر قطرة من دمه، وحتى آخر رمق، فما كان من زهير إلا أن يردّه ردّا صاعقا له ولأمثاله، قائلا: (أ فبالموت تخوّفني؟)، وهو في هذه الجملة يتأثّر بموقف الإمام الحسين عليه السلام مع الحر الرياحي وكلامه، ويتناص معه، حينما قال للحر: "« **أ فبالموت تخوّفني؟! وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟** »"[١]. إن هذا التناص يؤشر إلى الأثر الكبير الذي تركه الإمام الحسين عليه السلام في أصحابه، وإلى التربية العالية التي ربّاهم عليها بحيث جعلتهم يكرّرون كلامه ومواقفه المبدئية النابعة من فكره المعصوم، مظهرين بذلك حبّهم الكبير والعقائدي له، وتولّيهم له دون غيره إماما يقودهم إلى مرضاة الله تعالى وإلى الجنة. إنه يوظّف في هذه الجملة همزة الاستفهام التي حملت معاني الإنكار والتوبيخ والتعجب؛ لينكر موقف الشمر وكلامه، ويوبّخه، ويتعجّب من تخويفه له بالموت مع الحسين عليه السلام، وهو الساعي بكل جهده وطاقته للقتال دون الإمام؛ لكي يموت ويحصل على درجة الشهادة معه، إذ يفصح عن موقفه هذا في قوله: (فو الله للموت معه أحبّ إلي من الخلد معكم)، موظّفا القسم بلفظ الجلالة، واللام الواقعة في جواب القسم؛ ليؤكّد كلامه أن الموت مع أبي عبد الله أحب إليه من الخلد مع أعدائه.

إن كلام زهير بن القين، وافتراضه هذا الافتراض، وتأكيده على أن الموت مع الحسين عليه السلام أحبّ إليه من الخلود في الحياة الدنيا مع هؤلاء الأوباش أعداء الإمام وأهل البيت عليهم السلام، وتوظيفه لصيغة التفضيل (أحبّ) التي تبيّن أنه أكثر حبا للموت

---

(١) الإرشاد ٢١٥.

مع الحسين عليه السلام منه إلى الحياة الخالدة بعده ومع أعدائه يشير إلى الإيمان الثابت والعقيدة الراسخة عند هذا الرجل، وإلى حبّه الكبير والعظيم للإمام الحسين عليه السلام الذي جعله يقول هذا الكلام، ويثبت على هذا الموقف الذي قلّ نظيره، ويفضّل الموت بهذه السرعة على الخلود أو البقاء على قيد الحياة لسنوات أخرى، فضلا عن أنه يبيّن رؤيته للموت وفلسفته تجاه هذا القدر الذي كتبه الله على عباده، وسعيه لاستثماره في القرب من الله تعالى والحصول على الدرجات العليا في الآخرة إذا ما مات شهيدا مع الإمام المعصوم، ومن أجل نصرة الدين والعقيدة والمبدأ الذي اختطّه الإمام الحسين عليه السلام بدمه ونفسه الطاهرة التي دفعها قربانا لإحياء دين الله.

قوموا رحمكم الله إلى الموت

بدأ القتال يوم عاشوراء، إذ "تقدّم عمر بن سعد نحو عسكر الحسين عليه السلام، ورمى بسهم، وقال:

اشهدوا لي عند الأمير أني أول من رمى.

ثم رمى الناس (...)، فقال عليه السلام لأصحابه:

« **قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لا بدّ منه، فإن هذه السهام رُسُل القوم إليكم، فحمل أصحابه حملة واحدة** »"[1].

يحكي المشهد المتقدّم خسّة أعداء الإمام الحسين عليه السلام وشدّة غدرهم، إذ يبدأ قائدهم برمي معسكر الإمام متبجّحا بأنه أول من رمى، ثم رمى بعده أتباعه؛ ليصيبوا كثيرا من أتباع الحسين عليه السلام، وإزاء هذا الموقف الخطير والشديد، توجّه أبو عبد

(١) مقتل الحسين ٢٤٧.

الله بالكلام مع معسكره قائلا: (« **قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لا بدّ منه** »)، موظّفا فعل الأمر (قوموا)؛ ليقوموا إلى الموت الذي لا مفر ولا خلاص منه، وداعيا لهم بأن يرحمهم الله بوساطة الجملة الاعتراضية، وثمة أكثر من سؤال يلحّ عليّ في هذا المورد:

لماذا قال لهم الإمام هذا الكلام، ولم يقُل لهم مثلا: قوموا إلى القتال، أو إلى المعركة؟

ألا يعدّ هذا الطلب بالقيام إلى الموت ناشرا للطاقات السلبية والخوف بين أتباعه؟

لماذا استجاب له أتباعه بهذه السرعة، وحملوا حملة واحدة من دون خوف من الموت الذي أمرهم بالقيام إليه؟ وللإجابة عن السؤال الأول أقول:

إن الإمام عليه السلام كان منذ بداية نهضته بوجه الظالمين يعد أصحابه بالموت والشهادة في سبيل الله تعالى في أكثر من موقف، ولم يعدهم بالنصر أو غير ذلك، فقد قال لهم عند خروجه من مكة المكرمة إلى العراق:

"« **ألا من كان فينا باذلا مهجته، موطّنا على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإني راحل مصبحا إن شاء الله تعالى** »"[(١)]، ومن الطبيعي ألا يغيرّ موقفه وكلامه ووعده إليهم يوم المعركة، ولا يصوّر لهم الأمور إلا على حقيقتها من دون تزيين أو مواربة، فهو الصادق في الأحوال كلها، وهو الصريح مع أهل بيته وأصحابه الذين خرجوا معه، فلماذا لا يواجههم بالحقيقة؟ أما جواب السؤال الثاني فهو أن الحسين عليه السلام يعرف قابليات أصحابه، وشجاعتهم، وشدّة إخلاصهم له وحبّهم للقتال والموت معه، لذلك لا يمثّل طلبه منهم بالقيام إلى الموت نشرا للطاقات السلبية، أو تخويفا لهم؛ لأنهم لا يخافون الموت أصلا ولا يهابونه، بل سعوا إليه جاهدين مجاهدين قربة لله تعالى وجهادا في سبيله، ومحبّة لابن نبيّه

---

(١) مقتل الحسين، ١٦٩.

صلى الله عليه وآله، ونتيجة لإيمانهم الكبير بالله تعالى، وحبّهم العظيم والعقائدي للإمام الحسين عليه السلام، وعدم خوفهم من الموت أبدا فقد استجابوا لطلبه بهذه السرعة، وحملوا على عدوّهم مباشرة حملة واحدة شجاعة تحكي شجاعتهم، وشدّة إقدامهم على الموت وعدم تهيّبهم منه؛ إحياء لدين المصطفى، ونصرة لإمامهم الحسين عليه السلام وللحقّ الذي كان يمثله في قبال الباطل الذي مثّله بنو أمية وأتباعهم.

لن أدعك دون أن أموت معك

لم يقتصر حبّ الموت وتمنّيه في سبيل الله، ومحبّةً للإمام الحسين عليه السلام، وإحياءً لمبادئه على الرجال فقط، بل تسرّب هذا الحبّ العجيب إلى النساء أيضا، فهذه أم وهب بنت عبد الله زوجة أبي وهب عبد الله بن عمير الكلبي تقول لزوجها بعد أن قتل يسارا مولى زياد، وسالما مولى عبيد الله بن زياد، وقد حملت عامودا وأقبلت إليه(١)؛ لتسانده وتقاتل معه:

"فداك أبي وأمي. قاتل دون الطيبين ذريّة محمد صلى الله عليه وآله، فأراد أن يردّها إلى الخيمة، فلم تطاوعه، وأخذت تجاذبه ثوبه وتقول:

لن أدعك دون أن أموت معك.

فناداها الحسين:

« **جزيتم عن أهل بيت نبيكم خيرا. ارجعي إلى الخيمة فإنه ليس على النساء قتال، فرجعت** »"(٢).

---

(١) ينظر: مقتل الحسين، ٢٤٨.

(٢) مقتل الحسين، ٢٤٨.

إن محاولة التحليل السيميائي لهذا الموقف وهذا المشهد العاشورائي يجعلنا نتفاجأ من شجاعة هذه المرأة وموقفها البطولي الذي يحاكي مواقف الرجال الأبطال، فمن عادة المرأة أن لا تذهب إلى ساحات القتال، ولا تنزل إلى ميادينه، فقد حفظ لها الدين الإسلامي، والنسق الاجتماعي حقوقها، ومن حقوقها أن تجلس في بيتها معزّزة مكرّمة، وأن يتكفّل الرجل أمور المعاش، والأمور الأخرى، ومنها القتال والجهاد في سبيل الله تعالى، إلا أن هذه المرأة تكسر أفق التوقع لدى المتلقي، وتنزل إلى ساحة المعركة لا لتساند زوجها بالكلام فقط، بل بالقتال أيضا، وهي تقول مشجّعةً له بعد أن أخذت عامودا: (فداك أبي وأمي. قاتل دون الطيبين ذرية محمد صلى الله عليه وآله)، إذ تفديه؛ إكراما لموقفه الشجاع بأبيها وأمها، وتأمره بوساطة فعل الأمر (قاتل) بالقتال دون ذريّة النبي محمد صلى الله عليه وآله، وفي تناولها للعمود ورفعها له من أجل القتال مع زوجها والدفاع عن الدين والعقيدة إشارة سيميائية واضحة إلى استعدادها الحقيقي للقتال والموت شهيدةً في سبيل الله تعالى مع زوجها ودون الإمام الحسين عليه السلام، فقد كان بإمكانها أن تسانده بالكلام فقط، وتعطيه دافعيةً على القتال دون الحسين عليه السلام، إلا أن شجاعتها وحبّها للقتال مع زوجها دون الإمام الحسين عليه السلام دفعها إلى هذا الموقف العجيب، والأعجب من ذلك أنها لم تطاوع زوجها، ولم تطعه مع أن واجبها طاعته حينما أراد أن يردّها إلى الخيمة، بل أخذت تجاذبه ثوبه من أجل البقاء في ميدان المعركة والقتال معه، وفي فعلها هذا إشارة سيميائية ثانية إلى توجّهها الحقيقي والشجاع للقتال دون خوف أو تردّد، وهذا موقف يحار أمامه العقل، إذ كيف يمكن لامرأة قد تربّت على الترف والراحة والهدوء والدعة أن تقف مثل هذا الموقف، والله تعالى يقول

عن النساء والبنات: ﴿ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾[1].

لم تكتفِ أم وهب بتشجيعها وطلبها من زوجها القتال دون الحسين وأهل البيت عليهم السلام، وحملها العمود، ومجاذبة زوجها؛ من أجل البقاء في أرض المعركة وقتال الأعداء، بل شفعت ذلك كلّه بقولها له: (لن أدعك دون أن أموت معك)، موظّفةً حرف النفي (لن) الذي يفيد التأبيد في النفي؛ لتنفي نفيا مؤبدا أن تتركه في ميدان المعركة من دون أن تحقّق إرادتها، وهي الموت معه، فقد تسرّبت فلسفة حبّ الموت في سبيل الله، ودون الإمام الحسين عليه السلام من الرجال إلى النساء، بحيث جعلتها لا تخاف الشدائد كما تخاف النساء، ولا تكترث بالموت ولا تهابه، وفي ذلك أثر واضح للإعداد الحسيني، والتربية العقائدية والروحية الخاصة، والرعاية التي خصّ بها أصحابه، تلك التربية التي تسرّبت منهم إلى نسائهم اللواتي كنّ معهم، فضلا عن التربية الزينبية العالية التي ربّت بها السيدة زينب عليها السلام هاتيك النسوة، بحيث وصلنَ إلى هذه الدرجة من الشجاعة واليقين الذي لا يقف الموت حائلا أمامه، فحبّ الموت من أجل الدين والعقيدة والمبدأ أضحى ديدن الإمام الحسين عليه السلام وفلسفته، ومن معه في معسكره رجالا ونساءً.

موت أبي وهب وأم وهب

استمر أبو وهب بالقتال ببسالة دون الإمام الحسين عليه السلام، حتى حمل الشمر مع مجموعة من المقاتلين على ميسرة الإمام الحسين عليه السلام، فثبتوا لهم، وفي هذه الحملة قاتل أبو وهب "فقتل تسعة عشر فارسا واثني عشر راجلا، وشدّ عليه هاني بن ثبيت الحضرمي، فقطع يده اليمنى، وقطع بكر بن حي ساقه، فأخذ أسيرا، وقتل صبرا،

(١) الزخرف: آية ١٨.

فمشت إليه زوجته أم وهب، وجلست عند رأسه تمسح الدم عنه وتقول:

هنيئا لك الجنة. أسأل الله الذي رزقك الجنة أن يصحبني معك.

فقال الشمر لغلامه رستم: اضرب رأسها بالعمود فشدخه وماتت مكانها، وهي أول امرأة قتلت من أصحاب الحسين عليه السلام. وقطع رأسه ورمى به إلى جهة الحسين عليه السلام، فأخذته أمه ومسحت الدم عنه، ثم أخذت عمود خيمة وبرزت إلى الأعداء، فردّها الحسين عليه السلام وقال:

« **ارجعي رحمك الله فقد وضع عنك الجهاد** »، فرجعت وهي تقول:

اللهم لا تقطع رجائي.

فقال الحسين: « **لا يقطع الله رجاءك** »"[(١)].

يشير هذا المشهد إلى شجاعة أبي وهب وبسالته في الذود عن الإمام الحسين عليه السلام، ومن جانب آخر يشير إلى خسّة عدوّه وغدره وقبح فعاله التي أخزته على مرّ التاريخ، فهو لا يتورّع عن قتل الأسرى وقتل النساء، فهذا ديدنه في الحقد واللؤم، ومما يثير المتلقي الموقف البطولي والشجاع لزوجته أم وهب، فهي لم تتردّد في الذهاب إليه في ساحة المعركة، مع خطورة الأحداث وتسارعها، ومع معرفتها بغدر العدو وشراسته، فقد مشت إليه بكلّ إباء، وجلست عنده بصبر عجيب على هذا الحدث المروّع، غير مهتمّة بالأعداء الذين يحيطونها من كل جانب ويتربّصون بها، وأخذت تمسح الدم عن وجهه، وهي تقول: (هنيئا لك الجنة. أسأل الله الذي رزقك الجنة أن يصحبني معك)، إذ تهنئه بالجنة، وتسأل الله تعالى الذي رزقه الجنة أن يجعلها مصاحبةً له فيها، وفي قبال

(١) مقتل الحسين، ٢٥١-٢٥٢.

هذا الموقف البطولي والصبر واليقين لهذه المرأة الشجاعة لم يحتمل الشمر قوة شخصيتها وشجاعتها، فأمر غلامه بضرب رأسها بالعمود، فضربها فماتت في مكانها ومع زوجها، وهي بذلك قد حقّقت أمنيتها التي كانت تتمناها، ووفت بوعدها لزوجها حينما قالت له: (لن أدعك دون أن أموت معك)، وضربت مثالا لقوة المرأة وشجاعتها، وتصبّرها على فقد زوجها، وسعيها الصادق لنيل الشهادة معه في سبيل الله وتحت راية الإمام الحسين عليه السلام.

ولم تكن أم أبي وهب أقل تصبّرا وشجاعة من زوجته، فهي تحاكي في فعلها الذي فعلت، وفي صبرها وشجاعتها فعل أم وهب، وتقتفي خطاها، فقد أخذت رأس ابنها، ومسحت الدم عنه صابرةً محتسبةً، ثم أخذت عمودا وبرزت إلى الأعداء في ساحة المعركة، مع شدّة الأحداث وخطورتها، ومع علمها بشدّة غدرهم الذي رأته بعينيها، وبقسوتهم المفرطة، فقد آلت على نفسها إلا أن تقاتل دون الإمام الحسين عليه السلام، وتنتقم لابنها وزوجته من هؤلاء الأعداء المارقين، وفي فعلها البطولي هذا إشارة واضحة إلى صبرها وشجاعتها وعدم خوفها، فرقّ الإمام الحسين عليه السلام لحالها وردّها إلى الخيمة. إن موقف هاتين المرأتين وشجاعتهما وصبرهما وعدم اكتراثهما بالأعداء القساة يثير المتلقي، فقد تعوّدنا من النساء أن لا يشاركن الرجال في قتال الأعداء، وأن لا ينزلن إلى أرض المعركة، ومن عادة المرأة التي تفقد زوجها أن تبكي عليه وتنوح وتتفجّع؛ حزنا على فراقه، أما أن نجد امرأة تحمل عمودا، وتنزل إلى أرض المعركة؛ لتقاتل مع زوجها وتتمنّى الموت معه؛ لتصحبه في الجنة، وتتحقّق لها أمنيتها، أو لتنتقم لابنها، أو تمسح الدم عن وجهه بكل صبر وتسليم لأمر الله، من دون خوف من الأعداء، فهذا ما يثير العجب لدى المتلقي، ويجعله يتساءل عن سبب شجاعة هاتين المرأتين وغيرهما وعن سبب هذه

المَلَكات والقابليات والقدرات التي تجسّدت في مواقف النساء في النهضة الحسينية، إن هذا كلّه يرجع إلى التربية والإعداد، كما أسلفنا، وإلى قابليات هاتيك النسوة وقدرتهن على الصبر والتحمّل، وشجاعتهن النادرة التي حيّرت العدو، وإلى حبّهن العقائدي للإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وسعيهن الصادق للتضحية والشهادة في سبيل الله ودون الحسين وأهل البيت عليهم السلام.

أوصيك بالحسين أن تموت دونه

في أرض المعركة قاتل مسلم بن عوسجة قتال الأبطال، "فشدّ عليه مسلم بن عبد الله الضبابي وعبد الله بن خشكارة البجلي، وثارت لشدّة الجلاد غبرة شديدة، وما انجلت الغبرة إلا ومسلم صريع وبه رمق، فمشى إليه الحسين عليه السلام ومعه حبيب بن مظاهر، فقال له الحسين:

« **رحمك الله يا مسلم، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا** ».

ودنا منه حبيب وقال:

عزّ عليّ مصرعك يا مسلم. أبشر بالجنة.

فقال بصوت ضعيف: بشّرك الله بخير.

قال حبيب: لو لم أعلم أني في الأثر لأحببتُ أن توصي إلي بما أهمك.

فقال مسلم: أوصيك بهذا، وأشار إلى الحسين عليه السلام، أن تموت دونه.

قال: أفعل ورب الكعبة. وفاضت روحه بينهما"(١).

(١) مقتل الحسين ٢٥١.

إن هذا المشهد المؤلم يشير إلى نبل الإمام الحسين عليه السلام وحبّه لأصحابه، ومنهم مسلم بن عوسجة الذي خرّ صريعا وبه رمق، فما كان من الإمام الحسين عليه السلام إلا أن يذهب إليـه، وبصحبته حبيب بن مظاهر الأسدي، ويدعو له بالرحمة، ويتلو جزءاً من قوله تعالى: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾[1]، وفي هذا التناص القرآني إشارة سيميائية إلى صدق هذا المؤمن مسلم بن عوسجة فيما عاهد الله عليه فقضى نحبه، ومات شهيدا في سبيل الله تعالى، وإلى صدق المؤمنين الذين يقاتلون في صف الإمام الحسين عليه السلام، وينتظرون دورهم في القتال والشهادة، فضلا عن أن الإمام نفسه ينتظر شهادته مضرّجا بدمه من أجل الإصلاح الذي أراد تحقيقه ورسم معالمه بدمه الطاهر والدماء التي سالت معه، وجميع من قاتل واستشهد تحت راية الإمام الحسين عليه السلام ثبتوا على ما عاهدوا الله عليه، ووفوا للإمام الحسين عليه السلام، وما بدّلوا تبديلا.

وفي الحوار القصير الذي دار بين مسلم بن عوسجة وحبيب بن مظاهر الأسدي نجد تلك العلاقة القوية بين أصحاب الإمام الحسين عليه السلام، وذلك الحبّ والأخوّة الصادقة في الله، وحينما قال حبيب لمسلم: (لو لم أعلم أني في الأثر لأحببتُ أن توصي إلي بما أهمك)، نجد مسلما يوصيه بوصية واحدة لا غير، وهي أن يموت دون الحسين عليه السلام، فهو لم يوصه بعياله أو ماله مثلا، ولم يوصه بأمر آخر أهمّه البتة، إنما أوصاه بأن يموت دون الإمام الحسين عليه السلام، وهذا ما يهمّ مسلما ويشغل باله، فهو مشغول ومهموم بالإمام عليه السلام وليس مشغولا بنفسه أو بماله أو عياله، مع أنه كان في الرمق الأخير واللحظات الأخيرة من حياته التي ختمها بالموت شهيدا سعيدا مع حبيبه

---

(١) الأحزاب: آية ٢٣.

الإمام الحسين عليه السلام، فما كان ردّ حبيب بن مظاهر لهذا الطلب بالموت دون الإمام الحسين؟ هل خاف من الموت الذي أوصاه به مسلم بن عوسجة؟ وهل تردّد أو تلعثم في الاستجابة لوصيّة مسلم بالموت دون الحسين عليه السلام؟ إن جواب حبيب بن مظاهر الأسدي يدلّ على عدم خوفه من الإقبال على الموت دون الإمام الحسين عليه السلام، والتحليل السيميائي لجوابه لمسلم الذي قال فيه من دون تردّد: (أفعل ورب الكعبة) يؤكّد عدم تهيّبه من الموت دون الإمام، إذ يوظّف الفعل المضارع الذي يدلّ على التجدد والاستمرار (أفعل)، ثم يقسم برب الكعبة مستعملا واو القسم؛ ليؤكّد فعل الموت دون الإمام الحسين عليه السلام، ويثبت على موقفه في سعيه للموت معه حتى آخر قطرة من دمه، وهو بجوابه القصير هذا يثبت حبّه وولاءه لإمامه الحسين عليه السلام، واستجابته لوصية صاحبه مسلم بن عوسجة، وثباته على موقفه من دون تغيّر أو تبدّل أو خوف، فقد غادر الخوف من الموت عقول وقلوب هذه الثلّة المؤمنة الصابرة الثابتة على موقفها في أشد الظروف وأحلكها.

صبرا على الموت يا بني عمومتي

لما استشهد علي الأكبر وعبد الله بن مسلم، "حمل آل أبي طالب حملة واحدة، فصاح بهم الحسين عليه السلام:

«**صبرا على الموت يا بني عمومتي، والله لا رأيتم هوانا بعد هذا اليوم**»"[(١)]. إن الحسين عليه السلام يحثّ آل أبي طالب على الصبر على الموت بعدما استشهد أصحابه، واستشهد علي الأكبر وعبد الله بن مسلم، وهو هنا يصيح بهم ويأمرهم بوساطة المصدر

(١) مقتل الحسين، ٢٧٤.

النائب عن فعل الأمر (صبرا) بالصبر على الموت، ولكن أي موت يحثّهم على الصبر عليه؟ هل هو موتهم أو موت غيرهم من الأصحاب وأهل البيت؟ من الممكن أن يشير طلب الإمام الحسين عليه السلام بالصبر على الموت إلى الأمرين معا، فهو يدعوهم صائحا موظّفا صوته العالي والمصدر النائب عن فعل الأمر؛ ليشجّعهم على الصبر على ملاقاتهم للموت في قتالهم لعدوّهم الشرس والظالم، وليحثّهم على الصبر على فقد من مات من الأصحاب وأهل البيت، وفي قبال هذا الأمر الصادر من الإمام المعصوم لم يكن للثلّة الباقية مع الإمام الحسين عليه السلام إلا أن تصبر الصبرين، وتتحمّل المشاقّ كلّها، وتنزل إلى أرض المعركة بعزيمة لا تلين، وثبات منقطع النظير، وشجاعة فائقة، وصبر على ملاقاة الموت يثير المتلقي على مر السنين وكرور الأيام، فلاقوا الموت بقلوب عامرة بالإيمان، وصابرة ومتصبّرة على قضاء الله ومشيئته التي شاءت أن تراهم شهداء في سبيله ودفاعا عن دينه وعن ابن رسوله الكريم صلى الله عليه وآله.

لا أرهب الموت إذا الموت زقا

بعد أن طلب الإمام الحسين عليه السلام من أخيه أبي الفضل العباس عليه السلام أن يطلب الماء للأطفال، حمل القربة وملأها "وركب جواده، وتوجّه نحو المخيّم، فقطع عليه الطريق، وجعل يضرب حتى أكثر القتل فيهم، وكشفهم عن الطريق، وهو يقول:

لا أرهبُ المـوتَ إذا المـوتُ زقـا حتى أُوارى في المصاليـتِ لقـــى

نفسي لسبط المصطفى الطهرِ وقى إنــي أنــا العبــاس أغدوا بالسـقا

ولا أخـاف الشـرَّ يـوم الملتـقى "[١]

---

(١) مقتل الحسين، ٢٨١، وينظر: نفس المهموم، ٣٣٤ - ٣٣٥.

إن ما يخصّ موضوعنا هو الشطر الأول، إذ يبدأ العباس عليه السلام كلامه ب(لا) النافية والفعل المضارع (أرهب)، والمفعول به الموت، وقد دلّت هذه الجملة، وعن طريق توظيف الفعل المضارع فيها، على عدم رهبته المستمرة على الدوام من الموت، فهو يخبر بوساطة هذه الجملة الخبرية أنه لا يخاف الموت ولا يهابه أبدا إذا ما علا صوته أو صاح طائره، وهو هنا يبين فلسفته وموقفه تجاه الموت، فلا خوف ولا رهبة منه، ولاسيما وأنه يقاتل في سبيل الله ودفاعا عن أخيه الإمام الحسين عليه السلام ضد الأعداء، فأي موت يخيف هذا البطل المغوار، وأي قتل يرهبه؟ ثم أنه لم يَخَفِ الموت في أيام حياته كلها، وفي حروب أبيه التي اشترك فيها، فكيف يخافه اليوم، وهو يصدّ الأعداء عن أخيه، ويحمل رايته، ويسعى إلى إتمام المهمة التي كلّف بها، وهي إيصال الماء إلى الأطفال الذين قتلهم العطش، فلم يكن همّ العباس الحفاظ على روحه، ولم يكن باله منشغلا بكثرة الأعداء وشراستهم، ولم يكن قلبه خائفا من الموت الذي أصبح قريبا منه، بل كان جلّ همّه نصرة أخيه الحسين عليه السلام، وإيصال الماء إلى الأطفال؛ لذلك قال، وهو محاط بأعداد كبيرة من الأعداء الذين يريدون قتله بكل طريقة، هذه الكلمات؛ ليبيّن لهم ولنا وللتاريخ أنه لم يرهبه الموت ولم يُخِفهُ أبدا ما دام على الحق، ويقاتل في صفّ أخيه الإمام المعصوم، ومن ثم فقد ضرب مثالا للشجاعة النادرة التي ورثها عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام، ومثالا لإخلاص الأخ لأخيه، وطاعة الجندي الباسل لقائده، فأقبل على موته بروح شجاعة وثّابة، من دون وجل أو رهبة، واستشهد بطلا مغوارا في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله.

الموت أولى من ركوب العار

بعد أن استشهد أبو الفضل العباس عليه السلام بقي الإمام الحسين عليه السلام وحيدا في أرض المعركة، وتقدّم نحو الأعداء ببسالته المعهودة وشجاعته النادرة، "ودعا الناس إلى البراز، فلم يزل يقتل كلّ من برز إليه، حتى قتل جمعا كثيرا، ثم حمل على الميمنة وهو يقول:

الموتُ أولى من ركوب العارِ والعارُ أولى من دخول النار"[1]

في هذا الموقف العصيب، وأمام هذا العدد الكبير من الأعداء الأوباش، وبعد أن بقي وحيدا بلا ناصر ولا معين، نجد الحسين عليه السلام يعطينا رؤية وفلسفة جديدة للموت غير ما مرّ علينا فيما سبق من البحث، فهو يخبر بوساطة الجملة الخبرية: (الموتُ أولى من ركوب العارِ) أن الموت الذي يُقبل عليه، والذي أقبل عليه من سبقه من أهل بيته وأصحابه أفضل وأولى من العار، فالموت في سبيل الله عزّ ذكره وفي طلب الإصلاح يخلّد ذكر الإنسان، ويجعله منارا للأحرار والثوّار في الدنيا كما حصل معه عليه السلام ويدخله في رضا الله تعالى، وفي روح وريحان وجنة نعيم في الآخرة، أما التخلّي عن المبادئ الإسلامية، ووضع اليد بيد الظالمين والمفسدين وسفّاكي الدماء، والرضا بأعمالهم الإجرامية، والاستسلام لهم فهو العار، ومن الطبيعي لشخص مثل الحسين عليه السلام، ولكلّ إنسان مؤمن سوي لا يرضى بالباطل ولا يداهن أهله ولا يجاملهم، أن يكون الموت له أفضل بكثير من العار الذي يلحقه إن استسلم لهم، أو رضي بأعمالهم الشيطانية الدنيئة، وفي ابتداء الإمام الحسين عليه السلام لهذا البيت الشعري بكلمة الموت دلالة سيميائية على استعداده للموت والشهادة التي وعده بها جدّه النبي صلى

---

(١) مقتل الحسين، ٢٨٨.

الله عليه وآله في سبيل الله تعالى، وعدم القبول بالعار ومداهنة الجبابرة والرضا بأعمالهم الهوجاء والاستسلام لهم، وفيه دلالة على عدم خوفه من الموت، واستعداده له، وإقباله عليه بنفس مطمئنّة راضية بمشيئة الله التي شاءت أن تراه شهيدا مضرّجا بدمه الشريف؛ من أجل الإصلاح الذي كان ينشده.

كيف لا يستسلم للموت من لا ناصر له ولا معين

لما نظر الحسين عليه السلام إلى الشهداء من أهل بيته وأصحابه، بعد أن بقي وحيدا، وقرّر قتال الأعداء إلى آخر رمق "التفت إلى الخيمة ونادى:

« **يا سكينة، يا فاطمة، يا زينب، يا أم كلثوم، عليكن مني السلام** ».

فنادت سكينة: يا أبه استسلمتَ للموت؟

فقال: « **كيف لا يستسلم للموت من لا ناصر له ولا معين** »"[(١)].

يبيّن هذا الموقف المؤلم ما حلّ بالإمام عليه السلام بعد أن استشهد أهل بيته وأصحابه، وبقي وحيدا في أرض المعركة أمام أعدائه الظالمين، فقرّر النزول إلى ميدان القتال، وقبل نزوله نادى النساء، وودّعهن، فلم تطِق ابنته سكينة هذا الوداع، فسألته، وهي ترى حاله وتأهّبه للقتال: (يا أبه استسلمتَ للموت؟)، فهي تناديه وتسأله سؤالا صعبا، تريد له جوابا؛ لتستكنه حال أبيها وما سيقدم عليه، وهل سيتقدّم لقتال الأعداء بأعدادهم الكبيرة وحيدا دون تردّد أو خوف من الموت وباستسلام لقضاء الله تعالى وللموت؟ فأجابها قائلا من دون وجل من إقدامه على الموت واستسلامه له: (« **كيف لا يستسلم للموت من لا ناصر له ولا معين** »)، مبيّنا أنه مستعد للقتال والإقدام على الموت والاستسلام له

(١) نفس المهموم، ٣٤٦.

والرضا بما قدّره الله وعدم الاستسلام للأعداء الجائرين الحاقدين، فكلامه عليه السلام يضمر نسقا مضمرا مفاده أن قتال الأعداء بقوة وبسالة، والاستسلام للموت، والرضا بما كتبه الله تعالى أفضل من الاستسلام للعدو الظالم اللئيم الذي يريد إذلاله عليه السلام، ولكن أنّى له ذلك والحسين عليه السلام يقول: "« **ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلة** »"[١]، فالحسين عليه السلام يفضّل السلّة والاستسلام للموت على الذلّة والاستسلام للعدو، حتى لو كان وحيدا في أرض المعركة بلا ناصر ينصره ولا معين يعينه، فقد وظّف (لا) النافية للجنس في قوله: (« **لا ناصر له ولا معين** ») مرتين؛ ليشير إلى عدم وجود أي جنس لناصر أو معين؛ ليعينه ويقف معه في هذا الموقف العصيب، وهو هنا يضرب مثالا للبسالة والشجاعة، فيقدم على موته وشهادته بشجاعة فائقة ونفس مطمئنة لا تزعزعها ولا تخيفها الأعداد الكبيرة للأعداء، والحقد الدفين الذي ملأ قلوبهم عليه.

لا تشرب حتى تموت عطشا

قاتل الإمام الحسين عليه السلام أعداءه قتال الأبطال الغيارى الشجعان، "ورجع إلى مركزه يكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، وطلب في هذه الحال ماءً، فقال الشمر:

لا تذوقه حتى ترد النار.

وناداه رجل: يا حسين ألا ترى الفرات كأنه بطون الحيّات؟ فلا تشرب منه حتى تموت عطشا"[٢]. إن النص المتقدم يؤشر بشكل واضح إلى حقد أعداء الإمام عليه السلام،

(١) مقتل الحسين، ٢٤٤.

(٢) مقتل الحسين، ٢٩١.

ولؤمهم، وخراب نفوسهم التي أضحت نفوسا مريضة ساديّة غايتها أذى الآخر، والتنكيل به، وقتله بكل طريقة متاحة لها، فهذا الحسين عليه السلام سبط النبي صلى الله عليه وآله يطلب منهم شيئا من الماء بعدما أعياه القتال، وشدّة المصاب والحزن على من فقدهم، وبعد سيل الدماء الذي سال من جسده الشريف؛ بسبب كثرة الجروح التي أصابته، إلا أنهم، ومع شدّة الحال التي هو عليها، لم ترقّ قلوبهم له أبدا، فيجيبه الشمر بحقد وخبث، كاشفا عن نفس حقيرة لئيمة مريضة، قائلا: (لا تذوقه حتى ترد النار)، مانعا الإمام الحسين عليه السلام من شرب الماء حتى الموت، ويناديه آخر قائلا: (يا حسين ألا ترى الفرات كأنه بطون الحيّات؟ فلا تشرب منه حتى تموت عطشا)، وهو يكشف عن نفس حقودة وخالية من أي معنى من معاني الإنسانية التي كثيرا ما نراها عند الناس الأسوياء، أما هؤلاء فلا نرى شيئا من الإنسانية قد بقي في قلوبهم، وإلا كان من الممكن لبعض رجال معسكر ابن سعد أن يعترض على هذا الكلام وعلى هذا الموقف اللئيم والدنيء واللاإنساني، إلا أن عدم اعتراض أي منهم على هذا الموقف يؤشر إلى نفسياتهم الحقودة وإلى مسخهم وحوشا ضارية هدفها النيل من الإنسانية التي مثّلها الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، فهذا الرجل ينادي الإمام الحسين عليه السلام ب(يا) النداء، ثم يوظف همزة الاستفهام و(لا) النافية والفعل المضارع (ترى)؛ ليقرّر حقيقة أن الفرات مملوء بالماء، مشبّها إياه ببطون الحيّات بوساطة أداة التشبيه (كأن)، مبيّنا كثرة مائه وجريانه المستمر، لكن مع كثرة الماء هذه، والجريان المستمر له، يُمنَع عن الإمام الحسين عليه السلام، إذ يوظّف الرجل (لا) الناهية والفعل المضارع (تشرب)؛ لينهى الإمام الحسين عليه السلام عن شرب الماء؛ حتى تتحقّق غايته التي يريدها، والتي أشارت إليها (حتى) الغائية، وهي موت أبي عبد الله عطشا، فتلك هي

غاية الرجل التي يسعى إلى تحقيقها؛ ليرضي أسياده الظالمين، وليحصل على جوائزهم، فقد أعمت هذه الغاية أعداء الحسين عليه السلام، وخرّبت نفسياتهم، وجعلتهم لا يفكّرون تفكيرا صحيحا، ولا يراعون أي معنى من معاني الإنسانية، ولا يتورّعون عن الإقدام على أي جريمة، حتى لو كانت قتل الإمام الحسين عليه السلام، مع علمهم من يكون الحسين عليه السلام وماذا يمثل، ولا يميّزون بين الحق والباطل، فكانت النتيجة أن غدوا أداة طيّعة بيد الظالمين، ينفّذون بهم مآربهم الدنيئة، ويقتلون عباد الله الصالحين من أجل أطماع المجرمين المستهترين بالإنسانية وقيمها النبيلة.

إذا عقدنا مقارنة بين موقف الإمام الحسين عليه السلام مع الحر الرياحي والألف فارس الذين جاؤوا معه لحصار الإمام الحسين عليه السلام، وبين موقف أعدائه الآنف الذكر، سنجد الفرق كبيرا جدا بين الموقفين، فحينما رأى الإمام ما أصاب الحر والفرسان الذين كانوا معه من العطش الشديد الذي أصابهم في تلك الظهيرة القائظة رقّ قلبه لهم، و "أمر أصحابه أن يسقوهم ويرشّفوا الخيل، فسقوهم وخيولهم عن آخرهم، ثم أخذوا يملأون القصاع والطساس ويدنونها من الفرس، فإذا عبّ فيها ثلاثا أو أربعا أو خمسا عزلت وسقي آخر حتى سقوا الخيل كلها"(١).

إن هذا الموقف الحسيني النبيل الذي يحار العقل أمامه يكشف عن نفس كبيرة تراعي الآخر ولا تسعى إلى إيذائه أو الانتقام منه، حتى إن كان عدوا أو في صف العدو، بل تسعى إلى معاملته معاملة إنسانية راقية، واحتوائه وحواره وبيان حقيقة الأمور له، فمع أن الحر بن يزيد الرياحي والألف فارس الذين كانوا بصحبته قدموا لحصار الحسين عليه السلام وأخذه إلى الكوفة بأمر من عبيد الله بن زياد، وهذا ما أظهره حوار الحر الرياحي

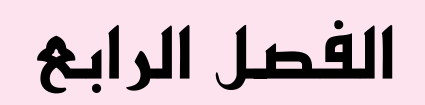
(١) مقتل الحسين، ١٨٦.

مع الإمام الحسين عليه السلام حينما قال لـه: "وإني أُمِرتُ أن لا أفارقك إذا لقيتك حتى أقدمك الكوفة على ابن زياد"[١]، إلا أنه عليه السلام لم يشمت بهم، ولم يحاول الانتقام منهم بأن يبقيهم يصارعون العطش في تلك الرمضاء وفي ذلك الحر القائظ، وكان بإمكانه أن يفعل ذلك ولا لوم عليه؛ لأن هؤلاء أعداؤه، وكان بإمكانه أن يقاتلهم كما اقتُرِح عليه ويستغلّ حالة العطش الشديد والإعياء الذي هم عليه ويقتلهم جميعا، ويتخلّص من خطرهم الذي يحدق به من الجوانب كلّها، إلا أنه لم يختَر هذه الخيارات المتاحة له، بل اختار الخيار الإنساني النبيل والفريد الذي يشعّ إنسانيةً ونبلا وأخلاقا نادرة في التعامل مع العدو، فقرّر أن يسقيهم الماء مع حاجته وحاجة معسكره وحاجة النساء والأطفال الشديدة له، وعلمه بقلّته في تلك الأماكن، وحرارة الجو بعد أن رأى ما أصابهم؛ بسبب العطش الشديد وحرارة الشمس ورمضاء الهجير، وعامَلَهم بإنسانية كبيرة، وأخلاق عالية، ومراعاة لحقوق الإنسان، تعجز منظمات حقوق الإنسان عن تفسيرها، وتقف متحيّرة أمام هذا الموقف الحسيني العظيم والنبيل. ولم تقتصر إنسانية الإمام الحسين عليه السلام ورقّة قلبه الكبير وحرصه على البشر فقط بل تعدّى ذلك إلى مراعاة حقوق الحيوان أيضا، فلم يكتفِ بأن أمر أصحابه بسقي الحر الرياحي ومن معه من الرجال، بل أمر أن يرشّفوا الخيل؛ لأن هذه الحيوانات تكاد تموت عطشا، وقلب الحسين عليه السلام النقي وروحه الطيّبة تأبى أن تموت هذه الحيوانات من شدّة العطش، وهو بعمله النادر هذا يراعي حقوق الحيوان فضلا عن مراعاته لحقوق الإنسان، فأين منظّمات حقوق الحيوان؛ لتتعلّم من سبط النبي صلى الله عليه وآله هذه المأثرة الكبيرة وهذه الرعاية لحقوق الحيوان؟. إننا أمام موقفين سجّلهما التاريخ، موقف

---

(١) مقتل الحسين ١٨٨.

الإمام الحسين عليه السلام الإنساني والنبيل والنادر مع أعدائه الذين جاؤوا لمحاصرته، والجعجعة به، وإقدامه مخفورا بقوّة السيف على عدوه المتغطرس ابن زياد، وبين موقف أعدائه اللاإنساني والخسيس والحقود الذي تمثّل بالشماتة به وبحاله التي آل إليها؛ بسبب لؤمهم وغدرهم به، وبمنع الماء عنه حتى تحقّقت غايتهم اللئيمة ومرادهم الظالم بموته عطشانا شهيدا لم يذقِ الماء حتى آخر نفس.



الوحدات السيميائية

الدالّة على الشهادة



الوحدات السيميائية الدالّة الشهادة

الشهادة في سبيل الله درجة عالية لا ينالها إلا ذو حظ عظيم، والشهيد "هو المُحتَضَر، فتسميته بذلك؛ لحضور الملائكة إياه إشارةً إلى ما قال: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا﴾[(١)] الآية، قال: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾[(٢)]، أو لأنهم يشهدون في تلك الحالة ما أعدّ لهم من النعيم، أو لأنهم تشهد أرواحهم عند الله"[(٣)]، وهو "القتيل في سبيل الله؛ لأن ملائكة الرحمة تشهده، أو لأن الله وملائكته شهود له بالجنة، أو لأنه ممّن يستشهد يوم القيامة عن الأمم الخالية، أو لسقوطه على الشاهدة، وهي الأرض، أو لأنه حيٌّ عند ربه حاضر، أو لأنه يشهد ملكوت الله وملكه"[(٤)]، والشهيد أيضا "من قتله الكفّار في المعركة، فعيل بمعنى مفعول؛ لأن ملائكة الرحمة شهدت غسله، أو شهدت نقل روحه إلى الجنة، ولأن الله شهد له بالجنة"[(٥)]. ويظهر مما تقدّم أن للشهيد منزلة كبيرة عند الله تعالى وعند الملائكة، وهذه المنزلة لم ينلها إلا بعد أن ضحّى بروحه في سبيل الله عزّ ذكره.

---

(١) فصلت: آية ٣٠.

(٢) الحديد: آية ١٩.

(٣) المفردات في غريب القرآن، ٢٧٩، مادة شهد.

(٤) الكليات، ٥٢٧.

(٥) المصباح المنير، ١٩٥، مادة شهد.

وإن لك في الجنان لدرجات لا تنالها إلا بالشهادة

وردت مفردة الشهادة واشتقاقاتها في بعض نصوص النهضة الحسينية، وهي تحمل المعاني التي مرّ ذكرها فيما سبق من الكلام، وأولى الحوادث التي ورد فيها ذكر الشهادة تلك الرؤيا التي رآها الإمام الحسين عليه السلام حينما زار قبر جدّه صلى الله عليه وآله بعد أن حصل ما حصل بينه وبين الوليد بن عتبة ومروان بن الحكم، وبعد أن صلّى وتوجّه بالدعاء إلى الله تعالى، وضع رأسه على القبر فغفا، ورأى جدّه النبي صلى الله عليه وآله[١]، ومما قال له جدّه في تلك الرؤيا:

"« **حبيبي يا حسين إن أباك وأمّك وأخاك قدموا علي، وهم مشتاقون إليك، وإن لك في الجنان لدرجات لا تنالها إلا بالشهادة** »"[٢]، ومما قال له أيضا:

"« **لا بدّ أن ترزق الشهادة؛ ليكون لك ما كتب الله فيها من الثواب العظيم، فإنك وأباك وعمّك وعمّ أبيك تحشرون يوم القيامة في زمرة واحدة حتى تدخلوا الجنة** »"[٣]، فالنص يشير إلى أن للحسين عليه السلام درجات عليا في الجنان لا يحصل عليها إلا بشهادته في سبيل الله عزّ وجل. إن إنعام النظر في سيميائية قوله: (« **وإن لك في الجنان لدرجات لا تنالها إلا بالشهادة** ») يُظهر أن النص مؤكّد بمؤكّدين هما (إن)، واللام المزحلقة؛ للتأكيد على هذا المعنى، وأن تقديم الجار والمجرور (لك) أفاد معنى اختصاص الإمام الحسين عليه السلام بهذه الدرجات في الجنان، كما أن توظيف (لا) النافية و(إلا) الاستثنائية أفاد معنى القصر والحصر، والقصر أيضا يفيد توكيد المعنى وتقويته، فقد تمّ

---

(١) ينظر: مقتل الحسين، ١٣٢.

(٢) نفس المهموم، ٧٣.

(٣) مقتل الحسين، ١٣٢.

توظيف أكثر من أسلوب لتوكيد هذه الجملة، ولبيان اختصاص الإمام الحسين عليه السلام بهذه الدرجات في الجنان التي لا ينالها إلا بشهادته مضرّجا بدمه في سبيل الله تعالى، وإلا كان من الممكن أن يقول: لك في الجنان درجات تنالها بالشهادة، دون استعمال التوكيد والتقديم والقصر، وفي استعمال هذه الأساليب إشارات واضحة تشير إلى أن الحسين عليه السلام لابدّ أن يرزق الشهادة، كما ورد في قول النبي صلى الله عليه وآله: (« **لا بدّ أن ترزق الشهادة** »)، ومعنى (لابدّ) هو لا مفَرّ من الشهادة ولا مهرب منها ولا محيد عنها، فقد اختار الله له الشهادة على يد شرار خلقه، وفي ذلك يقول الحسين عليه السلام: "وخير لي مصرع أنا لاقيه"[١]، فجدّه النبي صلى الله عليه وآله يخبره بأن الشهادة لابدّ ولا محالة أن يُرزق بها؛ لأن الله تعالى شاء ذلك وقدّره له، وفي استعمال كلمة (الشهادة) في هذا النص مرتين دلالة سيميائية على أن الإمام الحسين عليه السلام سيقتله الكفار في واقعة الطف وليس المؤمنين، وسينقسم الناس في موقفهم منه على قسمين لا ثالث لهما قسم يمثّل المؤمنين الذين وقفوا معه وساندوه وضحّوا بدمائهم وأرواحهم دونه، وقسم يمثّل الكافرين الذين وقفوا ضدّه وقاتلوه وسفكوا دمه، فأضحى قتيلا شهيدا في سبيل الله تشهده ملائكة الرحمة، ويشهد الله وملائكته له بالجنة، وهو حي يرزق عند ربه، فضلا عن الثواب العظيم والدرجات العليا التي وعده الله بها إذا استشهد في سبيله، ثم أن هناك سببا آخر للشهادة يشير إليه جدّه في قوله: (« **ليكون لك ما كتب الله فيها من الثواب العظيم** »)، فقد بيّنت اللام التعليلية سببا من أسباب نيله درجة الشهادة وخصّه بها، وهو أن يحصل فضلا عن الدرجات العليا في الجنان على الثواب العظيم الذي كتبه الله للشهداء في سبيله.

---

(١) مقتل الحسين ١٦٨.

وأنا أرجو أن أكون أنا وأنت في درجة الشهداء

بعث الإمام الحسين عليه السلام ابن عمّه وثقته مسلم بن عقيل إلى أهل الكوفة؛ ليستعلم حالهم ورأيهم وموقفهم، ويكتب إليه بذلك، وبعد أن سلّم الكتاب إلى مسلم بن عقيل قال له:

"« **إني موجّهك إلى أهل الكوفة، وسيقضي الله من أمرك ما يحبّ ويرضى، وأنا أرجو أن أكون أنا وأنت في درجة الشهداء، فامضِ ببركة الله وعونه، فإذا دخلتها فانزل عند أوثق أهلها** »"(١). إن النص المتقدّم ينقل كلام الإمام عليه السلام مع ابن عمه وسفيره إلى الكوفة مسلم بن عقيل، مبيّنا له أنه سيرسله إلى أهل الكوفة، وأن الله تعالى سيقضي ويقدّر من أمره ما يحبّ ويرضى، ثم قال: (« **وأنا أرجو أن أكون أنا وأنت في درجة الشهداء** »)، إذ يوظّف في كلامه الضمير (أنا) والفعل المضارع (أرجو) الذي يشير إلى استمراره في رجائه هذا، ولكن أي رجاء وأي شيء وأي مصير يرجوه الحسين عليه السلام؟ إنه يرجو ويتمنى أن يكون ومسلم بن عقيل في درجة الشهداء، وقد كرر الضمير (أنا) مرتين؛ ليظهر إصراره على نيل درجة الشهادة، تلك الدرجة التي وعده بها النبي الكريم صلى الله عليه وآله؛ لينال ما ينال من خلود في الدنيا، وثواب عظيم، ودرجات عليا في الآخرة، إذا ما تحقّق رجاؤه، وهو أن يكون في درجة الشهداء، وقد وظّف في كلامه حرف الجر (في) الذي يفيد الظرفية ومعنى دخول الشيء في الشيء؛ ليشير إلى استعداده ورجائه للدخول في هذه الدرجة العظيمة وعدم خوفه من الموت الذي يشكّل مقدّمة للحصول عليها، وهو بذلك يضرب مثالا لإيمان القائد وشجاعته وإقدامه وعدم تردّده أو خوفه من قابل الأحداث مهما كانت النتائج ومهما زادت التحدّيات.

---

(١) مقتل الحسين، ١٤٦.

وأنا أرجو أن يرزقني الله الشهادة

أُلقي القبض على مسلم بن عقيل بعد أحداث دراماتيكية ومتسارعة، وأُدخل على عبيد الله بن زياد، وجرى بينهما حوار، فقال له ابن زياد:

"لقد خرجت على إمامك، وشققت عصا المسلمين، وألقحت الفتنة.

قال مسلم: كذبت، إنما شقّ العصا معاوية وابنه يزيد، والفتنة ألقحها أبوك، وأنا أرجو أن يرزقني الله الشهادة على يد شرّ بريته"[١].

ينبئ هذا الجزء من الحوار الذي دار بين مسلم بن عقيل وعبيد الله بن زياد بكذب ابن زياد واتهامه الباطل لمسلم بن عقيل بالخروج وشقّ عصا المسلمين، وإلقاح الفتنة، وينبئ من جانب آخر بشجاعة مسلم بن عقيل، وعدم خوفه من هذا المجرم العتيد، وعدم مجاملته له على حساب الحقّ الذي يؤمن به، لذلك يجيبه بشجاعة وصدق، غير خائف من تهديده له بالقتل، وغير مكترث به وبجلاوزته المجرمين، مفتتحا كلامه بقوله: (كذبت)، موظّفا الفعل الماضي الذي يشير إلى تحقّق كذبه، فاضحا إياه أمام الملأ الذين يسمعون هذا الكلام، مبيّنا لهم أن ابن زياد إنسان كذّاب يدّعي عليه تهماً هو بريء منها، ثم يقول له: (إنما شقّ العصا معاوية وابنه يزيد)، موظّفا أداة الحصر (إنما)؛ ليحصر المعنى ويؤكّد أن من شقّ العصا ليس مسلم بن عقيل، بل من فعل ذلك هو معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد، وهو هنا ينفي التهمة عن نفسه، ويظهر كذب ابن زياد،، ويخبر أن من شقّ عصا المسلمين، وسعى إلى أن يستحكم الخلاف بينهم، ويقاتل بعضهم بعضا ويقتله هو سيّده معاوية وابنه يزيد، ثم قال له بقوة وشجاعة ومن دون تردّد: (والفتنة ألقحها أبوك)،

---

(١) مقتل الحسين ١٦٤.

مبيّنا أنه ليس من ألقح الفتنة، بل من ألقحها وسقاها وكبّرها هو زياد بن أبيه والده، وهو بجوابه الواضح والصادق هذا يضع النقاط على الحروف، ويخبر بالحقيقة من دون مواربة أو مجاملة، ويسعى إلى إظهارها إلى الرأي العام؛ ليعلم الناس الحقيقة ويميّزوا الصادق من الكاذب، والبريء من المجرم، والمغدور من الغادر.

وبعد أن أنهى مسلم بن عقيل هذه المهمة الخطيرة، وبيّن كذب عدوّه، وسعى إلى فضحه، وردّ تهمه ردا منطقيا شجاعا، ونفى التهم الموجهة إليه، قال لابن زياد: (وأنا أرجو أن يرزقني الله الشهادة على يد شرّ بريته)، بادئا كلامه بالضمير المنفصل (أنا) والفعل المضارع (أرجو)، مبيّنا سعيه وإصراره على تحقيق رجائه الذي يرجوه، فقد كان من الممكن أن يقول: وأرجو، من دون استعمال الضمير (أنا)، إلا أن إصراره على أن يحقّق ما يرجوه جعله ينزاح إلى هذا التعبير دون غيره؛ ليدلّ على مراده المستقر في قرارة نفسه المؤمنة الساعية إلى الشهادة في سبيل الله، وقد تمظهر رجاؤه الذي يريد تحقيقه في قوله: (أن يرزقني الله الشهادة)، إذ وظّف الفعل المضارع (يرزق) الذي يؤشر إلى أن الشهادة رزق من الله تعالى لعباده المخلصين، وهو يرجو من الله عزّ شأنه أن يرزقه هذا الرزق الذي يتمنّاه، ثم يختم كلامه قائلا: (على يد شرّ بريته)، مبيّنا أن رزق الشهادة الذي يرجوه من الله تعالى يريده أن يكون على يد شرّ خلقه، وهو بقوله هذا يبعث إشارات سيميائية واضحة للمتلقي على أن عبيد الله بن زياد هو من شرار الناس وأخبثهم، وأن نيل الشهادة على يد إنسان هذه صفته هو شرف للإنسان، وخلود للذكر في الدنيا، ونعيم في الآخرة، وفعلا نال مسلم بن عقيل، بعد كلامه هذا وموقفه الشجاع والمبدئي، الشهادة في سبيل الله تعالى على يد شرار خلقه، وتحقّق له رجاؤه وما كان يطلبه من الله تعالى من رزق.

إن عقد مقارنة بين قول الإمام الحسين عليه السلام لمسلم بن عقيل قبل مغادرته إلى الكوفة: («**وأنا أرجو أن أكون أنا وأنت في درجة الشهداء**»)، وقول مسلم بن

عقيل: (وأنا أرجو أن يرزقني الله الشهادة)، يظهر أن القولين قد افتُتِحا بجملة: (وأنا أرجو)، وأن القولين يحملان معنى تمنّي الشهادة في سبيل الله تعالى؛ من أجل الإصلاح، والعمل بالحقّ الذي أراده الله تعالى، ومحاربة الباطل الذي نهى عنه. إن هذا التشابه بين القولين من حيث التركيب والمعنى فيه دلالة سيميائية على عمق الأثر الذي تركته التربية الحسينية في أهل بيته وأصحابه، وعلى قوة شخصية الإمام الحسين عليه السلام التي كان لها هذا التأثير الواضح والإيجابي في الناس الذين كانوا قريبين منه، وعلى استجابة هذه الشخصيات المؤمنة والرسالية لهذا التأثير ولهذه الشحنات والطاقات والفيوضات الحسينية التي سرعان ما تتفاعل مع تلك الشخصيات، وتتفاعل تلك الشخصيات معها، وتدخل إلى أعماق نفوسها المؤمنة المستعدّة والمتقبّلة لهذه الشحنات والطاقات الإيجابية، وتؤثر فيها تأثيرا إيجابيا يمنحها الإيمان والقوة والشجاعة واليقين على مواجهة التحدّيات والصعاب مهما كانت كبيرة.

وفيها استشهد وقد قرب الموعد

في ليلة عاشوراء جمع الإمام الحسين عليه السلام أصحابه وقال:

"« **أثني على الله أحسن الثناء، وأحمده على السرّاء والضرّاء (...) أما بعد فإني لا أعلم أصحابا أوفى ولا خيرا من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعا، وقد أخبرني جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله بأني سأساق إلى العراق، فأنزل أرضا يقال لها عمورا وكربلاء، وفيها استشهد، وقد قرب الموعد** »"[١]، فالحسين عليه السلام، بعد أن أثنى على الله تعالى، يفتخر بأصحابه وأهل بيته، مبيّنا وفاءهم وبرّهم وحبّهم له، وعدم تخلّيهم عنه وعن مبادئه مهما كانت النتائج،

(١) مقتل الحسين، ٢٢٠.

ومهما صعبت المواقف واشتدّت، واللافت في هذا النص أن الإمام الحسين عليه السلام قدّم ذكر أصحابه على أهل بيته، وفي ذلك إشارة واضحة إلى تقديره وحبّه لهم ولمواقفهم المبدئية والنبيلة والشجاعة تجاهه، وإلى تقدير أهل البيت عليهم السلام لمن يخلص لهم، ويقف في صفّهم مع الحقّ الذي يمثّلونه ضدّ الباطل الذي يمثّله أعداؤهم ومبغضوهم.

ثم قال عليه السلام: (« **وقد أخبرني جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله بأني سأساق إلى العراق** »)، مؤكّدا كلامه ب(قد) التحقيقية، وموظّفا الفعل الماضي (أخبر) الذي يشير إلى تحقّق وثبوت الإخبار من جدّه النبي صلى الله عليه وآله بأنه سيساق إلى العراق، وفي استعماله الفعل المضارع (أساق) المسبوق بسين الاستقبال دلالة جلية على أن جدّه قد أخبره أنه سيساق في قابل الأيام إلى العراق، وينزل أرض كربلاء بعد حصاره والجعجعة به وإجباره على دخول كربلاء وسوقه إليها سوقا والبقاء والقتال والشهادة فيها، وعدم السماح له بالوصول إلى الكوفة ودخولها، لكي لا يحقّق ما كان يريده من تغيير الأوضاع والثورة على يزيد الظالم وحكومته الجائرة، ثم قال: (« **وفيها استشهد، وقد قرب الموعد** »)، مخبرا عن شهادته في هذه الأرض بوساطة الجملة الخبرية (فيها استشهد) التي تقدّم فيها الجار والمجرور (فيها) على الفعل (استشهد)، وقد أشار هذا التقديم إلى اختصاص هذه الأرض بشهادته دون غيرها من الأراضي، ثم أكّد عليه السلام قرب موعد شهادته بوساطة (قد) التحقيقية. ومما يثير المتلقي في هذه الجملة، فضلا عما تقدّم، أن الإمام عليه السلام قال: (وفيها استشهد)، ولم يقل: عليها استشهد، فقد وظّف حرف الجر (في) الذي يفيد الظرفية ومعنى دخول الشيء في الشيء، ولم يوظّف حرف الجر (على) الذي يفيد العلو، وفي ذلك دلالة سيميائة ونكتة مهمة، فيما يبدو لي، أراد الإمام الحسين عليه السلام إيصالها إلى المتلقي، وهي أنه سيسيل

دمه الشريف، ويقتل، ويستشهد، ويدفن في داخل أرض كربلاء، وستكون هذه الأرض علامة بارزة تحكي للبشرية على مدى الأجيال ومرور الليالي والأيام مظلوميته، وعطشه، وحرقة قلبه، وسيلان دمه عليها، واستشهاده ودفنه فيها، وتشرّفها بضم جسده الطاهر، ليكون جزءا منها، ولتكون مثابة للأحرار والثوار والمضحّين على امتداد الدهر، ومنارا لمحبّي الإمام الحسين عليه السلام والسائرين على نهجه المهيع، وطريقه البطولي الذي اختطّه بدمه وشهادته وشهادة أهل بيته وأصحابه.

يا بني أنت شهيد آل محمد

في وقت السحر من ليلة عاشوراء، وبعد طول تهجّد وصلاة وتلاوة للقرآن "خفق الحسين عليه السلام برأسه خفقة، ثم استيقظ فقال: «(...) **ثم أني رأيت بعد ذلك جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه جماعة من أصحابه، وهو يقول لي: يا بني أنت شهيد آل محمد، وقد استبشر بك أهل السماوات وأهل الصفيح الأعلى**»"[(١)]، فالحسين عليه السلام يخبر بما رأى في منامه، ومما رآه في رؤياه في تلك الليلة وفي تلك الساعة التي سبقت شهادته بساعات قليلة، أنه رأى جدّه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومعه جماعة من أصحابه وهو يحدّثه قائلا: («**يا بني أنت شهيد آل محمد، وقد استبشر بك أهل السماوات وأهل الصفيح الأعلى**»)، مناديا إياه بوساطة (يا) النداء بلفظة (بني) التي تدلّ على أن الحسين عليه السلام سبط النبي وابنه الحبيب، وإلى هذا المعنى أشار النبي صلى الله عليه وآله في الكثير من أحاديثه بشأن الإمام الحسين وأخيه الأكبر الإمام الحسن عليهما السلام، ثم قال له: («**أنت شهيد آل محمد**»)، مخبرا إياه بشهادته وأنه سيكون

---

(١) نفس المهموم، ٢٣٤.

شهيد آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين، وقد استبشر به وبشهادته أهل السماوات وأهل الصفيح الأعلى، وفي ذلك دلالة على أن شهادته ستكون قريبة، وستحمل البشرى لأهل السماوات وأهل الصفيح الأعلى، وقد استقبل الإمام الحسين عليه السلام هذا النبأ الذي أخبِر به عن طريق الرؤيا الصادقة التي رأى فيها جدّه النبي صلى الله عليه وآله بمعنويات عالية، وروح وثّابة نحو الشهادة في سبيل الله، فهو يخبر أهل بيته وأصحابه بما رآه في هذه الرؤيا من دون وجل أو خوف من الموت والشهادة التي انبأه بها جدّه صلى الله عليه وآله، وقد أنهى حديثه عن هذه الرؤيا بقوله:

"«**اقترب الرحيل من هذه الدنيا لا شكّ في ذلك**»"[(١)]، فهو لا يشكّ في اقتراب رحيله من هذه الدنيا الفانية التي غدرت به وبأهل بيته، وسلّمت زمامها إلى أعدائه الذين يرومون قتله؛ للتخلّص من معارضته لهم، وعدم رضاه بحكمهم، وعدم مبايعته لهم وامتناعه عن وضع يديه بأيديهم، ولا يشكّ بموته وشهادته التي ستحدث بعد سويعات، فقد أسلم أمره لله تعالى، وعزم على ملاقاة حتفه، والقتال بشجاعة وإباء، وعدم الاستسلام لأعدائه الغادرين الظالمين، حتى لو كلّفه ذلك حياته.

هذا رسول الله والشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله يتوقّعون قدومكم

بعد أن فرغ الإمام الحسين عليه السلام من الصلاة يوم عاشوراء وفي أرض المعركة، نادى أصحابه قائلا:

"«**يا كرام هذه الجنة قد فتحت أبوابها، واتصلت أنهارها، وأينعت ثمارها، وهذا رسول الله والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله يتوقّعون قدومكم، ويتباشرون بكم،**

(١) نفس المهموم، ٢٣٤.

فحاموا عن دين الله ودين نبيّه، وذبّوا عن حرم الرسول ».

فقالوا: نفوسنا لنفسك الفداء، ودماؤنا لدمك الوقاء، فو الله لا يصل إليك وإلى حرمك سوء وفينا عرق يضرب"[١].

أدّى الإمام الحسين عليه السلام الصلاة في أول وقتها، مع أنه كان يقاتل أعداءه وأعداء الدين، ومع كون المعركة حامية الوطيس، ومع أن أعداءه لم يوقفوا القتال ولم يكفّوا عنه حينما طلب منهم إيقاف القتال؛ من أجل إقامة الصلاة، إلا أنه عليه السلام أدّاها مع من بقي معه من أهل بيته وأصحابه، وبعد الانتهاء من الصلاة شاهد الإمام العدد القليل الذي بقي من أصحابه، فناداهم مشجّعا لهم على الصبر والقتال قائلا: (« **يا كرام هذه الجنة قد فتحت أبوابها، واتصلت أنهارها، وأينعت ثمارها** »)، فهو يناديهم بالكرام؛ لأنهم سيدفعون أرواحهم ثمنا لعقيدتهم، وإيمانهم بالله، وحبّهم للإمام الحسين عليه السلام، وهذا كرم ما بعده كرم، ثم أخبرهم مرغّبا إياهم بما أعدّه الله لهم من نعيم في الجنة بأن الجنة فتحت أبوابها لهم، واتصلت أنهارها، وأينعت ثمارها، ثم قال لهم: (« **وهذا رسول الله والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله يتوقّعون قدومكم، ويتباشرون بكم** »)، مبيّنا أن النبي صلى الله عليه وآله، والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله يتوقّعون قدومهم عليهم شهداء في سبيل الله، ويستبشرون بهم وبقدومهم عليهم، وفي كلامه هذا مع أصحابه المخلصين إشارة واضحة إلى أنهم سيرزقون الشهادة في سبيل الله بعد قليل، وفي أثناء المعركة؛ دفاعا عن دين الله وعن ابن رسول الله، كما استشهد الذين من قبلهم؛ دفاعا عن دين الله وعن رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن الشهداء الذين سبقوهم بالتضحية بأرواحهم الطاهرة ينتظرونهم بصحبة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله،

---

(١) مقتل الحسين، ٢٥٧.

ويستبشرون بقدومهم، وفي ذلك تشريف لهم، وتقدير لشهادتهم في سبيل الله، ولموقفهم البطولي مع ابن رسول الله، ثم قال: (« **فحاموا عن دين الله ودين نبيّه، وذبّوا عن حرم الرسول** »)، طالبا منهم بوساطة فعلي الأمر (حاموا) و (ذبّوا) أن يحاموا ويدافعوا عن دين الله ودين جدّه النبي صلى الله عليه وآله، وأن يذبّوا عن حرم الرسول الأكرم، فما كان من أصحابه المخلصين إلا أن أجابوه قائلين: (نفوسنا لنفسك الفداء، ودماؤنا لدمك الوقاء، فو الله لا يصل إليك وإلى حرمك سوء وفينا عرق يضرب)، مبيّنين بكل شجاعة وعنفوان وإخلاص أن نفوسهم فداء لنفس الإمام الحسين عليه السلام، ودماءهم وقاء وحماية لدمه، ثم يقسمون بلفظ الجلالة؛ ليؤكّدوا أنهم سيقاتلون في سبيل الله، ومن أجل أن لا يصل إليه وإلى حرمه أي سوء وأي خطر، وفيهم عرق يضرب، ودم يسري، وفي قولهم هذا شجاعة ما بعدها شجاعة، وإخلاص ما بعده إخلاص.

وأيم اللّه إني لأرجو أن يكرمني اللّه بالشهادة

بقي الإمام الحسين عليه السلام وحيدا أمام أعدائه بعد أن استشهد من كان معه في معسكره، فقاتل أعداءه، ونازلهم، وقتل الكثير منهم، وفي أثناء القتال "رماه أبو الحتوف الجعفي بسهم في جبهته، فنزعه وسالت الدماء على وجهه، فقال:

« **اللهم إنك ترى ما أنا فيه من عبادك هؤلاء العصاة، اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تذر على وجه الأرض منهم أحدا، ولا تغفر لهم أبدا** ». وصاح بصوت عالٍ:

« **يا أمّة السوء بئسما خلفتم محمدا في عترته. أما إنكم لا تقتلون رجلا بعدي فتهابون قتله، بل يهون عليكم ذلك عند قتلكم إياي. وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله**

بالشهادة ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون »"[(١)].

شكا الإمام الحسين عليه السلام حاله إلى الله تعالى، بعد أن أصابه ما أصابه من هؤلاء الأعداء القساة الظالمين، ثم توجّه إلى الله بالدعاء عليهم، وبعد دعائه صاح بصوت عالٍ؛ لكي يسمعه الجميع، مناديا إياهم بوساطة (يا) النداء بأمّة السوء، ذامّا إياهم بوساطة فعل الذم (بئس) بأنهم بئسما خلفوا جدّه محمدا صلى الله عليه وآله في عترته، فبدل أن يكرموا عترته وذريّته، فإذا بهم يقتلونهم ويؤذونهم أذى كبيرا، ثم بيّن جرأتهم على قتل أي إنسان بعد جرأتهم على قتله، وفي كلامه هذا دلالة نفسية على قسوة قلوب هؤلاء الأعداء وعلى خراب نفوسهم، إذ ستحيلهم جريمتهم النكراء وجرأتهم على قتل الإمام الحسين عليه السلام إلى وحوش قاسية كاسرة لا رحمة في قلوبهم، ولا عقل في رؤوسهم، ثم قال: (« **وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بالشهادة ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون** »)، موظّفا القسم (وأيم الله)، و(إنّ)، واللام الواقعة في جواب القسم؛ ليؤكّد عبر هذه التوكيدات المتتابعة رجاءه الحقيقي بأن يكرمه الله بالشهادة في سبيله، وقد استعمل الفعل المضارع (يكرم)؛ للإشارة إلى أن الشهادة في سبيل الله ومن أجل الإصلاح وتغيير الواقع الفاسد، ومن أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي كرم من الله عزّ ذكره، وهو عليه السلام يرجو من الله تعالى، ويؤكّد رجاءه أمام الأعداء بأكثر من توكيد، أن يكرمه الله ويرزقه الشهادة التي يتمنّاها في سبيله تعالى، ثم يرجو من الله تعالى أن ينتقم له منهم بعد شهادته انتقاما إلهيا شديدا من حيث لا يشعرون، وهو هنا يبيّن الفرق بين مصيره شهيدا مخضّبا بدمه في سبيل الله، وفي سبيل المبادئ التي آمن بها، واستشهد من أجل تحقيقها، وبين مصير أعدائه الذين سينالون العار والفضيحة والذكر

---

(١) مقتل الحسين، ٢٩٢، وينظر: نفس المهموم، ٣٥٦.

السيء، والانتقام والبطش الإلهي بهم في الدنيا، والعذاب الشديد والخزي في الآخرة، وفعلا تحقّق رجاء الإمام الحسين عليه السلام وتوقّعه، وأكرمه الله بالشهادة فأضحى سيد الشهداء والأحرار على مر التاريخ، في حين ذلّ الله أعداءه وانتقم له منهم من حيث لا يشعرون، وأخزاهم وسوّد ذكرهم ووجوههم في الدنيا والآخرة.

الشهادة والرحمة

خطبت السيدة زينب عليها السلام خطبة مدوّية تحمل الكثير من المعاني، والكثير من بنى الاحتجاج في مجلس يزيد بن معاوية في الشام، فقد أحرجته بروعة بيانها، وقوة حجّتها، وثقتها بالله تعالى وبنفسها، وفضحت سياسته وظلمه، واستصغرت قدره، ثم ختمت خطبتها باستشراف المستقبل، والإخبار بنهايته نهاية سريعة، واستمرار ذكر أهل البيت عليهم السلام وعدم محوه أبدا، إذ قالت:

"« **فكد كيدك، واسعَ سعيك، وناصب جهدك، فو الله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا يرحض عنك عارها، وهل رأيك إلا فند، وأيامك إلا عدد، وجمعك إلا بدد، يوم ينادي المنادي: ألا لعنة الله على الظالمين، والحمد لله رب العالمين الذي ختم لأوّلنا بالسعادة والمغفرة، ولآخرنا بالشهادة والرحمة، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب، ويوجب لهم المزيد، ويحسن علينا الخلافة، إنه رحيم ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل** »"(١).

تختم السيدة زينب عليها السلام خطبتها بحمد الله رب العالمين الذي ختم لأوّلهم

---

(١) مقتل الحسين ٢٧٩، وينظر: بلاغات النساء، أحمد بن أبي طاهر طيفور، اعتنى به وفهرسه: بركات يوسف هبّود، المكتبة العصرية، بيروت، د. ط، ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥ م، ٤٠.

بالسعادة والمغفرة، ولآخرهم بالشهادة والرحمة، فهي تقف بقوة وتصبّر وإباء ورضا بقضاء الله الذي كتبه عليهم أمام يزيد الطاغية الظالم، ودون تردّد أو خوف أو حتى تلعثم في الكلام؛ لتحمد الله عزّ شأنه على أن رزق أخاها الحسين عليه السلام وختم له بالشهادة والرحمة، فهي تعطف كلمة (الرحمة) على كلمة (الشهادة)؛ لتشير إلى أن شهادة الإمام الحسين عليه السلام والثلّة المؤمنة معه هي رحمة من الله تعالى ختم حياتهم الدنيوية بها، فضلا عن كونها درجة عالية لا ينالها إلا ذو حظ عظيم، وقد كان أخوها الحسين عليه السلام يرجوها من الله ويتمناها، حتى رزقه الله إياها وأكرمه وختم له بها، ثم تسأل الله تعالى أن يكمل لأولهم وآخرهم الثواب، ويوجب لهم المزيد من فضله ومنّه وكرمه، وأن يحسن عليها وعلى من بقي معها الخلافة وعاقبة شهادتهم في سبيل الله تعالى، ومن أجل إحياء دينه.





وحدات سيميائية أخرى

دالّة على الموت



وحدات سيميائية أخرى دالّة على الموت

في معجم النهضة الحسينية نجد علامات لغوية أخرى،غير ما تقدّم ذكره، تشير إلى الموت، ومن الألفاظ الدالة على الموت: ضرب العنق، والذبح، والمنيّة، ولقاء الله، والمصرع، وبذل المهجة، والهلاك، واستخراج العلقة من الجوف، وتقطيع الأعضاء، والفداء بالنفس، والحمام، والسلّة، ومفارقة الأرواح الأجساد، وقضى نحبه، والذهاب إلى الآخرة، والأكفان، وكتابة الوصيّة، فضلا عن ألفاظ أخرى. إن كثرة الألفاظ الدالة على الموت في معجم النهضة الحسينية يشير إلى عدّة أمور منها:

١. إن هذه النهضة محفوفة بالمخاطر، وسفك الدماء، والموت، والشهادة من أوّل ساعة بدأت فيها المواجهة مع يزيد وأعوانه إلى آخر ساعة استشهد فيها الإمام الحسين عليه السلام على أرض كربلاء.

٢. كانت هذه الحركة الحسينية الإصلاحية، وكان قائدها الإمام الحسين عليه السلام وأعوانه مهددين بالقتل والتصفية الجسدية في كل لحظة من لحظات المواجهة، منذ أن بدأت في المدينة المنورة بلقاء الإمام الحسين عليه السلام بالوليد بن عتبة ومروان بن الحكم، وتهديد الأخير له بضرب عنقه في حال عدم مبايعته يزيد بن معاوية، حتى انتقلت إلى مكة المكرمة، فمنازل الطريق إلى العراق، حتى انتهت إلى أرض كربلاء، وفي كثرة العلامات اللغوية الدالّة على القتل والموت التي استعملها أعداء الإمام الحسين عليه السلام دلالة سيميائية على ظلمهم وقسوتهم وبشاعتهم وحقدهم الكبير على الإمام

الحسين عليه السلام وأتباعه وإصرارهم على قتله.

٣. في الجانب الآخر، أي جانب الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه الذين خرجوا معه، نجد أن كثرة ذكر الموت وبألفاظ متنوعة وكثيرة يحمل دلالة واضحة على استعداد الإمام الحسين عليه السلام ومن كان في صفّه للموت، من أجل إصلاح الواقع الفاسد الذي وصلت إليه الأمة؛ بسبب سياسات الأمويين الهوجاء ونهجهم الظالم، فقد كان الإمام الحسين عليه السلام موطّنا نفسه على الموت شهيدا في سبيل الله، وكان أهل بيته وأصحابه مستعدّين للموت دونه في الظروف كلها.

٤. مع كثرة ذكر الموت وبألفاظ كثيرة، وطرق قاسية ابتكرها أعداء الإمام الحسين عليه السلام، إلا أن هذا الذكر الكثير للموت، وهذه الألفاظ المتعدّدة، وهذه الطرق القاسية والبشعة التي استعملها الأمويون في قتل الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، وهذه التهديدات الكثيرة لهم بسفك الدماء، والتصفية الجسدية، والقتل البشع لم تقف حائلا دون أن يقوم الإمام الحسين عليه السلام بنهضته على الظلم والظالمين، ويسعى إلى الإصلاح، ودون أن يقف في صفّه أهل بيته وأصحابه وقفة الأبطال الغيارى الذين ضحّوا بأرواحهم؛ من أجل تحقيق أهداف النهضة الحسينية الخالدة، فهم لم يتردّدوا في مواقفهم، ولم يخافوا الموت، مع خطورة الأوضاع، وكثرة التهديدات، وقسوة الأعداء.

الوحدات السيميائية الدالة على ضرب العنق

وردت الإشارة إلى ضرب العنق في عدد من نصوص النهضة الحسينية، وهي تشير إلى الموت؛ بسبب حزّ العنق وقطع الرأس، وسنورد هذه النصوص تباعا، وكما يأتي:

احبس الرجل حتى يبايع أو تضرب عنقه

دعا والي المدينة الوليد بن عتبة الإمام الحسين عليه السلام إلى قصر الإمارة؛ كي يأخذ منه البيعة ليزيد بن معاوية، لكن الإمام رفض بيعة يزيد قائلا:

"« **مثلي لا يبايع سرا، فإذا دعوت الناس إلى البيعة دعوتنا معهم فكان أمرا واحدا** ».

فاقتنع الوليد منه، لكن مروان ابتدر قائلا:

إن فارقك الساعة ولم يبايع لم تقدر منه على مثلها حتى تكثر القتلى بينكم، ولكن احبس الرجل حتى يبايع أو تضرب عنقه"[(١)]، وهنا، وفي هذا الموقف يبدأ الإرهاب الأموي ضدّ الإمام الحسين عليه السلام مباشرة ومن دون مقدّمات، فقد كان الأَولى بمروان أن يحاور الإمام؛ لكي يصلوا إلى مساحة مشتركة في الحوار، أو إلى حل وسطي يرضي طرفي الحوار، أو على الأقل كان يقتنع بما اقترحه الإمام الحسين عليه السلام كما اقتنع الوليد بن عتبة، إلا أن غلظة هذا الرجل، وقسوته، وعدم حبّه لأهل البيت، وتحامله عليهم، وسعيه إلى إرضاء يزيد بن معاوية حال دون الحوار مع الإمام، ودون الرضا بما اقترحه الحسين عليه السلام على الوليد بن عتبة، لذلك يتدخّل في الحوار الذي دار بين الإمام ووالي المدينة تدخّلا سلبيا بدل أن يتدخّل تدخّلا إيجابيا يسهم في حلحلة الأمور وتسهيلها، فيحذّره قائلا: (إن فارقك الساعة ولم يبايع لم تقدر منه على مثلها حتى تكثر القتلى بينكم)، إذ يوظّف أداة الشرط الجازمة (إن) وجملة الشرط (فارقك الساعة ولم يبايع)، فستكون النتيجة التي أشار إليها جواب الشرط (لم تقدر منه على مثلها حتى تكثر القتلى بينكم)، فهو منذ البداية يستبق الشر، ويتوقّعه، ويسعى إليه؛ من أجل التنكيل

---

(١) مقتل الحسين ١٢٨ – ١٢٩.

بالإمام الحسين عليه السلام والتخلّص منه ومن معارضته للنظام الحاكم، إذ ينفي بوساطة أداة الجزم والنفي والقلب (لم) قدرة الوليد بن عتبة على أخذ البيعة من الإمام إن فوّت هذه الفرصة السانحة، وفي حال عدم أخذ البيعة منه، ولو بالقوة والإكراه فإن النتيجة التي يتوقّعها والتي أظهرها جواب الشرط هي أن تسيل الدماء وتكثر القتلى من الطرفين.

يقترح مروان بعد ذلك على الوليد بن عتبة اقتراحا إرهابيا في قوله: (ولكن احبس الرجل حتى يبايع أو تضرب عنقه)، مستدركا كلامه بوساطة (لكن)، وموظفا فعل الأمر (احبس)، مقترحا على والي المدينة حبس الإمام الحسين؛ حتى تتحقّق الغاية التي يرجوها ويريد تحقيقها، وهي البيعة ليزيد بن معاوية، فإن تحقّقت فهذا هو المطلوب والمرتجى الذي يسعى إليه الأمويون، وإن لم تتحقّق، ورفض الإمام أن يبايع يزيد ويضع يده في يده، فإن مروان يقترح خيارا آخر من خيارات المواجهة مع الحسين عليه السلام، إذ وظّف حرف العطف (أو) الذي يفيد معنى التخيير؛ ليخيّر الوليد بن عتبة خيارا ثانيا في حال عدم أخذ البيعة من أبي عبد الله ورفضه لها، وهو أن يضرب عنقه ويقتله مستعملا خيار التصفية الجسدية مع خصمهم، وهذه سياسة اتبعها الأمويون في حكمهم؛ من أجل السيطرة على الحكم، وتصفية كل معارض لهم، وهو بذلك يكشف عن نفسية لئيمة حاقدة لا تعرف للحوار طريقا، ولا رحمةَ ولا رأفةَ في قلبه تجاه أي إنسان معارض لسياساتهم الظالمة، حتى لو كان المعارض هو الحسين بن علي عليهما السلام، سبط نبي الأمة صلى الله عليه وآله، وسيد شباب أهل الجنة، كما يكشف عن عدم وجود خطوط حمراء أمام الأمويين من أجل تحقيق أطماعهم في الحكم والسيطرة على مقدّرات المسلمين، حتى لو أدى ذلك إلى انتهاك حرمة أهل بيت النبي وقتلهم عن بكرة أبيهم، وسبي نسائهم؛ من أجل أن يتخلصوا منهم ومن معارضتهم، ويخلو لهم الطريق للانفراد بالحكم، وهذا ما ظهر على

لسان جلاوزتهم في اللحظات الأخيرة من واقعة الطف حينما قال قائلهم: "لا تَدَعوا منهم صغيرا ولا كبيرا"[١].

ضرب عنق مسلم بن عقيل

قُبض على مسلم بن عقيل، وجيء به إلى ابن زياد، وبعد حوار جرى بينهما اتهمه فيه ابن زياد بتفريق الناس، فردّه مسلم ردا شجاعا أحرجه، "فأمر ابن زياد رجلا شاميا أن يصعد به إلى أعلى القصر، ويضرب عنقه، ويرمي رأسه وجسده إلى الأرض، فأصعده إلى أعلى القصر، وهو يسبّح الله ويهلّله ويكبّره، ويقول:

اللهم احكم بيننا وبين قوم غرّونا وخذلونا وكذّبونا، وتوجّه نحو المدينة، وسلّم على الحسين عليه السلام.

وأشرف به الشامي على موضع الحذائين، وضرب عنقه، ورمى برأسه وجسده إلى الأرض"[٢].

إن هذا الحدث المؤلم يشير إلى قسوة ابن زياد وجلاوزته، إذ كيف يمكن لإنسان يدّعي أنه قائد ووالٍ أن يقترف هذه الجريمة النكراء بقتل أسير اقتيد إليه بالقوة والإكراه والمكيدة؟ ثم أنه ألا توجد طريقة للقتل وتصفية الخصوم أقلّ بشاعة من هذه الطريقة المغرقة في الساديّة؟ إذ تشير الرواية التاريخية لهذا الحدث المروّع أن ابن زياد أمر رجلا من جلاوزته أن يصعد بمسلم بن عقيل إلى أعلى القصر؛ لكي يضرب عنقه ويقتله ويتخلّص منه، ثم يرمي رأسه وجسده من أعلى قصر الإمارة إلى الأرض، فأصعِد مسلم إلى أعلى

---

(١) مقتل الحسين ٣١٦.

(٢) مقتل الحسين، ١٦٥ – ١٦٦.

القصر؛ لكي تُضرب عنقه وتُنفّذ به هذه الجريمة النكراء، إلا أن مما يلفت النظر أن مسلما لم يَخَفْ من ضرب عنقه وقتله، ولم يتوسّل بهم؛ لكي يتركوه ولا ينفذوا به جريمتهم القاسية، بل كان هادئا وثابتا وأبيا ومنشغلا بتسبيح الله وتهليله وتكبيره، والدعاء بأن يحكم بينه وبين القوم الذين غرّوهم وكذّبوهم وقتلوهم، ثم توجّه إلى جهة المدينة وسلّم على الإمام الحسين عليه السلام، وهو مستسلم إلى قضاء الله تعالى، فما كان من الرجل الشامي إلا أن ينفّذ ما أمره به ابن زياد، ويضرب عنق مسلم بن عقيل ويرمي رأسه وجسده من أعلى القصر إلى الأرض بحقد ولؤم. إن هذا الحدث الدموي والمأساوي البشع، يدلّ دلالة واضحة على إجرام الأمويين وأعوانهم، ويدلّ على نفسيات خسيسة لئيمة مجرمة تعاني من عقدة الساديّة التي تمكنّت منها تماما، وإلا:

لماذا يُقتل مسلم بهذه البشاعة، وتُضرب عنقه، ويُفصل رأسه عن جسده، ثم يُرمى الرأس والجسد إلى الأرض؟!

ولماذا يُسحب جسده وجسد هاني بن عروة بالحبال من أرجلهما في الأسواق وأمام مرأى الناس، ولا وجود لمعترض على هذا العمل الإجرامي؟!

ولماذا يُصلبان بالكناسة منكوسين؟!

ولِمَ هذا السعي الإجرامي والمحموم لابتكار طرق بشعة جدا في القتل والتنكيل؟!

إن ذلك كلّه يظهر نفوسا امتهنت الإجرام، وتعوّدت عليه، واستسهلته بشكل عجيب، حتى أصبحت تتسلّى بهذه الجرائم، وترضي غرائزها المريضة والشيطانية، وتشبع نهمها لسفك الدماء وقتل الأبرياء بطرق كثيرة وبشعة ومبتكرة؛ لترهيب أعدائهم وإخافتهم، كما أن هذه النفوس المجرمة لا تتورّع عن ارتكاب المحرّمات التي حرّمها الله

تعالى، ومنها قتل الناس على الظنّة والتهمة، والتمثيل بجثث القتلى تمثيلا ينبئ عن نفوس تركت آدميتها وإنسانيتها وتحوّلت إلى وحوش فتّاكة هدفها سفك دماء الأبرياء والتنكيل بهم والتمثيل بجثثهم أبشع مثلة، مع أن الإسلام يحرّم المثلة ولو بالكلب العقور، إلا أن سلاح الأمويين الفتاّك والحاقد هذا لم يجدِ نفعا مع خصومهم، فقد كثرت الثورات التي خرجت ضد سياساتهم المنحرفة والإجرامية، ولا سيما بعد نهضة الإمام الحسين عليه السلام وشهادته المروّعة، فقد كسرت هذه النهضة المباركة حاجز الخوف عند الناس، ومن ثم كثرت الثورات على الأمويين حتى زال حكمهم، وزالت دولتهم التي تعدّ من أقصر الدول عمرا في التاريخ.

فضربتُ عنقيهما وبعثتُ إليك برأسيهما

بعد جريمة ابن زياد المروّعة والبشعة بحقّ مسلم بن عقيل وهاني بن عروة، كتب إلى يزيد كتابا يخبره فيه بضرب عنقيهما وقتلهما، إذ يقول:

"أما بعد، فالحمد لله الذي أخذ لأمير المؤمنين بحقّه وكفاه مؤنة عدوّه. أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله أن مسلم بن عقيل لجأ إلى دار هاني بن عروة المرادي، وأني جعلت عليهما العيون، ودسست إليهما الرجال، وكدتهما؛ حتى استخرجتهما، وأمكن الله منهما، فضربتُ أعناقهما (كذا)، وبعثتُ إليك برأسيهما"[(١)].

إن كتاب ابن زياد ليزيد بن معاوية يمثّل نصا مهما ووثيقة تاريخية خطيرة، تشير إلى اعتماد الأمويين وقادتهم وأتباعهم أسلوب الغدر والمكيدة مع خصومهم، فهذا ابن زياد يتملّق لسيّده يزيد، ويخبره بلجوء مسلم بن عقيل إلى دار هاني بن عروة، وبدل أن

(١) مقتل الحسين ١٦٧.

يحاورهما مباشرة، أو يرسل لهما رسولا للتفاوض وإيضاح الأمور، وبيان سبب مجيء مسلم إلى الكوفة، ومحاولة إيجاد حل سلمي لهذه الأزمة، فإنه يخبر سيّده أنه جعل عليهما العيون، وسخّر جواسيسه للتجسّس عليهما ورصد تحركاتهما، ودسّ إليهما رجاله؛ ليتعرّفوا أخبارهما وخططهما المستقبلية، وكادَهما بمكره وحيله الخبيثة، وهو يكشف في قوله هذا عن غدره وكيده ودسائسه الخبيثة بحقّهما، حتى أخرجهما وقبض عليهما، وبعد أن تمكّن منهما ضرب عنقيهما وقتلهما شر قتلة وأبشعها، ومثّل بجثّتيهما، وبعث برأسيهما إلى يزيد، ومما يجذب النظر في النص أن ابن زياد يفتخر أمام سيّده بأفعاله الغادرة، ودسائسه، ومكره، وخططه الخبيثة للنيل من خصومهم ومعارضيهم، وهذا دليل على وحشيّته، وساديّته، وعنفه، ومسخه من كونه إنسانا وخليفة لله في أرضه إلى كونه مجرما متوحشّا سفّاكا للدماء، وقاتلا متمرّسا على القتل؛ من أجل إرضاء غرائزه ونفسيّته المريضة، وأسياده المولعين بالإجرام.

الوحدات السيميائية الدالة على الذبح

من النصوص الدالة على الموت تلك النصوص التي وردت فيها مفردة الذبح بعدّة اشتقاقات، وهي كما يأتي:

كأني أراك عن قريب مرمّلا بدمائك مذبوحا بأرض كربلاء

زار الإمام الحسين عليه السلام قبر جدّه النبي صلى الله عليه وآله مرتين قبل خروجه من المدينة إلى مكة، وفي الزيارة الثانية وضع رأسه على القبر فغفا، وفي غفوته رأى جدّه في الرؤيا، وقال له:

"« **حبيبي يا حسين كأني أراك عن قريب مرمّلا بدمائك مذبوحا بأرض كربلاء بين عصابة من أمتي** »"[١].

إن هذه الرؤيا التي رأى فيها الإمام الحسين عليه السلام جدّه صلى الله عليه وآله في أثناء زيارته لقبره ووداعه له قبل خروجه من المدينة المنورة تشكّل استباقا زمنيا بمصطلح السرديات لمقتل الإمام الحسين عليه السلام وشهادته مرمّلا بدمه الشريف على أرض كربلاء، فهي تخبر بهذا الحدث المأساوي الفاجع، فالرسول صلى الله عليه وآله يخبر سبطه وحبيبه الحسين عليه السلام في الرؤيا بما سيحدث في قابل الأيام، مخاطبا إياه بحنان الجد وحبّه الكبير له بقوله: (« **حبيبي يا حسين** »)، متوقّعا أن يراه عن قريب شهيدا مذبوحا في قوله: (« **كأني أراك عن قريب مرمّلا بدمائك مذبوحا بأرض كربلاء** »)، وقد أشار قوله: (عن قريب) إلى قرب موعد شهادة سبطه الحسين عليه السلام، ولكن بأية حال؟ وبأية طريقة؟ أما حاله عند الشهادة فستكون مرمّلا بدمائه؛ بسبب كثرة الجروح التي ستصيبه من طعن السيوف، ورمي النبال والسهام، ورمي الحجارة، وطحن جسده الشريف بحوافر الخيول، أما طريقة قتله، ففضلا عما تقدّم من طرق بشعة في القتل والتنكيل البشع، فإنه سيذبح على يد شرّ خلق الله من الوريد إلى الوريد، وبذلك يشير النبي الأعظم صلى الله عليه وآله إلى شهادة حبيبه الحسين عليه السلام في وقت قريب، ويخبر بها، كما يشير إلى قسوة أعدائه وإجرامهم، مع أنهم من أمّته، وهنا تكمن المفارقة، فقد كان الأجدر بهؤلاء الناس أن يكرموا سبطه وحبيبه الحسين عليه السلام، ويراعوا أهل بيته، ويحفظوا حقّ رسول الله في أقربائه إلا أنهم فعلوا عكس ذلك وقتلوهم وشرّدوهم، وبذلك كشفوا عن وجههم القبيح وإجرامهم بحقّ النبي وأهل بيته عليهم السلام.

---

(١) مقتل الحسين، ١٣٢.

وأنا أعلم أني مقتول مذبوح ظلما وعدوانا

عزم الحسين عليه السلام على مغادرة المدينة، متوجّها إلى مكة، ومن ثم إلى العراق، وكان من الناصحين له بعدم الخروج السيدة أم سلمة، إذ قالت له:

"لا تحزنّي بخروجك إلى العراق، فإني سمعت جدّك رسول الله يقول:

« **يقتل ولدي الحسين عليه السلام بأرض العراق في أرض يقال لها كربلاء، وعندي تربتك في قارورة دفعها إليّ النبي صلى الله عليه وآله** ».

فقال الحسين عليه السلام: « **يا أماه وأنا أعلم أني مقتول مذبوح ظلما وعدوانا، وقد شاء عز وجل أن يرى حرمي ورهطي مشرّدين، وأطفالي مذبوحين مأسورين مقيّدين، وهم يستغيثون، فلا يجدون ناصرا** »"[(١)].

ورد ذكر الذبح في النص المتقدّم في علامتين لغويتين في قول الإمام عليه السلام هما (مذبوح) و (مذبوحين)، فهو يخبر السيدة أم سلمة بعلمه بمقتله مذبوحا في قوله: (« **يا أماه وأنا أعلم أني مقتول مذبوح ظلما وعدوانا** »)، إذ يؤكّد علمه بمصيره عن طريق ضمير المتكلم (أنا)؛ لأن الفعل (أعلم) ينطوي على ضمير مستتر تقديره (أنا)، فقد كان من الممكن أن يقول: يا أماه أعلم أني مقتول مذبوح، إلا أنه أراد أن يؤكّد علمه، فقدّم الضمير (أنا) على الفعل (أعلم)، كما أنه وظّف توكيدا ثانيا عن طريق (أنّ) المفتوحة الهمزة، ثم يأتي خبر (أنّ) الأول (مقتول)، وخبرها الثاني (مذبوح)؛ ليخبر بوساطتهما أنه سيقتل مذبوحا ظلما له، وعدوانا سافرا عليه من أعدائه الظالمين المتجبّرين، ثم أكمل كلامه قائلا: (« **وقد شاء عز وجل أن يرى حرمي ورهطي مشرّدين، وأطفالي مذبوحين**

---

(١) مقتل الحسين، ١٣٥.

مأسورين مقيّدين، وهم يستغيثون، فلا يجدون ناصرا »)، إذ أكّد قوله ب(قد)، مؤكّدا أن الله تعالى شاء أن يرى حرمه ورهطه مشرّدين، وأطفاله مذبوحين مأسورين مقيّدين، إذ سينقسم الأطفال على قسمين، قسم سيذبح في أرض المعركة، وقسم ثانٍ سيكونون أسرى مقيّدين بيد الأعداء، وهؤلاء الأسرى سيستغيثون من ظلم العدو وتنكيله بهم، إلا أنهم مع استغاثتهم، ومع علم الناس بانتمائهم إلى البيت النبوي، لا يجدون منصفا ينصفهم ويدفع الظلم الواقع عليهم، ولا يجدون ناصرا ينصرهم ويخلّصهم مما هم فيه.

يذبّحون أبناءهم

بعد فضيحة يزيد بن معاوية في مجلسه وأمام الملأ؛ بسبب خطبتي الإمام السجاد والسيدة زينب عليهما السلام، أمر أن يُخرجوا ومن معهم "من المجلس إلى خربة لا تكنهم من حر ولا برد، فأقاموا فيها ينوحون على الحسين عليه السلام ثلاثة أيام، وفي بعض الأيام خرج السجاد عليه السلام منها يتروح، فلقيه المنهال بن عمرو، وقال له:

كيف أمسيت يا ابن رسول الله؟

قال عليه السلام: « **أمسينا كمثل بني إسرائيل في آل فرعون يذبّحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم. أمست العرب تفتخر على العجم بأن محمدا منها، وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأن محمدا منها، وأمسينا معشر أهل بيته مقتولين مشرّدين، فإنا لله وإنا إليه راجعون** »"[(١)].

أجاب الإمام السجاد عليه السلام المنهال بن عمرو عن سؤاله جوابا فيه أكثر من علامة سيميائية على ظلم أهل البيت عليهم السلام من أعدائهم ظلما شديدا، إذ يبدأ

(١) مقتل الحسين ٣٧٩ – ٣٨٠.

جوابه قائلا: (« **أمسينا كمثل بني إسرائيل في آل فرعون يذبّحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم** »)، مشبّها آل محمد بوساطة كاف التشبيه و(مثل) ببني إسرائيل من ناحية الظلم الكبير الذي وقع عليهم، وهو في جوابه هذا يتناص مع بعض آيات القرآن الكريم، ويشير إليها، ويوجّه المتلقي إليها، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[(١)]، وقوله عز ذكره: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[(٢)]، فالسجاد عليه السلام يشبّه الظلم الذي وقع على آل النبي والهاشميين من آل أمية بالظلم الذي وقع على بني إسرائيل من آل فرعون من ناحية أن الطرفين الظالمين، آل فرعون وآل أمية ذبّحوا وقتلوا أبناء معارضيهم، ولم تأخذهم فيهم رحمة ولا شفقة، وقد أشار توظيفه للفعل المضارع (يذبّحون) الذي استعاره من القرآن الكريم إلى استمرار فعل الذبح وشدّته، الذي قام به الظالمون من آل فرعون وآل أمية، فقد أشارت الشدّة الواقعة على حرف الباء في قوله: (يذبّحون)، الذي ورد بصيغة الوزن (فعّل)الدال على تكرار الفعل إلى شدّة الذبح وتكراره وكثرته، وإلى حقد الأعداء عليهم، وسعيهم إلى ذبحهم بشدّة ودون رحمة، وتصفيتهم جسديا، كما أن إشارة الإمام إلى آيات القرآن الكريم، ومنها النصان المذكوران فيها دلالة على عظمة الابتلاء الإلهي وشدّته الذي وقع على بني إسرائيل وعلى آل محمد، فالنصّان القرآنيان الكريمان ينتهيان بقوله تعالى: ﴿ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ .

---

(١) البقرة: آية ٤٩.

(٢) ابراهيم: آية ٦.

ثم أكمل الإمام السجاد عليه السلام جوابه قائلا: (« **أمست العرب تفتخر على العجم بأن محمدا منها، وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأن محمدا منها، وأمسينا معشر أهل بيته مقتولين مشرّدين، فإنا لله وإنا إليه راجعون** »)، مبيّنا المفارقة الكبيرة، وغدر الزمان بهم، فهو يخبر المنهال بن عمرو أن العرب تفتخر على العجم؛ لأن جدّه النبي صلى الله عليه وآله من العرب، وأن قريشا تفتخر على سائر العرب؛ لأن محمدا صلى الله عليه وآله منها، إلا أن المفارقة العجيبة والغريبة أن أهل بيت النبي الذي تفتخر به العرب بشكل عام، وقريش بشكل خاص، أمسوا مقتولين ومشرّدين في أصقاع الأرض بدل أن يُكرّموا، ويُفتَخَر بهم ويُحتَفى في كلّ حين؛ فهم ذريّته وأهل بيته، والامتداد الطبيعي له، وكان الأولى بالأمة أن تحفظ ذكر نبيّها وأياديه البيضاء عليهم في أهل بيته وقرابته، إلا أن الأطماع الدنيوية بالجاه والسلطان أدّى إلى هذه المعاملة القاسية واللئيمة مع أهل البيت، والجاحدة لفضل النبي صلى الله عليه وآله على أمته، ثم يختم الإمام السجاد كلامه بالقول: (« **فإنا لله وإنا إليه راجعون** »)، في تناص وإشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[1]، مبيّنا في هذا التناص وهذه الإشارة المهمة إلى هذه الآيات الكريمات، الابتلاء الإلهي الذي وقع عليهم من تخويف، وترويع، وتجويع، وتعطيش، وإراقة للدماء، وقتل، وتشريد، وأسر، وتعذيب، وغير ذلك، إلا أنهم مع كلّ ما أصابهم، صبروا على هذا الابتلاء الإلهي، وعلى هذه المصائب الكبرى، وقالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، فصبروا صبرا عظيما تعجز الجبال الرواسي عن مثله،

(١) البقرة: آيات ١٥٥ – ١٥٧.

وأعطوا للبشرية درسا عظيما في الصبر على البلاء وعلى ما كتب الله تعالى على عباده، فكانوا صابرين محتسبين قد فوّضوا أمورهم إلى ربّهم، فحار العدو والصديق في هذا الصبر وهذه القدرة على التحمّل وهذا الإباء.

الوحدات السيميائية الدالّة على المنيّة

ورد ذكر المنيّة، والمنايا في بعض نصوص النهضة الحسينية، والمنيّة تعني الأجل المقدّر والموت[1]، والمنيّة لفظ مفرد جمعه منايا.

تسوقهم المنايا

بعد وصول الإمام الحسين عليه السلام إلى الخُزَيمية، أقام يوما وليلة فيها، "فلما أصبح، أقبلت إليه أخته زينب عليها السلام، وقالت: «**إني سمعت هاتفا يقول:**

ألا يا عينُ فاحتفلي بجهد — فمن يبكي على الشهداءِ بعدي

على قومٍ تسوقهم المنايا — بمقدار إلى إنجازِ وعد

فقال: يا أختاه كل الذي قُضِي فهو كائن»"[2].

يشير البيتان الشعريان إلى الموت والشهادة، ويشكّلان استباقا زمنيا واستشرافا مستقبليا لما سيحدث للإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، ففي البيتين دعوة إلى العين بأن تحتفل بجهدها وأن تستعدّ لبذل جهد كبير؛ من أجل بكاء الشهداء الذين سيستشهدون في المعركة القابلة بين الإيمان الذي يمثّله الإمام الحسين عليه السلام

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن، ٤٩٦، مادة: منى، وينظر: مختار القاموس، ٥٨٥، مادة: منى.

(٢) مقتل الحسين، ١٨٠.

وأتباعه، والكفر الذي يمثّله يزيد وجلاوزته، ولكن من هم الشهداء الذين ستبكيهم هذه العين، وما صفتهم؟ إنهم مجموعة من الناس المؤمنين الرساليين الذين سيسعون إلى الإصلاح بقيادة سيّدهم الإمام الحسين عليه السلام، والذين ستسوقهم مناياهم إلى موتهم وشهادتهم في سبيل الله تعالى؛ بسبب انقلاب الناس عليهم، وغدرهم بهم، ونكوصهم عن بيعتهم للإمام الحسين عليه السلام ونصرتهم له إن قدم عليهم؛ ليخلّصهم من جبروت الأمويين وظلمهم، وقد ظهر المجاز العقلي في البيت الثاني؛ ليشكّل صورة مؤثرة في المتلقي، فقد أسند السوق إلى المنايا وجسّمها في صورة إنسان يسوق إنسانا آخر إلى حتفه في حين أن المنيّة والمنايا مفهوم معنوي، فالمنايا لا تسوق الإنسان، وإنما يُساق إليها، وهذا المجاز علاقته سببية، فقد أشار عبر الصورة الفنية التي شكّلها إلى معنى دقيق هو أن منايا الإمام الحسين عليه السلام ومن استشهد معه، هي التي ساقتهم وذهبت بهم إلى أرض كربلاء؛ ليستشهدوا على ثراها، ويرووا شجرة الدين والعقيدة بدمائهم الزكية. وبعد هذا الاستشراف المستقبلي المخيف الذي ينبئ بالخطر وبالقدر المكتوب، نجد الإمام الحسين عليه السلام يجيب أخته السيدة زينب جوابا ملؤه اليقين والتسليم بما كتبه الله عز وجل، قائلا: (« **يا أختاه كل الذي قُضِي فهو كائن** »)، مبيّنا لها أن كل ما قضاه الله تعالى وقدّره في علمه فهو كائن وحادث، وفي ذلك إشارة يبعثها الإمام الحسين عليه السلام مفادها أن على الإنسان أن يسلّم ويرضى بما كتبه الله عليه، وكلما كان تسليمه أكبر كان يقينه أكبر.

القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم

في طريق الإمام الحسين عليه السلام إلى العراق، رحل من قصر بني مقاتل. قال عقبة بن سمعان: "سرنا معه ساعة، فخفق وهو على ظهر فرسه خفقة، ثم انتبه وهو يقول:

« **إنا لله وإنا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين** ».

ففعل ذلك مرتين أو ثلاثا، فأقبل إليه ابنه علي بن الحسين عليه السلام على فرس فقال:

مِمّ حمدتَ الله واسترجعت؟

فقال: « **يا بني إني خفقتُ خفقة فعنّ لي فارس على فرس وهو يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم، فعلمت أنها أنفسنا نُعِيت إلينا** »"[١].

يشكّل هذا الحدث وهذا الحوار الذي دار بين الإمام الحسين وابنه علي الأكبر عليهما السلام إرهاصا واستشرافا للمستقبل، واستباقا زمنيا لما سيحدث في قابل الأيام، فالإمام الحسين عليه السلام يسترجع قائلا أكثر من مرة: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، وقد شكّل استرجاعه علامة سيميائية واضحة على الموت وحلول المنيّة؛ لأن هذا القول يقال عند موت أي إنسان، أو عند وقوع مصيبة ما، فأصبح علامة دالّة على الموت إذا ما قاله إنسان أو سمعه آخر، وهو جزء من الآية السادسة والخمسين بعد المائة من سورة البقرة، وحينما سمع علي الأكبر أباه الحسين عليه السلام يقول هذا القول ويكرّره، انتبه، وفَهِم هذا القول، واستكنه معناه الذي يشير إلى وقوع مصيبة أو موت إنسان، مما أدّى به إلى الاستفسار مباشرة من أبيه الحسين عليه السلام عن سبب استرجاعه وحمده، فأجابه قائلا: (« **يا بني إني خفقتُ خفقة فعنّ لي فارس على فرس وهو يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم، فعلمت أنها أنفسنا نُعِيت إلينا** »)، وهنا يجيبه أبوه عليه السلام عن سؤاله مبيّنا أنه سمع فارسا يقول: (« **القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم** »)، فهم في طريق سيرهم إلى العراق، وفي أثناء سيرهم فإن المنايا تسير إليهم وتلاحقهم، وهذه صورة بلاغية جاذبة للمتلقي، فقد تمّ تجسيم المنايا بوساطة المجاز العقلي؛ لتوضيح المعنى واستجلاء الصورة بشكل واضح ومؤثّر، فالمنايا لا تسير، لأنها مفهوم معنوي، في حين

(١) الإرشاد ٢١٥.

أن الإنسان هو الذي يسير إليها، فالسير من صفات الإنسان، وبهذه الصورة البلاغية بيّن الإمام الحسين عليه السلام أن المنايا تلاحقه وأهل بيته وأصحابه في طريق سيره إلى العراق، ثم أضاف قائلا: (« **فعلمت أنها أنفسنا نُعِيت إلينا** »)، موظّفا الفعل الماضي (علمت) الذي يشير إلى تحقّق علمه، ومؤكّدا بوساطة (أنّ) أن نفسه وأنفس من معه من الرجال قد نُعِيت إليهم، وفي هذا القول إشارة إلى قرب حلول موته ومن معه شهداء في سبيل الله، إلا أن هذا الأمر، وهذا الإنذار بالموت لم يشكّل حائلا دون استمراره في سيره إلى العراق؛ من أجل تحقيق ما يصبو إليه، ولم يشكّل حائلا أمام ابنه علي الأكبر الذي كان في ريعان شبابه، بل استمر الركب الحسيني بالمسير إلى أرض الشهادة والإباء، مع علمهم أن المنايا تسير إليهم، فدون الأهداف الرسالية الكبرى تهون الأرواح والأهل والأبناء والأخوة والأصحاب.

يستأنسون بالمنيّة دوني استئناس الطفل إلى محالب أمّه

في ليلة عاشوراء، وبعد أن خطب الإمام الحسين عليه السلام بأهل بيته وأصحابه، دخل على أخته الحوراء زينب عليها السلام في خيمتها، "ووقف نافع بإزاء الخيـمة ينتظره، فسمع زينب تقول له:

« **هل استعلمت من أصحابك نيّاتهم؟ فإني أخشى أن يسلموك عند الوثبة** ».

فقال لها: « **والله لقد بلوتهم فما وجدت فيهم إلا الأشوس الأقعس يستأنسون بالمنيّة دوني استئناس الطفل إلى محالب أمّه** »"[١].

كثيرا ما أثارني هذا الحوار بين الإمام الحسين وأخته السيدة زينب عليهما السلام،

(١) مقتل الحسين ٢٢٦.

وكثيرا ما شدّني وأثار انتباهي ذلك الوصف العجيب من لدن الإمام الحسين عليه السلام لأصحابه المخلِصين (بكسر اللام) والمخلَصين (بفتح اللام)، فالسيدة زينب تسأله عن استعلامه واستكناهه لنيّات أصحابه بوساطة أداة الاستفهام (هل)؛ معلّلة سؤالها هذا بخشيتها بأن يسلموه ويتركوه، أو يغدروا به عند حصول المعركة، وعندما يحمى وطيسها، وقد سألتُ نفسي مرارا عن سبب هذا السؤال من السيدة زينب لأخيها الحسين عليهما السلام، وعن سبب خشيتها من أن يسلموه عند الوثبة، فهل هي لا تعرف حقيقة هؤلاء الرجال الأبطال المخلصين؟

وهل تشكّ في إخلاصهم لقائدهم الإمام الحسين؟

وهل صدر منهم شيء ليجعلها تشكّ في إخلاصهم؟

ثم ألا يشكّل بقاؤهم مع الإمام الحسين عليه السلام، مع شدّة الظروف وصعوبتها، منذ خروجهم من المدينة حتى وصولهم إلى كربلاء، دليلا قاطعا على إخلاصهم؟

و ألا يمثّل بقاؤهم مع الإمام الحسين عليه السلام، مع أنه سَمَح لهم، وأعطاهم إذنا شرعيا بتركه أكثر من مرّة، دليلا آخر على صدقهم؟

إن الذي يبدو لي أن السيدة زينب عليها السلام لم تكن شاكّة في إخلاص أصحاب أخيها الحسين عليه السلام، ولم تكن شاكّة في صدقهم وبقائهم معه في أحلك الظروف وأشدّها، إلا أن حبّها الكبير لأخيها، وحرصها الشديد على سلامته، وخوفها من أن يتكرّر ما فعله بعض الناس الغادرين بأخيها الإمام الحسن عليه السلام حينما كتبوا لمعاوية بن أبي سفيان عن استعدادهم لتسليم الإمام الحسن حيا أو ميتا، وحينما نكصوا وجبنوا عن القتال معه ضدّ عدوّه، وخوفها من موقف بعض الغادرين من أهل الكوفة

الذين غدروا بمسلم بن عقيل، وخوفها من عدم وفاء كبار القوم من أهل الكوفة في وعدهم لأخيها الحسين عليه السلام، كشبث بن ربعي، وحجار بن أبجر، وقيس بن الأشعث، وزيد بن الحارث، وغيرهم الذين كتبوا له: "أن أقدم فقد أينعت الثمار، واخضرّ الجناب، وإنما تقدم على جند لك مجنّدة"(١). إن هذه المواقف مجتمعة واستذكار السيدة زينب لها، واكتواء أهل البيت بجمرها الملتهب جعلتها تستفهم من أخيها الحسين عليه السلام، وتخشى عليه من الغدر الذي حصل في أكثر من موقف مع أهل البيت عليهم السلام.

أراد الإمام الحسين عليه السلام في جوابه لأخته السيدة زينب عليها السلام طمأنتها، وتبديد مخاوفها وخشيتها، إذ قال لها: (والله لقد بلوتهم)، مبتدئا جوابه بالقسم بلفظ الجلالة، واللام الواقعة في جواب القسم، و(قد) التي أفادت تحقيق المعنى وتوكيده؛ ليؤكّد بوساطة هذه المؤكّدات المتتابعة تأكيدا فيه الكثير من الثقة بهم بأنه قد ابتلاهم واختبرهم في أكثر من موقف قبل هذا اليوم، فما كانت نتيجة اختباراته المتتابعة والشديدة لهم؟

يذكر عليه السلام النتيجة قائلا: (« **فما وجدت فيهم إلا الأشوس الأقعس** »)، موظفا النفي بوساطة (ما) النافية، والاستثناء بوساطة (إلا)؛ ليحصر المعنى ويؤكّده، فقد كان بإمكانه أن يقول: فوجدت فيهم الأشوس الأقعس، والجملة صحيحة، والمعنى واضح ولا إشكال فيه، إلا أن هذه الجملة تشير إلى أن في أصحابه من ينطبق عليه هذان الوصفان (الأشوس) و(الأقعس)، وفيهم من لا ينطبق عليه الوصفان المذكوران، إلا أنه حينما عدل عن هذا التعبير، وانزاح إلى التعبير الذي وظّف فيه النفي والاستثناء، وحصر المعنى وقصره عليهم، وأكّده، فإنه أراد الإشارة الدقيقة إلى أن أصحابه جميعا

(١) مقتل الحسين ٢٣٨.

يتمتعون بهاتين الصفتين، ولا يوجد فيهم من لا تنطبق عليه الصفتان المذكورتان، ولا بد لي من سؤالين في هذا المورد هما:

ما معنى الأشوس والأقعس؟

ولماذا وصفهم عليه السلام بهاتين الصفتين؟

الرجل الأشوس هو الشجاع المعتدّ بنفسه(١)، والأقعس هو "الرجل المنيع، والثابت من العز"(٢)، وقد وصف الحسين عليه السلام أصحابه الكرام بهاتين الصفتين؛ ليخبر عن بطولتهم وشجاعتهم النادرة، واعتدادهم بأنفسهم واحترامهم لها، وليبيّن قوّتهم ومنَعَتَهم وعزّهم وثباتهم وعدم زعزعتهم في الظروف كلّها، ولا سيما في أرض المعركة، وعند اشتدادها، فهم أبطال أشدّاء شجعان يحترمون أنفسهم ووعدهم الذي قطعوه لإمامهم، وذوو نفوس عزيزة أبية، ولا يقبلون الدنيّة، ويثبتون عند الوثبة وشدّة الحرب في أرض المعركة ولا يسلمون إمامهم للأعداء، بل يقاتلون دونه، ويفدونه بأرواحهم حتى يستشهدوا في سبيل الله، ودون إمامهم الحسين عليه السلام.

لم يكتفِ الإمام الحسين عليه السلام بما قال في أصحابه، بل أضاف قائلا في وصف شجاعتهم وإخلاصهم: (« **يستأنسون بالمنيّة دوني استئناس الطفل إلى محالب أمّه** »)، و يا له من وصف عجيب يحار العقل عن التفكير أمامه، ويحار القلم في توضيح كنهه ومعناه، إذ يبدأ الإمام الحسين عليه السلام هذه الجملة بالفعل المضارع (يستأنسون) الذي يشير إلى استمرار استئناسهم بالمنيّة وعدم خوفهم منها دون الإمام الحسين عليه

---

(١) ينظر: القاموس الجديد، علي بن هادية وبلحسن البليش والجيلاني بن الحاج يحيى، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط ٩، ١٩٨٨، ٦١.

(٢) مختار القاموس، ٥٠٧، مادة قعس.

السلام، وهنا يلح عليّ سؤالان يقولان:

كيف يمكن لإنسان أن يستأنس بالمنيّة؟

وأي درجة من الإيمان وصل إليها؛ لكي يحسّ بهذا الاستئناس؟

إن أصحاب الإمام الحسين عليه السلام كانوا على درجة عالية من الإيمان واليقين والتقوى ورسوخ العقيدة، وكانوا يتمنّون شهادتهم في سبيل الله وبين يدي الإمام الحسين عليه السلام، فهذه درجة عالية لا ينالها إلا ذو حظ عظيم وإيمان كبير ويقين راسخ، وقد مررنا على بعض أقوالهم ومواقفهم البطولية التي أظهرت استعدادهم للقتل والشهادة دون الحسين عليه السلام، وهناك مواقف أخرى، منها ما حدث ليلة عاشوراء، وبعد أن أخبرهم الإمام بمقتلهم صباح اليوم العاشر من المحرم، فقد "هازل برير عبدَ الرحمن الأنصاري، فقال له عبد الرحمن:

ما هذه ساعة باطل.

فقال برير: لقد علم قومي ما أحببتُ الباطل كهلا ولا شابا، ولكني مستبشر بما نحن لاقون"[١].

وفي موقف آخر، وفي الليلة نفسها "خرج حبيب بن مظاهر يضحك، فقال له يزيد بن الحصين الهمداني:

ما هذه ساعة ضحك!

قال حبيب: وأي موضع أحق بالسرور من هذا؟"[٢]. إن الموقفين المذكورين، فضلا

---

(١) مقتل الحسين، ٢٢٣.

(٢) مقتل الحسين، ٢٢٣ – ٢٢٤.

عن مواقف أخرى مشهودة لهؤلاء الأصحاب المخلصين، يشيران إلى عدم اكتراثهم بالموت دون الإمام الحسين عليه السلام، بل يشيران إلى استبشارهم وسرورهم بموتهم شهداء في النهضة الحسينية، مما يؤكّد استئناسهم بالمنيّة دون الحسين عليه السلام، ومما يلفت النظر في النص أن الحسين عليه السلام قال: (يستأنسون بالمنيّة دوني)، مقدّما لفظة (المنيّة) على لفظة (دوني)، فقد كان من الممكن أن يقول: يستأنسون دوني بالمنيّة، لكنه قدّم المنيّة بانزياح أسلوبي مقصود؛ ليبيّن استئناسهم بقرب منيّتهم دونه، عن طريق قرب كلمة (المنية) من الفعل (يستأنسون)، وفي ذلك دلالة سيميائية واضحة على استئناسهم وسعيهم للموت دونه حتى إن كان الموت قريبا منهم.

في صورة بلاغية مبهرة ومؤثّرة يشبّه الإمام الحسين عليه السلام استئناس أصحابه بالمنيّة والموت دونه باستئناس الطفل بثدي أمه حينما يرضع منها عن طريق التشبيه البليغ بوساطة المصدر (استئناس)، فقد حذف كاف التشبيه من هذه الجملة، إذ تقدير الكلام: يستأنسون بالمنيّة دوني كاستئناس الطفل إلى محالب أمه، لكن رغبة الإمام في بيان درجة الشبه العالية بين طرفي التشبيه أدّى إلى حذف كاف التشبيه وصيرورته تشبيها بليغا يحكي استئناسهم الحقيقي بالموت دونه استئناس الطفل إلى محالب أمه عند رضاعته، وفي هذا التشبيه دلالة سيميائية نفسية إلى الاطمئنان النفسي والراحة الكبيرة التي يحسّ بها أصحابه، وهم يقبلون على أحضان موتهم وشهادتهم، كذلك الاطمئنان النفسي والراحة الكبيرة التي يشعر بها الطفل، وهو في حضن أمه يشرب الحليب من ثديها ويحسّ بحنانها الكبير وعطفها الفائق عليه، وقد أشار المتخصصون بالصحة النفسية والصحة العامة إلى أهمية الرضاعة وأثرها النفسي الإيجابي في الطفل والأم، فهي تمنح الرضيع الراحة النفسية والأمان عن طريق سماعه لنبضات قلب أمه؛ لأنه اعتاد سماعها وهو

في بطنها، كما تعزّز الرضاعة الارتباط العاطفي والنفسي بين الأم والطفل، وهذا يعدّ بحسب أهل الاختصاص من أهم العوامل لاستقرار الطفل والأم نفسيا، فضلا عن إسهام الرضاعة في استقرار الطفل وتخفيف التوتر والقلق عنده، كما أن التأثير المضاد للألم، والمهدئ الذي يتمتّع به حليب الأم يسهم في تطوّر الطفل الاجتماعي والعقلي، فضلا عن راحته النفسية والجسدية وهو في حضن أمه الدافئ الحنون[١]، وهذه المعاني كلّها والمعلومات عن راحة الطفل النفسية واستئناسه بالرضاعة من أمه، فضلا عن معانٍ أخرى، لم تغِب فيما يبدو عن الإمام الحسين؛ لذلك شبّه استئناس أصحابه بالمنيّة دونه باستئناس الطفل إلى محالب أمه، ولم يشبهه بشيء آخر.

(١) ينظر: مقال: الرضاعة الطبيعية فوائد نفسية لا تحصى ولا تعد، موقع صحتي، على الرابط الآتي: www.sohati.com، بتاريخ ٦/ ٩/ ٢٠١٨.

الوحدات السيميائية الدالّة على لقاء الله

توطين النفس على لقاء الله

قبل خروج الحسين عليه السلام من مكة المكرمة إلى العراق، وقف خطيبا، ومما قال في ختام خطبته:

"« **ألا من كان فينا باذلا مهجته، موطّنا على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإني راحلٌ مصبحا إن شاء الله تعالى** »"(١)، وهو هنا يحثّ الناس على أن يرحلوا معه إلى العراق، ولكن أي أناس هؤلاء الذين حثّهم على الخروج معه؟ تأتي الجملة الشرطية؛ ليضع بوساطتها الإمام شروط الراحلين معه، إذ يبتدئها ب (من) الشرطية، وجملة الشرط (« **كان فينا باذلا مهجته، موطنا على لقاء الله نفسه** ») التي أشارت إلى شرط توافر صفتين في الخارج معه إلى العراق:

الأولى: أن يكون مستعدا لأن يبذل مهجته ويضحي بروحه؛ من أجل نصرة الإمام الحسين عليه السلام، وقد ورد في الجملة انزياح أسلوبي عبر التقديم والتأخير، إذ تقدّم الجار والمجرور (فينا) على خبر (كان) (باذلا) والمفعول به لاسم الفاعل (مهجته)، وأصل الكلام هو: من كان باذلا مهجته فينا، وغرض التقديم هو الاختصاص، أي أن من شروط من يصاحبنا إلى العراق أن يكون باذلا مهجته فينا وليس في غيرنا، ومستعدّا

---

(١) مقتل الحسين، ١٦٩.

للموت معنا استعدادا حقيقيا؛ من أجل الدين والمبدأ.

الثانية: أن يكون موطّنا نفسه على لقاء الله شهيدا في سبيله، ومستسهلا هذا الأمر الصعب والشديد؛ نصرةً للإمام الحسين عليه السلام، وقد ورد الانزياح الأسلوبي عبر التقديم والتأخير، فقد تقدم قوله: (على لقاء الله) على المفعول به (نفسه)، وأصل الكلام هو: موطنا نفسه على لقاء الله، وهدف التقديم هو التعظيم، وبيان أهمية الشيء المقدم، فالحسين عليه السلام يذكر هنا دلالة نفسية مهمة، وهي أن على كل من يسعى إلى مصاحبته في خروجه إلى العراق وفي نهضته الإصلاحية أن يكون ذا استعداد نفسي تام إلى لقاء الله تعالى والموت في سبيله، أما من لا يملك هذا الاستعداد والتوطين للنفس والتعويد لها على لقاء الله فلا يمكنه نيل شرف الخروج معه، ومصاحبته في مشواره التغييري والإصلاحي.

بعد أن شرط الحسين عليه السلام هذين الشرطين المهمين على من يخرج معه، جاء بجواب الشرط قائلا: (فليرحل معنا)، موظّفا الفاء الرابطة لجواب الشرط، ولام الأمر، والفعل المضاع (يرحل)، وظرف المكان (مع) الذي يفيد معنى الاجتماع والمصاحبة؛ ليطلب ممّن يتصف بهاتين الصفتين أن يرحل معه ويصاحبه في رحلته المحفوفة بالموت إلى العراق، واستجابةً لشرطي الإمام ولطلبه فقد رحل معه من كان باذلا فيه مهجته ومستعدا للتضحية بروحه دونه، وموطّنا على لقاء الله نفسه والموت شهيدا في سبيله وفي سبيل تحقيق أهداف نهضة الحسين عليه السلام، وتركَهُ الكثير في أثناء الطريق؛ لأنه أعلمهم وأخبرهم بصراحة تامة أنه مقبل على الموت، ولأنهم لم يكونوا مستعدّين لبذل أرواحهم، ولم يكونوا قد وطّنوا أنفسهم على لقاء الله والموت فقد تركوه وانصرفوا عنه بعيدا.

ليرغب المؤمن في لقاء الله

بعد وصول الحسين عليه السلام إلى كربلاء خطب بأهل بيته وأصحابه، مبيّنا لهم تغيّر الدنيا، وتنكّرها، وإدبار معروفها، ثم قال:

"« **ألا ترون إلى الحقّ لا يُعمل به، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله** »"[(١)]، إذ يوجّه الإمام أنظارهم في قوله: (ألا ترون) إلى أن الحقّ أصبح مركونا جانبا، ولا يعمل الكثير من الناس به، وفي قبال هذا الإبعاد المقصود للحقّ، والتهميش المتعمّد لأهله، والمحاولات الكثيرة لإبعادهم عن التصدّي لأمور المسلمين فإن الباطل وأهله أصبحا سيدي الموقف، وأضحت الناس لا تنتهي عن عمل الباطل، ولا ترتدع عن اقترافه، ولا تخاف الله إن عملت به، ونتيجة لهذه الأمور التي ذكرها الإمام في خطبته، فإنه أخبر عن رغبة الإنسان المؤمن في لقاء الله تعالى والموت شهيدا في سبيله، وهي رغبته عليه السلام، ورغبة من كان معه من أهل بيته وأصحابه، إذ كان هدفهم تغيير الباطل الذي يعمل به الكثير من الناس ولا يتورّعون عن اقترافه، إلى الحق الذي يريده الله تعالى، ويسعون إلى تحقيقه، حتى إن كانت النتيجة لقاء الله وإزهاق أرواحهم، فدون تحقيق عدالة الله تعالى ترخص الدماء، وتهون الأرواح والأنفس.

فو الله ما أشفقنا من قدر الله ولا كرهنا لقاء ربنا

بعد إنهاء الإمام الحسين عليه السلام خطبته، قام عدد من أصحابه بين يديه؛ ليبيّنوا مواقفهم البطولية، وإخلاصهم الأسطوري لإمامهم الحسين عليه السلام، فقد تحدث زهير بن القين، وبرير بن خضير، ونافع بن هلال الذي كان من قوله:

(١) مقتل الحسين، ٢٠٠، وينظر: تحف العقول، ١٧٤.

"فسِرْ بنا راشدا معافى، مشرّقا إن شئت أو مغرّبا، فو الله ما أشفقنا من قدر الله، ولا كرهنا لقاء ربنا، وإنا على نياتنا وبصائرنا نوالي من والاك، ونعادي من عاداك"[١]، فهذا الرجل يقف موقفا بطوليا، ويتحدّث بصدق عن نفسه ونيابة عن أصحاب الإمام الحسين؛ ليلتمس منه بوساطة فعل الأمر (سِر) أن يسير بهم راشدا معافى، في أي اتجاه يريد، مشرّقا أو مغرّبا، وإلى أي مكان يشاء، حتى لو كان مكان مقتلهم، ثم يقول: (« **فو الله ما أشفقنا من قدر الله، ولا كرهنا لقاء ربنا** »)، مؤكّدا كلامه وموقفه الشجاع والمبدئي بالقسم بلفظ الجلالة، ونافيا بوساطة (ما) النافية إشفاقهم وخوفهم من قدر الله الذي كتبه عليهم، مهما كان خطيرا، ونافيا بوساطة (لا) النافية كرههم للقاء الله ربّهم، بل على العكس فهم يحبّون لقاء الله والشهادة من أجل الدين والعقيدة، ومن أجل الإصلاح مع الإمام الحسين عليه السلام، ولقاءٌ لله وموتٌ في سبيله هذه بواعثه وأسبابه هو لقاء مرتقب ومرغوب فيه من هذه الثلّة المؤمنة المخلصة التي اشترت الآخرة الدائمة بالدنيا الفانية التي لا قيمة لها عندهم، ولا وزن لها أمام حبّهم لله، وحبّهم للحسين عليه السلام، وأمام نياتهم المخلصة والطيّبة، وبصائرهم النافذة، ويقينهم، فهم في ولاء دائم لإمامهم الحسين عليه السلام، وهذا ما عبّر عنه الفعل المضارع (نوالي)، وفي عداء دائم لأعدائه، وهذا ما عبّر عنه الفعل المضارع (نعادي)، ومن الطبيعي لأناس اختطوا هذا الطريق الرسالي لأنفسهم أن لا يكرهوا لقاء الله والموت في سبيله، بل على العكس نراهم يحبون لقاء الله؛ لأنه يحقّق لهم ما يصبون إليه.

(١) مقتل الحسين، ٢٠٠.

الوحدات السيميائية الدالّة على المصرع

الصّرعُ في اللغة هو الطرح على الأرض، والموت، والمَصْرَعُ هو موضع الصرع، وموضع الموت[١].

وخير لي مصرع أنا لاقيه

في خطبة الإمام الحسين عليه السلام في مكة قبل خروجه منها، نجده يذكر الموت وبعض الكلمات التي تشير إليه، ومنها كلمة المصرع، إذ يقول:

" **« وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه »**"[٢]، فالحسين عليه السلام يبيّن شدّة ولهه إلى أسلافه، والوَلَه في اللغة هو "الحزن، أو ذهاب العقل حزنا، والحيرة، والخوف"[٣]، وهو درجة من درجات الحبّ، "وهو ذهاب العقل من الهوى، يقال: ولّهُهُ الحب إذا حيّره"[٤]، والحسين عليه السلام في هذا المورد يريد بيان حبّه وحزنه واشتياقه الكبير إلى أسلافه الذين سبقوه، والذين رحلوا عن هذه الدنيا، وفي هذا الوله والحزن والاشتياق لهم إشارة إلى استعداده لاستقبال الموت، أو الإقبال عليه؛ لأنه سيكون سببا للرحيل إلى عالم الأسلاف الذين يحبّهم ويشتاق إليهم، ثم بيّن درجة الاشتياق العالية إلى أسلافه بوساطة التشبيه البليغ، فهو يشبّه ولهه واشتياقه إلى أسلافه باشتياق نبي الله يعقوب عليه السلام ووله الكبير على ابنه يوسف عليه السلام بعد أن

---

(١) ينظر: مختار القاموس، ٣٥٤، مادة: صرع.

(٢) نفس المهموم، ١٦٣.

(٣) الكليات ٩٤٧.

(٤) الكليات ٣٩٨.

غيّبه أخوته عنه، وهو بهذا التشبيه يشير إلى الدرجة العالية من الحزن والوله والشوق إلى أسلافه، ثم قال: («**وخير لي مصرع أنا لاقيه**»)، مبيّنا اختيار الله تعالى له مصرعه، أي مكان صرعه على الأرض وقتله شهيدا في سبيله تعالى، إذ أشارت لفظة (خير) إلى الاختيار الإلهي للإمام الحسين عليه السلام؛ ليكون شهيد هذه الأمة، وليكون المحيي لسنّة جدّه النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، بعد أن أراد الأمويون تشويه هذا الدين، وطمس معالمه، وتزوير سنّة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، وأشارت كلمة (مصرع) إلى الموت، ومكان الموت الذي سيستشهد فيه الإمام، ثم أظهر قوله: (أنا لاقيه) أنه سيلاقي الموت في قابل الأيام؛ إحياءً للدين، ودفاعا عن العقيدة، وهو بذلك يخبر عن موته الذي سيتحقق في الأيام القابلة من دون خوف منه، أو رجوع عن أهدافه التي أراد تحقيقها.

إني أعلم علما يقينا أن هناك مصرعي ومصارع أصحابي

مما ورد عن الإمام الحسين عليه السلام، وهو يذكر مصرعه ومصارع أصحابه، قوله لزرارة بن صالح:

"«**إني أعلم علما يقينا أن هناك مصرعي ومصارع أصحابي، ولا ينجو منهم إلا ولدي علي**»"[١]، وفي هذا القول نجد الإمام عليه السلام يؤكّد بوساطة (إنّ) المكسورة الهمزة، و(أنّ) المفتوحة الهمزة علمه اليقيني التام بمصرعه شهيدا، وبمصارع من صاحَبَهُ في نهضته المباركة شهداء صرعى على أرض كربلاء التي أشار إليها اسم الإشارة (هناك)، وفي توكيده علمه اليقيني، مع أن علمه اليقيني لا يحتاج إلى توكيد، إشارة جليّة إلى تحقق مصرعه وموته، وإلى تحقّق مصارع من كان يصاحبه إلى العراق، ثم أكّد موتهم جميعا،

(١) مقتل الحسين، ٢١٣.

وعدم نجاتهم، باستثناء الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام في قوله: (« **ولا ينجو منهم إلا ولدي علي** »)، إذ ينفي بوساطة (لا) النافية، والفعل المضارع (ينجو) نجاة أي واحد من معسكره، باستثناء ابنه الإمام علي السجاد، إذ وظّف (إلا) الاستثنائية؛ ليستثنيه من الموت على أرض كربلاء، أما الإمام الحسين عليه السلام ومن كان معه من أهل بيته وأصحابه من الرجال، فسيسقطون صرعى على أرض كربلاء، وستكون هذه الأرض مكان موتهم شهداء، وستكون مكان دفنهم، وستغدو أرضا يرنو لها الأحرار والثائرون والمتطلّعون إلى التغيير في كلّ زمان.

وحدات سيميائية أخرى دالّة على الموت

الهلاك والاستئصال

كان من الناصحين للإمام الحسين عليه السلام بعدم الخروج من مكة إلى العراق عبد الله بن جعفر الطيار، فقد أخذ "كتابا من عامل يزيد على مكة عمرو بن سعيد بن العاص فيه أمان للحسين، وجاء به إلى الحسين عليه السلام، ومعه يحيى بن سعيد بن العاص، وجهد أن يصرف الحسين عليه السلام عن الوجه الذي أراده، فلم يقبل أبو عبد الله عليه السلام"[١]، وقد كتب عبد الله بن جعفر الطيار كتابا إلى الإمام الحسين عليه السلام راجيا إياه عدم العجلة في السير، بعد أن خرج إلى العراق، جاء فيه:

"أما بعد، فإني أسألك الله لما انصرفت حين تقرأ كتابي هذا، فإني مشفق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك. إن هلكت اليوم أطفئ نور الأرض؛ فإنك علم المهتدين، ورجاء المؤمنين، فلا تعجل بالسير فإني في أثر كتابي والسلام"[٢]، فعبد الله بن جعفر الطيار يطلب من الإمام عليه السلام عدم الاستمرار في مسيره؛ لأنه مشفق وخائف عليه من الموت، وقد وظّف العلامتين اللغويتين (هلاكك) و (هلكت)؛ ليخبر الإمام عليه السلام بموته على أيدي جلاوزة بني أمية إن استمرّ في سيره إلى العراق،

(١) مقتل الحسين، ١٧٠.

(٢) مقتل الحسين، ١٧٠.

ولم يكتفِ بتحذيره من الهلاك، بل حذّره من استئصال أهل بيته؛ لأنه يعلم قسوة أعداء الحسين عليه السلام وحقدهم عليه، إلا أن الإمام أصرّ على سيره نحو العراق؛ ليحقّق أهداف نهضته.

وكان من الناصحين للحسين عليه السلام ابن عباس، إذ قال له:

"يا ابن العم إني أتصبّر وما أصبر، وأتخوّف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال"[(١)]. إن كلام ابن عباس يحيلنا إلى الحالة النفسية لهذا الرجل، فقد كان ساعيا إلى تصبير نفسه إزاء هذا الحدث الخطير؛ لذلك وظّف في كلامه الفعل المضارع (أتصبّر)، وقد أشارت الشدّة إلى شدّة صبره، وفضلا عن تصبير نفسه فقد كان خائفا أشدّ الخوف على الحسين عليه السلام، إذ استعمل في كلامه الفعل المضارع (أتخوّف) وعطفه على الفعل (أتصبّر) اللذين وَرَدا على صيغة الفعل المزيد (تفعّل) إشارة إلى الكثرة والمبالغة في الفعل، ومن ثمّ كثرة صبره وكثرة خوفه على مصير الحسين عليه السلام، وقد أشارت الشدّة في الفعل (أتخوّف) إلى شدّة تخوّفه على الإمام، ولكن ما سبب هذا التصبّر وهذا التخوّف؟ إن السبب هو الخوف على أبي عبد الله عليه السلام من الهلاك والاستئصال، كما ورد في كلامه، لذلك نصحه بالبقاء في مكة، أو الذهاب إلى اليمن؛ ليتخلّص من مكائد الأمويين، ويعدّ العدّة لمواجهتهم، إلا أن الإمام رفض ذلك، قائلا لابن عباس:

"« **يا ابن العم إني والله لأعلم أنك ناصح مشفق، وقد أزمعتُ على المسير** »"[(٢)]، وسار أبو عبد الله إلى أرض الشهادة والتضحية والفداء، مع علمه بهلاكه واستئصاله

---

(١) مقتل الحسين، ١٧٠.

(٢) مقتل الحسين، ١٧١.

وأهل بيته، غير مكترث بالموت والهلاك والاستئصال الذي ينتظره، وينتظر أهل بيته وأصحابه.

لا خير في العيش

بعد أن علم الإمام الحسين عليه السلام بمقتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة، وأصبح الوضع خطيرا جدا، "قال له عبد الله بن سليم والمنذر بن المشمعل الأسديان:

ننشدك الله يا ابن رسول الله إلا انصرفت من مكانك هذا فإنه ليس لك بالكوفة ناصر، فقام آل عقيل وقالوا:

لا نبرح؛ حتى ندرك ثأرنا أو نذوق ما ذاق أخونا، فنظر إليهم الحسين عليه السلام وقال:

« **لا خير في العيش بعد هؤلاء** »"[١].

إن إصرار الحسين عليه السلام على تحقيق أهداف نهضته على الرغم من الظروف التي أحاطت بها، وإصرار آل عقيل على تحقيق هذه الأهداف مع الإمام، وإصرارهم على الانتقام من قتلة مسلم بن عقيل جعلهم يصرّون على البقاء مع الحسين عليه السلام حتى آخر قطرة من دمائهم، إذ أفصحوا عن موقفهم البطولي هذا في قولهم: (لا نبرح؛ حتى ندرك ثأرنا أو نذوق ما ذاق أخونا)، فهم ينفون بوساطة (لا) النافية الانصراف وترك أماكنهم والانسحاب بعدما وصلوا إلى زَرود؛ حتى يدركوا ثأرهم ممّن قتل مسلما أو يذوقوا الموت شهداء كما ذاقه مسلم، وحينما نظر إليهم الإمام كما ورد في الرواية فإنه، فيما يبدو، قرأ العلامات السيميائية الظاهرة على وجوههم، والإشارات التي تبعثها عيونهم،

(١) مقتل الحسين، ١٨٢.

فضلا عن لغة باقي أجزاء الجسد عندهم، فاستكنه إصرارهم على الشهادة معه، وانتقاما لمسلم بن عقيل، لذلك قال: (« **لا خير في العيش بعد هؤلاء** »)، موظّفا (لا) النافية للجنس؛ لينفي نفيا قاطعا وجود الخير في العيش بعد هؤلاء، فيكون معنى المعنى، أو المعنى الثانوي لهذه الجملة: الخير في الموت مع هؤلاء، وهو بكلامه هذا يرجو الموت مع أبناء عمّه، وفي تمنّيه هذا تأكيد على استمراره في طريق الشهادة.

لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها

خطب الإمام الحسين عليه السلام خطبة مفعمة بالموت حينما دخل كربلاء في اليوم الثاني من المحرم، وبعد أن أكمل خطبته بقوله: "« **فإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين برما** »"[١]، قام زهير ابن القين وقال:

"سمعنا يا ابن رسول الله مقالتك، ولو كانت الدنيا لنا باقية، وكنّا فيها مخلّدين، لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها"[٢]، فزهير بن القين يفترض افتراضا عن طريق توظيف (لو) مفاده أن الدنيا إن كانت مستمرة وباقية لا تنتهي، وكانوا فيها من الخالدين الذين لا يدركهم الموت ولا يصل إليهم، فإنهم سيفضّلون ويؤثرون، والحال هذه، النهوض والقتال والشهادة مع الإمام على الإقامة السرمدية في هذه الدنيا، وقد ورد الانزياح الأسلوبي عبر التقديم والتأخير في موضعين في قوله: (ولو كانت الدنيا لنا باقية، وكنا فيها مخلدين)، إذ تقدّم الجار والمجرور (لنا) على خبر (كان)؛ لغرض الاختصاص، فهو يخصّ من كان مع الحسين عليه السلام بهذا الافتراض، وكذلك تقدّم الجار والمجرور

---

(١) مقتل الحسين، ٢٠٠.

(٢) مقتل الحسين، ٢٠٠.

(فيها) على خبر (كان) للاختصاص أيضا. إن كلام زهير بن القين مع كونه يمثّل أمرا افتراضيا وليس حقيقيا؛ لأن الدنيا لا تبقى لأحد، ولا يبقى أحد فيها ولا يخلد، إلا أنه يشير إلى إخلاصه الكبير ومن معه للإمام الحسين عليه السلام، وإلى تفضيله الموت في قوله: (لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها)، وبهذا التفضيل للموت شهداء مع الإمام على الحياة السرمدية فإنهم يكشفون عن نفوس تعشق الشهادة مع سيد الشهداء عليه السلام، ولا ترى للحياة الدنيا قيمة في قبال هذه الشهادة، حتى إن كانت هذه الحياة سرمدية وخالية من الموت.

تُقَطّع فيك أعضاؤنا

انبرى بعد زهير بن القين برير بن خضير؛ ليقول للإمام الحسين عليه السلام:

"يا ابن رسول الله لقد منّ الله بك علينا أن نقاتل بين يديك، تُقَطّع فيك أعضاؤنا، ثم يكون جدّك شفيعنا يوم القيامة"[١]، فهذا الفارس البطل يشير في كلمته القصيرة ذات المعاني الكبيرة إلى أمر في غاية الأهمية في قوله: (يا ابن رسول الله لقد منّ الله بك علينا)، وهو أن الإمام الحسين عليه السلام نعمة كبيرة من الله جلّ شأنه أنعم ومنّ بها عليهم، وهم يستشعرون عظمة هذه النعمة الإلهية، وروعتها التي خصّهم الله تعالى بها دون غيرهم، إذ أكّد كلامه بقوله: (لقد) المكوّن من اللام الواقعة في جواب القسم المحذوف، و(قد) التي أفادت التحقيق والتوكيد، ثم أكمل كلامه قائلا: (أن نقاتل بين يديك، تُقطّع فيك أعضاؤنا)، فمن تجلّيات هذه النعمة عليهم أنهم يقاتلون بين يديه، فقد وظّف الفعل المضارع (نقاتل) الذي يفيد الاستمرار؛ ليشير إلى استعدادهم

---

(١) مقتل الحسين، ٢٠٠.

المستمر والدائم للقتال بين يدي الإمام، ومن نتائج هذا القتال المستمر أن تُقطّع أعضاء أجسامهم تقطيعا، ويموتوا شهداء في سبيل الله ودفاعا عن إمامهم الحسين عليه السلام، وقد قدّم في كلامه الجار والمجرور (فيك) على نائب الفاعل (أعضاؤنا)؛ ليشير إلى معنى الاختصاص، فهم مستعدون لأن تقطّع أعضاؤهم في حبيبهم الحسين عليه السلام ومن أجله وليس من أجل غيره، وبهذه الشهادة سيحصلون على منزلة عظيمة جدا ودرجة عالية، وهي أن يكون جدّ الحسين صلى الله عليه وآله شفيعا يشفع لهم يوم القيامة.

ألحقك باللطيف الخبير

بعد أن نزل أبو عبد الله عليه السلام في كربلاء، "بعث الحر إلى ابن زياد يخبره بنزول الحسين عليه السلام في كربلاء، فكتب ابن زياد إلى الحسين عليه السلام:

أما بعد يا حسين، فقد بلغني نزولك كربلاء، وقد كتب إلي أمير المؤمنين يزيد أن لا أتوسّد الوثير، ولا أشبع من الخمر، أو ألحقك باللطيف الخبير، أو تنزل على حكمي وحكم يزيد، والسلام"[1].

إن قراءة كتاب ابن زياد قراءة سيميائية ستفضي إلى عدة إشارات منها:

١. قلّة أدب هذا الرجل، وعدم مراعاته لقدر الإمام الحسين عليه السلام، فقد ناداه قائلا: (يا حسين)، من دون مراعاة لمنزلته العظيمة عند الله، وعند الناس.

٢. فسق ابن زياد، وسفاهته، وتفاهته، وهو يخاطب الإمام عليه السلام قائلا: (أن لا أتوسّد الوثير، ولا أشبع من الخمر)، فهو لا يتورع، ولا يستحي من ذكر الأمور المحرّمة شرعا أمام الإمام، وأمام الناس.

(١) مقتل الحسين، ٢٠٢.

٣. حقد ابن زياد على أبي عبد الله عليه السلام، هذا الحقد الذي يكشف عن عقدتين نفسيّتين تتحكّمان في سلوكه هما: عقدة النقص، وعقدة الساديّة، لذلك يتوعد الإمام عليه السلام قائلا: (أو ألحقك باللطيف الخبير)، ومهددا إياه بالقتل، فقد أشار هذا القول إلى سعيه المحموم لقتل الإمام عليه السلام بكل طريقة متاحة له، ثم يخيّره بوساطة حرف العطف (أو) الذي يفيد التخيير في قوله: (أو تنزل على حكمي وحكم يزيد) خيارا آخر غير القتل، هو أن يبايع يزيد بن معاوية، وينزل على حكمه وحكم ابن زياد، وقد وظّف الفعل المضارع (تنزل)؛ ليشير إلى محاولاته المستمرة في إنزال الإمام الحسين عليه السلام من منزلته العالية التي يتمتّع بها، وإلى توهين شأنه، والنيل من مقامه العالي، وشخصه الشريف، وهو يكشف هنا عن عقدة النقص في قبال هذه الشخصية العظيمة والكبيرة الشأن، ولكن أنى لأبيّ الضيم أن يتنازل لهذا الرجل، لذلك لم يجبه على كتابه حينما قرأه، بل "رماه من يده، وقال:

« **لا أفلح قوم اشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق.**

وطالبه الرسول بالجواب، فقال:

ما له عندي جواب؛ لأنه حقّت عليه كلمة العذاب »"[(١)]، فالحسين عليه السلام شخّص الأمراض النفسية التي يعاني منها ابن زياد، فلم يجبه على كتابه، معلنا رفضه للخيار الثاني المتمثّل بالنزول على حكمه وحكم يزيد، واختيار الخيار الأول الذي تمظهر في قول ابن زياد: (ألحقك باللطيف الخبير)، مفضّلا اللحاق بالله تعالى والموت شهيدا على النزول على حكم الظالمين.

(١) مقتل الحسين، ٢٠٢.

ليلة العاشر من المحرم

خطب الحسين عليه السلام بأهل بيته وأصحابه ليلة العاشر من المحرم، وأذن لهم بالانصراف وتركِهِ وحيدا؛ لأن الأعداء يطلبونه ولا يطلبون سواه، "فقال له إخوته، وأبناؤه، وبنو أخيه، وأبناء عبد الله بن جعفر:

لِمَ نفعل ذلك؟

لنبقى بعـدك؟!

لا أرانا الله ذلك أبدا. بدأهم بهذا القول العباس بن علي، وتابعه الهاشميون"[1]. إنهم يعبّرون عن موقفهم الأبي والشجاع بسؤالين:

الأول: لِمَ نفعل ذلك؟ إذ يسألون الإمام عن سبب تركهم له ليلة العاشر من المحرم.

الثاني: لنبقى بعـدك؟!، ولسان حالهم يقول: وما قيمة البقاء على قيد الحياة بعدك يا أبا عبد الله؟ وهل ثمّة طعم لحياتنا بعد موتك يا حسين، فالموت معك أفضل من حياة تخلو من وجودك البهي والمبارك، ثم يدعون الله في قولهم: (لا أرانا الله ذلك أبدا)، إذ يطلبون من ربّهم سبحانه ألا يريهم الحياة بعد موت الإمام الحسين عليه السلام وشهادته، ويتمنّون، صادقين، الموت مع أبي الشهداء، فالحياة بعده لا تساوي شيئا، ولا تستحقّ أن يعيشوا فيها، وهم بكلامهم هذا يشيرون إلى تفضيلهم الموت مع الحسين عليه السلام على الحياة بدونه.

---

(١) مقتل الحسين، ٢٢٠.

نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا

بعد أن سمع الإمام الحسين عليه السلام كلام الهاشميين، التفت إلى بني عقيل، وقال لهم: " « **حسبكم من القتل بمسلم، اذهبوا قد أذنت لكم** ».

فقالوا: إذاً ما يقول الناس وما نقول؟ إنا تركنا شيخنا وسيدنا، وبني عمومتنا خير الأعمام، ولم نرمِ معهم بسهم، ولم نطعن برمح، ولم نضرب بسيف، ولا ندري ما صنعوا. لا والله لا نفعل ذلك، ولكن نفديك

بأنفسنا

وأموالنا

وأهلينا

، نقاتل معك؛ حتى نرد موردك، فقبّح الله العيش بعدك"[١]. إن بني عقيل يفصحون عن موقف بطولي وشهم، إذ ينفون، ويقسمون بلفظ الجلالة في قولهم: (لا والله لا نفعل ذلك) أنهم لا يتركون الإمام الحسين عليه السلام أبدا، حتى إن طلب منهم هذا الطلب، وحتى إن أبرأ ذممهم من تكليفهم الشرعي تجاهه، ثم يُبدون استعدادهم الحقيقي والمستمر لفداء الإمام بوساطة الفعل المضارع (نفديك)، ولكن بأي شيء يفدونه؟ إنهم يفدونه أولا بأنفسهم، وقد قدّموا لفظة (أنفسنا)، وفي ذلك دلالة واضحة على استعدادهم لفداء إمامهم بأعز ما يملك الإنسان، وهي النفس، فنفوسهم وأرواحهم تهون وترخص أمام أبي الشهداء، وهذا الفداء والجود بالنفس يمثّل أعلى درجات الجود التي ظهرت عند بني عقيل، ويفدونه ثانيا بأموالهم وما يملكون، ويفدونه ثالثا بأهليهم وأحبابهم،

(١) مقتل الحسين، ٢٢٠ – ٢٢١.

فهم لم يكتفوا بأن يفدوه بأنفسهم فقط، بل سعوا إلى فدائه بكل شيء يملكونه ويحبّونه، كل ذلك في سبيل الله، ومحبةً ووفاءً له، ثم قالوا: (نقاتل معك؛ حتى نرد موردك، فقبّح الله العيش بعدك)، فهم على أهبة الاستعداد للقتال المستمر معه؛ حتى يحقّقوا غايتهم التي يرغبون، والتي أظهرتها (حتى) الغائية، وهي أن يردوا مورده، ويموتوا معه شهداء على أرض كربلاء، ثم أكّدوا غايتهم هذه في دعائهم المتمظهر في آخر الكلام، وهو أن يقبّح الله العيش بعد الحسين عليه السلام، فأي جمال لحياة دون الحسين عليه السلام، وأي بهاء للعيش دونه، فالحياة غير جميلة، بل قبيحة بعده عليه السلام، وهم بكلامهم هذا يشيرون إلى حبّهم للموت مع الإمام الحسين عليه السلام، وإلى كرههم للعيش بعده عليه السلام.

حتى ألقى حمامي دونك

وتكلّم سعيد بن عبد الله الحنفي قائلا:

"والله لا نخليك؛ حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسوله فيك، أما والله لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق حيا ثم أذرّى، يفعل بي ذلك سبعين مـرة، لما فارقتك؛ حتى ألقـى حمامي دونك، وكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لهـا أبـدا"[١]، وقد استشهدت بهذا النص في الفصل الثاني عند الحديث عن الوحدات السيميائية الدالة على القتل، وأستشهد به في هذا الفصل؛ لورود كلمة (حمامي) فيه، التي تدلّ على الموت، فالحِمام في اللغة هو "قضاء الموت وقدره"[٢]، فسعيد بن عبد الله الحنفي

---

(١) مقتل الحسين، ٢٢١.

(٢) مختار القاموس، ١٥٦، مادة: حمم.

يرجو أن لا يفارق الإمام الحسين عليه السلام، مع شدّة ما يفترضه من حوادث شديدة تقع عليه، حتى تتحقّق غايته التي سعى إليها، وهي أن يلقى حمامه، ويموت شهيدا دون سيّده الحسين عليه السلام، ففي هذا الموت، كما يقول: كرامة عظيمة لا انقضاء لها أبدا، وفعلا تحقّق له ما يريد، فلقي حمامه شهيدا في سبيل الله، وتحقّق له ما كان يتمناه.

لوددت أنهم مالوا علينا الساعة

في ليلة العاشر من المحرم هازَلَ بريرُ بن خضير عبدَ الرحمن الأنصاري، "فقال له عبد الرحمن:

ما هذه ساعة باطل.

فقال برير: لقد علم قومي ما أحببت الباطل كهلا ولا شابا، ولكني مستبشر بما نحن لاقون، والله ما بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم، ولوددت أنهم مالوا علينا الساعة"(١)، فبرير بن خضير مستبشر في ليلة العاشر من المحرم، بعد أن أخبرهم الإمام الحسين عليه السلام بأنهم سيقتلون جميعا، باستثناء الإمام السجاد، في صبيحة عاشوراء، إذ استبشر بموته القريب، ثم أقسم بلفظ الجلالة أنهم ليس بينهم وبين الموت شهداء، ومن ثم لقاء الحور العين في جنات النعيم إلا أن يميل عليهم الأعداء بسيوفهم، ويقتلوهم، ثم أردف قائلا: (ولوددت أنهم مالوا علينا الساعة)، مفصحا عن رغبته التي يودّها، وهي أن يميل عليهم الأعداء، ويقتلوهم الآن، وليس غدا. إن استبشار برير وفرحَهُ في وقت قريب من ساعة موته، وتمنّيه الموت الذي أشارت إليه كلماته، ورغبته في أن يموت في ساعة الكلام، وليس في اليوم التالي يشير إلى حبّه وتمنّيه

(١) مقتل الحسين ٢٢٣.

الموت مع الإمام الحسين عليه السلام. لكي يحقق ما يصبو إليه، ومما يصبو إليه هو جنات النعيم في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ما هو إلا أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم

بعد الموقف السابق، "خرج حبيب بن مظاهر يضحك، فقال له يزيد بن الحصين الهمداني:

ما هذه ساعة ضحك.

قال حبيب: وأي موضع أحقّ بالسرور من هذا؟ ما هو إلا أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم، فنعانق الحور"[١]. إن الابتسامة والضحك من علامات السرور عند الإنسان، وهذا حبيب بن مظاهر الأسدي الرجل الشيبة الوقور يعلن عن فرحه بما سيُقبل عليه في الساعات القادمة بتلك الابتسامة التي ظهرت على وجهه، فهو سيُقبل على الشهادة مع سيد شباب أهل الجنة، وحينما اعتُرِضَ على حالِهِ هذه أجاب بجواب ينبئ بإيمانه ويقينه قائلا: (وأي موضع أحقّ بالسرور من هذا؟)، ومستفهما عن وجود حال أحقّ بالسرور والفرح من هذه الحال التي هو عليها، ثم قال مبيّنا سبب فرحه: (ما هو إلا أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم، فنعانق الحور)، فما هو إلا وقت قليل يُحسَب بالساعات، وليس بالأيام حتي يهجم عليهم الأعداء بسيوفهم ورماحهم ونبالهم حتى يقتلوهم، فيكونوا شهداء في سبيل الله، ومن أجل إحياء الدين مع سبط النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، وقد قال: (فنعانق الحور)، وفي كلامه هذا إشارة سيميائية واضحة إلى دخولهم الجنّة، بعد قتالهم بين يدي الإمام الحسين عليه السلام، وتضحيتهم بأرواحهم.

---

(١) مقتل الحسين، ٢٢٣ – ٢٢٤.

السلّة والذلّة

في خطبة الإمام الحسين عليه السلام الثانية يوم عاشوراء قال:

"« **ألا وإن الدعيّ ابن الدعيّ قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة، وهيهات منا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك، ورسوله، والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام** »"(١). إن الإمام الحسين عليه السلام يشير إلى أن عدوّه قد أصرّ على موقفين لا ثالث لهما، أولهما السلّة، وهي كلمة تشير إلى القتل والموت، وثانيهما الذلّة، والإمام الحسين عليه السلام سيد الإباء يقول إزاء هذين الموقفين: (« **وهيهات منا الذلّة** »)، أي تباعدت منا الذلّة، فهو أبعد ما يكون عن الذلّة، وأقرب ما يكون من السلّة، ثم يسبب بُعدَه عن الذلّة وعدم قبوله بها أبدا قائلا: (« **يأبى الله لنا ذلك، ورسوله، والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام** »)، فربّ العزّة يأبى ولا يرضى لهم الذلّة، وكذلك رسوله، وأهل البيت، والمؤمنون، وحجور طيبة طاهرة، وأنوف حمية، ونفوس عزيزة أبية تأبى الذل والهوان، من أن يؤثروا ويفضّلوا طاعة الكافرين المنافقين اللئام كيزيد، وابن زياد، وعمر بن سعد على مصارع المؤمنين الكرام المتمثّلة بالشهادة في سبيل الحق الذي أراده الإمام الحسين عليه السلام. لذلك نراه يُقدم على الشهادة ببطولة وإباء وتوطين للنفس على الموت، فيموت عزيزا قد اختار طريق السلّة الذي خلّده على طول الزمان، وترك طريق الذلّة الذي ذلّ أعداءه وقاتليه على مرّ السنين وتعاقب الدهور.

---

(١) مقتل الحسين ٢٤٤.

فارقت أرواحُنا أجسادَنا

في ساحة المعركة قال عمرو بن الحجاج لأصحابه، وهو من جيش العدو:

"قاتلوا من مرَق عن الدين، وفارق الجماعة.

فصاح الحسين: « **ويحك يا عمرو. أعَلَيّ تحرّض الناس؟**

أنحن مرقنا من الدين، وأنت تقيم عليه؟

ستعلمون إذا فارقت أرواحُنا أجسادَنا من أولى بصلي النار »"[(١)].

يسأل الإمام الحسين عليه السلام هذا الرجل الذي يحرض عليه سؤالين، الأول فيه نوع من العتاب عليه، والإنكار، والتوبيخ، والتعجب من فعله الدنيء هذا، فقد حملت همزة الاستفهام في قوله: (« **أعَلَيّ تحرّض الناس؟** ») هذه المعاني، وقدّم الجار والمجرور (عَلَيّ) على جملة (تحرض الناس)؛ للاختصاص، إذ تقدير الكلام: أتحرض الناس عَلَيّ. أما السؤال الثاني الذي قال فيه: (« **أنحن مرقنا من الدين، وأنت تقيم عليه؟** ») فقد أراد به تكذيب العدو، وتوبيخه، وإنكار ادّعائه بأنهم مقيمون وثابتون على الدين، والإمام الحسين عليه السلام مرق وخرج عنه، وقد حملت همزة الاستفهام هذه المعاني، ثم قال له: (« **ستعلمون إذا فارقت أرواحُنا أجسادَنا من أولى بصلي النار** »)، وهو هنا يشير إلى موته وموت من معه في قوله: (« **إذا فارقت أرواحُنا أجسادَنا** »)، فقد حمل هذا التركيب معنى مفارقة الأرواح للأجساد في المعركة الذي يفضي إلى الموت، فالإمام عليه السلام يحيط هذا العدو الكذّاب علما بأنهم سيعلمون بعد أن يقتلوا الحسين عليه السلام وأتباعه مَن سيكون الأولى بصلي النار والاحتراق في جهنم التي لا تبقي ولا تذر، وهو هنا يشير إلى عاقبتهم السيّئة إن أقدموا على جريمة قتله.

---

(١) مقتل الحسين، ٢٥٠.

فمنهم من قضى نحبه

في يوم عاشوراء، وفي أثناء المعركة، "كان كل من أراد الخروج، ودّع الحسين عليه السلام بقوله:

السلام عليك يا ابن رسول الله.

فيجيبه الحسين: «**وعليك السلام، ونحن خلفك**»، ثم يقرأ: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾"(١). إن الحسين عليه السلام يردّ السلام على من يخرج للقتال بين يديه، وضدّ أعدائه المارقين، ثم يقول له: (ونحن خلفك)، مبيّنا له أنه سينزل لساحة القتال، ويقاتل بعده، كما نزل هو الآن. إن هذا القول وهذا الموقف يبعث إشارة واضحة مفادها أن القائد الإلهي والرسالي يكون مع جنوده في أرض المعركة، ويجاهد، ويقاتل الأعداء مثلهم، لا أن يبقى متفرّجا من بعيد، كما هو حال القادة الدنيويين الذين لا ينزلون إلى أرض المعركة مع جنودهم. إن فعل الإمام هذا يعطي لجنوده قوة معنوية، وحافزا ودافعية تجعلهم ينزلون إلى أرض المعركة بقوة وإباء، ومعنويات عالية، وعدم خوف من الأعداء، مع كثرة عددهم وقسوتهم المفرطة.

وبعد أن يعطي جنوده هذه القوة والدافعية، يتلو جزءا من الآية الثالثة والعشرين من سورة الأحزاب المباركة التي يقول فيها ربّ العزّة: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾(٢). إن تلاوة هذه الآية من آيات القرآن الكريم دون غيرها، وإحالة الإمام إليها، وفي هذه المواقف

---

(١) مقتل الحسين، ٢٥٧.

(٢) الأحزاب: آية ٢٣.

الشديدة يبعث عدة إشارات سيميائية لمن كان يستأذن الإمام الحسين عليه السلام، ولكلّ قارئ ومطّلع على هذا الحدث، يمكن إدراجها في نقاط:

١. تبدأ الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ومع أن الإمام لم يقرأ الجزء الأول منها، إلا أنه أحال المتلقي إليها حينما قرأ الجزء الثاني منها. إن في قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة واضحة ورمزية عالية إلى أن من ثبت مع الإمام الحسين عليه السلام، وقاتل، واستشهد هو من المؤمنين الصالحين الثابتين على العقيدة والمبدأ مع سيد الشهداء عليه السلام.

٢. ورد في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾، وفي هذا الجزء من الآية إشارة إلى أن هؤلاء المقاتلين الذين قاتلوا في صف الإمام الحسين عليه السلام رجال شجعان وأشداء تميّزوا بأنهم صادقون قد ثبتوا على صدقهم في ما عاهدوا الله عليه، وما عاهدوا إمام زمانهم الحسين عليه السلام عليه، ولم ينكصوا ولم يتخاذلوا في ساعة الشدّة، بل ثبتوا، وقاتلوا، واستشهدوا بين يدي إمامهم، فكانوا رجالا صادقين بمعنى الكلمة.

٣. في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ إشارة واضحة إلى موت قسم منهم في ذلك الوقت، وإلى انتظار القسم الآخر لشهادته بلهفة وشوق، والنَحْبُ في اللغة هو "النذر المحكوم بوجوبه، يقال: قضى فلان نحبه: أي وفى بنذره. قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾[١]، ويُعَبَّرُ ذلك عمّن مات، كقولهم: قضى أجله"[٢]، فالنحب بحسب كلام الراغب الأصفهاني يحمل معنيين:

(١) الأحزاب: آية ٢٣.

(٢) المفردات في غريب القرآن، ٥٠٧، مادة: نحب.

الأول: هو النذر المحكوم بوجوبه، وفي هذا الكلام إشارة إلى أن من قاتل واستشهد مع الإمام الحسين عليه السلام كان قد نذر نفسه وروحه على نحو الوجوب في سبيل الله، وفي طريق الإصلاح الحسيني، وحينما استشهد فقد وفى بنذره الذي أوجبه على نفسه.

الثاني: هو الموت، كما ذكرنا، والنتيجة تكون أن هؤلاء الأبطال الأشاوس الأقاعس قد نذروا أنفسهم للموت والشهادة مع سيد الشهداء، ووفوا بنذورهم.

٤. ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾، وفي هذه الخاتمة إشارة جليّة إلى خاتمة هؤلاء الأبطال الذين نذروا أنفسهم للموت مع أبي الشهداء عليه السلام، فقد ثبتوا على ما عاهدوا الله عليه، وعلى مواقفهم النبيلة والشجاعة وما بدّلوا تبديلا، ولم يخافوا، ولم يجبنوا ويتخاذلوا، فحقّقوا ما كانوا يرغبون به، وهو الشهادة مع أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

أفلا نروح إلى الآخرة

نزل حنظلة بن أسعد الشبامي إلى أرض المعركة، "فقام بين يدي الحسين عليه السلام يقيه السهام والرماح والسيوف بوجهه ونحره، وأخذ ينادي: (...) يا قوم لا تقتلوا الحسين؛ فيسحتكم الله بعذاب، وقد خاب من افترى.

فقال له الحسين عليه السلام: «**يا ابن أسعد رحمك الله، إنهم قد استوجبوا العذاب حين ردّوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق، ونهضوا إليك؛ ليستبيحوك وأصحابك، فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين**».

قال: صدقت جعلت فداك، أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بإخواننا؟

فقال: «**بلى رُحْ إلى ما هو خير لك من الدنيا وما فيها، وإلى ملك لا يبلى**»"[١].

يحكي هذا النص ذلك الإخلاص الكبير الذي تمتّع به أصحاب الإمام الحسين عليه السلام، وتلك المفاداة التي سعوا عن طريقها إلى فداء أبي الشهداء بأرواحهم وبكلّ ما يملكون، فهذا حنظلة الشبامي يقي الإمام بجسمه من رميات النبال والسهام، وطعنات السيوف، ثم ينصح الأعداء، وبعد هذه المواقف البطولية والنبيلة يخاطبه الإمام الحسين عليه السلام، ليخبره بأن هؤلاء الأعداء لا يستحقّون النصح، فقد بالغ هو عليه السلام في نصحهم، لكن دون فائدة؛ لأنهم قد ران على قلوبهم، ووصلوا إلى مرحلة اللاعودة واللاهداية، واستوجبوا العذاب الإلهي، فما كان من حنظلة الشبامي إلا أن يطلب من الإمام الذهاب إلى الآخرة في قوله: (أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بإخواننا؟)، فقد وظّف الاستفهام بالهمزة، والنفي ب(لا) النافية؛ ليطلب من الإمام الحسين عليه السلام الرواح إلى الآخرة، واللحاق بإخوانهم الذين سبقوهم، ويقرّر هذه الحقيقة بهدوء وراحة نفس عجيبة، وقد أشار كلامه هذا إلى طلبه الإذن بالقتال، والموت شهيدا بين يدي أبي الشهداء، فأجابه أبو عبد الله قائلا: («**بلى رُحْ إلى ما هو خير لك من الدنيا وما فيها، وإلى ملك لا يبلى**»)، موافقا على طلبه بالذهاب إلى الآخرة، واللحاق بالشهداء الذين سبقوه، والموت في سبيل الله؛ لأن هذا الذهاب، وهذه الشهادة خير من الدنيا وما فيها، فضلا عن أنها تعطي الشهيد ملكا لا يبلى ولا ينتهي ولا يزول، فأقبل الرجل على موته بنفس أبيّة، وعزيمة صلبة، فحقق الشهادة التي طلبها من سيد الشهداء عليه السلام.

---

(١) نفس المهموم، ٢٧٩ – ٢٨٠.

ما أسرع الملتقى بجدّك

بعد أن استشهد أصحاب الحسين عليه السلام، نزل علي الأكبر إلى أرض المعركة، وقاتل قتال الأبطال الأشدّاء، وقتل عددا كبيرا من الأعداء، ولما اشتدّ به العطش، "رجع إلى أبيه يستريح، ويذكر ما أجهده من العطش، فبكى الحسين عليه السلام، وقال:

« **وا غوثاه، ما أسرع الملتقى بجدّك، فيسقيك بكأسه شربةً لا تظمأ بعدها** »"[١]. إن الإمام عليه السلام يستغيث بربه في هذا الموقف الشديد والصعب على قلبه، وهو يرى فلذة كبده وشبيه رسول الله صلى الله عليه وآله، ونور حياته على وشك الانطفاء بيد عتاة بني أمية، ثم يبشّره في قوله: (« **ما أسرع الملتقى بجدّك، فيسقيك بكأسه شربةً لا تظمأ بعدها** ») بلقاء جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله في وقت سريع وقريب؛ ليسقيه بكأسه شربة ماء لا يظمأ بعدها أبدا، وهو بتبشيره لابنه بلقاء جدّه الأعظم يخبره بموته شهيدا في سبيل الله تعالى، فقد حمل قوله إشارة واضحة إلى موته، وقد استقبل هذا الشاب العلوي الحسيني هذه البشرى التي تنبئ بموته بفرح غامر أعطاه قـوةً كبيـرة على استمراره في قـتال الأعداء، حتى سقط شهيدا مضرّجا بدمه، "ونادى رافعا صوته:

عليك مني السلام أبا عبد الله، هذا جدّي قد سقاني بكأسه شربةً لا أظمأ بعدها، وهـو يـقـول: إن لك كأسا مذخورة"[٢]، فبعد أن بشرّه أبوه الحسين عليه السلام بلقاء جدّه صلى الله عليه وآله، وبكأس الماء الذي سيسقيه إيّاه بعد شهادته، فإذا به الآن هو يبشّر أباه الحسين عليه السلام قائلا له: (إن لك كأسا مذخورة)، مبشّرا إياه بالبشرى نفسها، ومخبرا بمصرعه شهيدا في سبيل الله، ومن أجل الإصلاح.

---

(١) مقتل الحسين، ٢٧٠.

(٢) مقتل الحسين ٢٧٢.

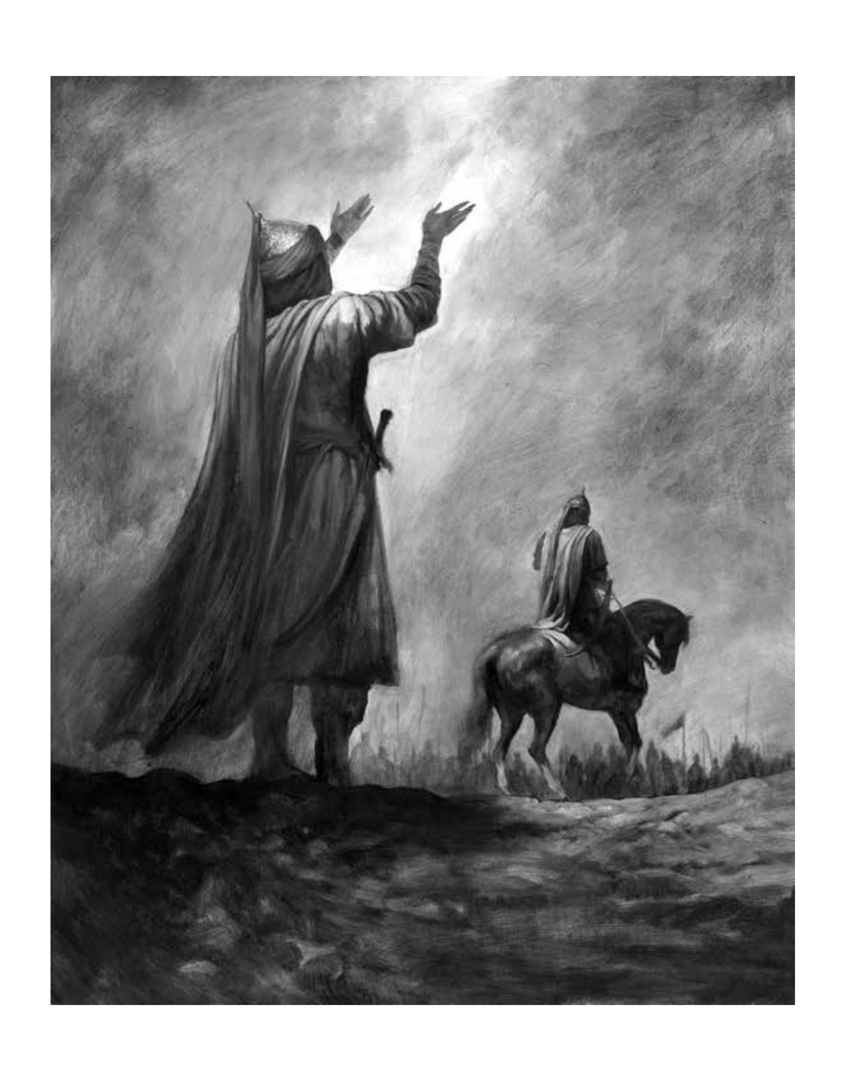
يظهر لنا مما تقدّم أن نصوص النهضة الحسينية كانت مشحونة بألفاظ كثيرة أشارت إلى الدم، والقتل، والموت، والشهادة في سبيل الله تعالى، ومن أسباب هذه الكثرة في هذه العلامات اللغوية التي أشارت إلى الدم والموت أنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام كانت منذ بدايتها محفوفة بالمخاطر، والدم، والموت، والشهادة التي انتهى إليها الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، وأن طريق الجهاد والشهادة المضرّج بالدم والمحفوف بالموت والتضحية من غير ترجمان يحكي عنه هو الشاهد على عمق التضحية التي بُذلت وعظمة الأرواح التي استُشهدت في سبيل الله، فكان الإمام الحسين عليه السلام سيد المضحّين والشهداء، وكان أهل بيته وأصحابه مثالا للشهداء الصالحين الثابتين على مبادئهم في أحلك الظروف وأشدّ المواقف، ومن ثمّ فقد أضحت النهضة الحسينية الخالدة مدرسة للشهادة والفداء والتضحية بأنفس ما يملك الإنسان تتعلّم منها الأجيال جيلا بعد جيل، وتنهل من نميرها الفيّاض العذب مبادئ الثورة وعدم السكوت على الظلم والظالمين، وعدم الخنوع والاستسلام لهم، مهما كانت النتائج، ومهما بلغت التضحيات، فكلّ دمٍ يهون أمام دم الإمام الحسين عليه السلام، وكلّ شهادةٍ وتضحيةٍ في سبيل الله والدين والعقيدة والكرامة تهون أمام شهادته المدوّية في أثير الزمن وعمق التاريخ والحاضر، وقد فتحت هذه النهضة المباركة، المتفجّرة بالدم، والمحاطة بالموت من كلّ جانب، والمتوّجة بالشهادة الباب على مصراعيه للجهاد ضدّ الظالمين المنحرفين عن الدين والعقيدة والسفّاكين لدماء الأبرياء من دون ذنب اقترفوه إلا أنهم قالوا لهم كما قال الإمام الحسين عليه السلام لأعدائه:

« ومثلي لا يبايع مثله

وإنّي لا أعطي الدنيّة من نفسي أبدا

ألا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة».

فلا عجب ولا غرابة أن كثرت الثورات والحركات ضدّ الظلم والظالمين بعد نهضة الإمام الحسين عليه السلام؛ لأنه كسر حاجز الخوف عند الناس، وعبّدت نهضته الطريق وفتحته واسعا أمامَ الثوّار والتوّاقين للحرية في كلّ زمان ومكان.



قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- أدب الطف أو شعراء الحسين عليه السلام، السيد جواد شبّر، مؤسسة التاريخ، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١ م.

- الإرشاد، الشيخ المفيد، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨م.

- أمالي الصدوق، الشيخ الصدوق، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ١، ١٤٣٠ هـ ٢٠٠٩ م.

- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، د.ت.

- بلاغات النساء، أحمد بن أبي طاهر طيفور، اعتنى به وفهرسه: بركات يوسف هبّود، المكتبة العصرية، بيروت، د. ط، ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م.

- البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي، د. محمود البستاني، دار الفقه للطباعة والنشر، إيران، ط ١، ١٤٢٤ هـ.

- تحف العقول عن آل الرسول، ابن شعبة الحرّاني، قدّم له وعلّق عليه، الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ٧، ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م.

- تفسير القرآن الكريم، صدر الدين الشيرازي المعروف ب (ملا صدرا)، تحقيق: الشيخ محمد هادي معرفة والدكتور سيد صدر الدين طاهري، دار بنياد حكمت إسلامي صدرا، طهران، ط ١، د.ت.

– الدلالات المفتوحة: مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، أحمد يوسف، منشورات الاختلاف، المغرب، ط١، ٢٠٠٥م.

– السيمياء العامة وسيمياء الأدب من أجل تصور شامل، عبد الواحد المرابط، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط ١، ١٤٣١ هـ ٢٠١٠ م.

– الشهيد الخالد الحسين بن علي، الشيخ نعمة الله صالحي نجف آبادي، ترجمة: د. سعد رستم، دار الانتشار العربي، بيروت، ط ١، ٢٠١٣م.

– العلامة. تحليل المفهوم وتاريخه، أمبرتو إيكو، ترجمة سعيد بنكراد، مراجعة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط ٢، ٢٠١٠م.

– في القراءة السيميائية، عامر الحلواني، مطبعة التفسير الفني، تونس، ط١، ٢٠٠٥ م، ٢٩.

– القاموس الجديد، علي بن هادية وبلحسن البليش والجيلاني بن الحاج يحيى، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط٩، ١٩٨٨م.

– الكليات، أبو البقاء الكفوي، قابله ووضع فهارسه: د. عدنان درويش و محمد المصري،مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، ط٣، ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.

– مختار القاموس، الطاهر أحمد الزاوي، الدار العربية للكتاب، د. ط، ١٩٨٣.

– المصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، دار الحديث للنشر، القاهرة، د. ط، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م.

– معجم السيميائيات، فيصل الأحمر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ١٤٣١

هـ ٢٠١٠م.

- مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، تعريب السيد محمد رضا النوري النجفي، دار المرتضى، بيروت ط ١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤ م.

- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ضبطه هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٨م.

- مقتل الحسين عليه السلام، السيد عبد الرزاق المقرم، مطبعة غدير، قم، ط ١، ١٤٢٤هـ.

- من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي لجامعة المدرّسين، قم، د.ط، د.ت.

- الموت في الفكر الغربي، جاك شورون، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة إمام عبد الفتّاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، د.ط، ١٩٨٤م.

- نفس المهموم في مصيبة سيدنا الحسين المظلوم،الشيخ عباس القمي، تحقيق الشيخ رضا أستادي، منشورات مكتبة بصيرتي، قم، د.ط، ١٤٠٥هـ.

- نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، شرح الشيخ محمد عبده، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ٢، ١٤٣٢ هـ، ٢٠١١ م.

- الوجيز في السيميائية العامة، جان ماري كلينكنبرغ، ترجمة د. جمال حضري، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٤٣٦ هـ ٢٠١٥م.

الرسائل الجامعية

– سيمياء الموت في ديوان (أغاني الحياة) لأبي القاسم الشابي، رسالة ماجستير، زاهية بو قروحة، جامعة مولود معمري، كلية الآداب واللغات، ٢٠١٥م.

– سيميائية نوازع النفس في القرآن الكريم، سائدة حسين محمد العمري، رسالة ماجستير، الجامعة الاسلامية بغزّة، كليّة الآداب، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

البحوث والمقالات

– بحث: مشكلة الموت في الثقافة العربية، د. حازم خيري، مجلة ابن رشد، ع ١١، شتاء ٢٠١٠ – ٢٠١١ م،على الرابط الآتي: www.ibn-rushd.org بتاريخ ٤/ ١/ ٢٠١٨م.

– مقال: الرضاعة الطبيعية فوائد نفسية لا تحصى ولا تعد، موقع صحتي، على الرابط الآتي: www.sohati.com، بتاريخ ٦/ ٩/ ٢٠١٨م.

– مقال: سيميائية الدم العربي، توفيق قريرة، القدس العربي، على الرابط الآتي: www.alquds.com.uk، بتاريخ ٢١ / ١١ / ٢٠١٧م.

– مقال: قصص عن وفاء الخيل العربية الأصيلة، سعود العنزي، على الرابط الآتي: al-bedowr.yoo.com، بتاريخ ١٥/ ١/ ٢٠١٨م.

– مقال: الموت في الفكر الفلسفي الغربي والديني، علي محمد اليوسف، صحيفة المثقّف، ع ٤٠٢٨، ٩ / ٢٠١٧ م، على الرابط الآتي: www.almothaqaf.com بتاريخ ٤/ ١/ ٢٠١٨م.



المحتويات

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس